المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

إبداعات عالمية

أغسطس 2019

432

السكينة

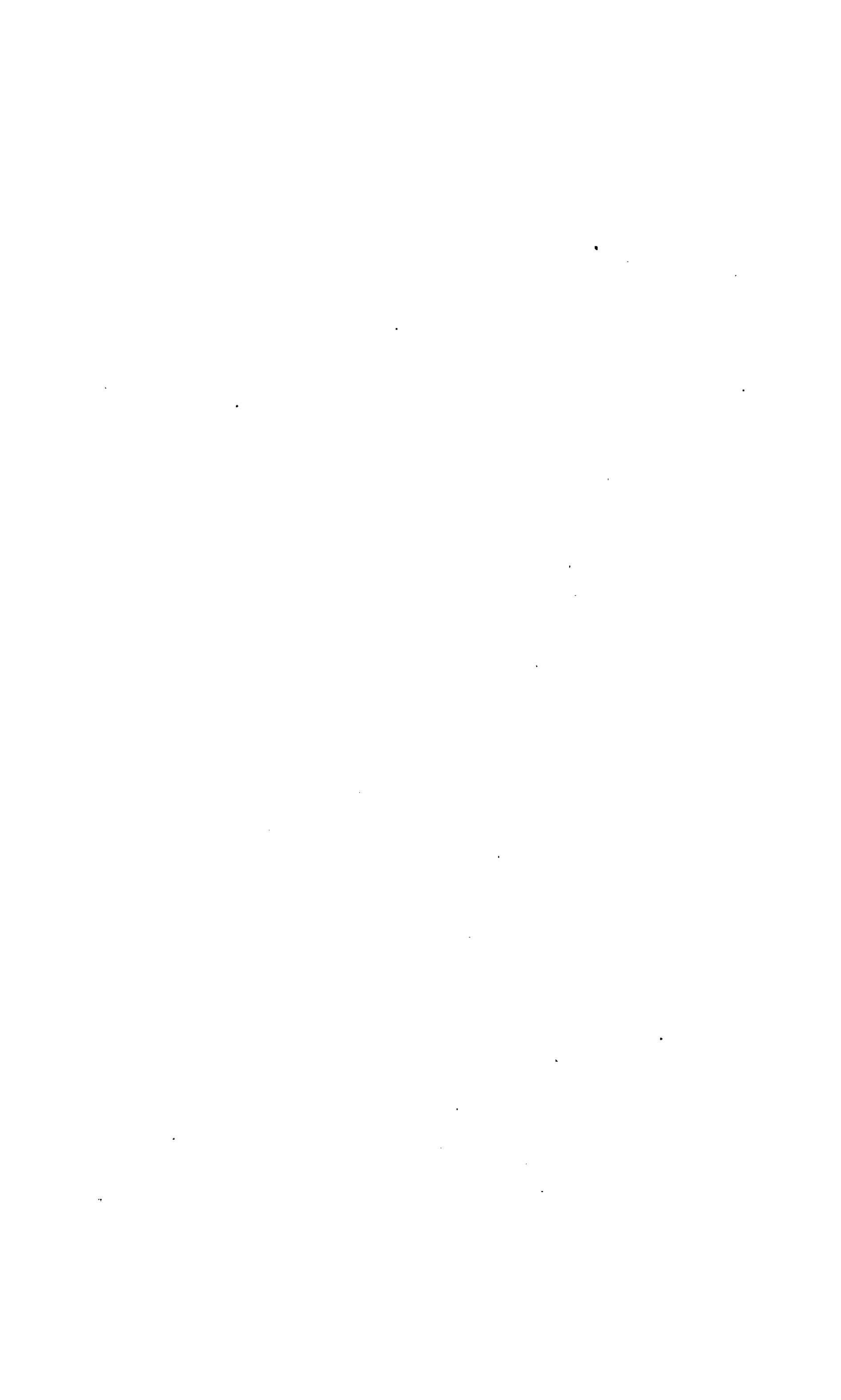
رواية

تأليف: أتيلا بارتيش
ترجمة: نافع معلا
مراجعة: د. عبدالله عبدالعاطي النجار



السكينة

رواية





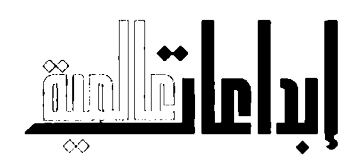
السكينة

رواية

تــألــيــف: أتيلا بارتيش

تــرجــمــة: نافع معلا

مــراجــعــة: د. عبدالله عبدالعاطي النجار



تصدر كل شهرين عن
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

التنضيد والإخراج والتنفيذ: وحدة الإنتاج

في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

التدقيق اللغوي: وائل أحمد حمزة

www.nccal.gov.kw
ebdaat_alamia@nccal.gov.kw
ebdaat_alamia@yahoo.com

ISBN: 978-99906-0-647-8

السكينة

رواية



ANYUGALOM

By: Atilla Bartis

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2019م

إبداعات عالمية - العدد 432

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(1990 - 1923)



المقدمة

مـن دواعـي سروري أن أنتهـز الفرصـة الآن لأقـدم نبـذة مقتضبـة عـن الآدب المجـري الـذي يـكاد يكـون مجهـولا بالنسـبة للقـارئ العربي، ولكنـه - كأي مـن آداب الشـعوب الحيـة الأخـرى - أدب رفيـع ثـري بالشـعر والقصـة والحكايـة الشـعبية والروايـة، حتـى اسـتحق مبدعـوه ارتقـاء منصـة كبـار الكتّـاب والشـعراء العالميـين، فنـال أحـد روائييـه جائـزة نوبـل، وهـو إمـره كرتيـس عـن روايـة «اللامصـير». وحصـد روائي آخـر وهـو لاسـلو هـوركاي جائـزة البوكـر عـن روايـة (حـزن المقاومـة)، ونالـت روايتنـا «السـكينة» شـهرتها العالميـة كواحـدة مـن أشـهر تسـع روايـات مجريـة مترجمـة إلى لغـات العـالم.

* * *

يعـود تشـكُّل اللغـة المجريـة إلى مـا يقـارب ثلاثـة آلاف عـام بعـد أن اسـتقلت عـن قريباتهـا اللغـات الفينوغريـة، وتطـورت حـين اتخـذ المجريـون موطنـا يسـتقرون فيـه. واللغـة المجريـة لا تمـتّ بصلـة إلى اللغـات السـلافية كـما قـد يخمّـن البعـض نتيجـة لموقـع بـلاد المجـر الآن عـلى الحـدود الرومانيـة والتشـيكية. غـير أن اللغـة الفنلنديـة هـي أقـرب اللغـات إلى المجريـة لانتسـابهما إلى أصـول لغويـة واحـدة، وإن كان الشـعبان لا يسـتطيعان التفاهـم لغويـا.

لكـن أقـدم النصـوص المعروفـة المكتوبـة باللغـة المجريـة هـي سـيرة القديـس «فرنتـس»، وتبعتهـا سلسـلة مـن النصـوص تحـكي سـير ملـوك وقديسـين آخريـن، إلى أن ترجـم الكتـاب المقـدس إلى اللغـة المجريـة في القـرن السـادس عـشر. وخـلال عـصر النهضـة الأوروبيـة ارتقـى الأدب المجـري متأثـرا بسـمات الآداب الأوروبيـة

في ذلك العصر بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر، وكان أشهر الكتاب النثريين يانوش فيتيز وأشهر الشعراء الشاعر بالينت بالاشي مؤسس الشعر المجري. ومن العصر الباروكي اشتهر الكاتب ميكلوش زريني، وبرز بعض كتاب السيرة الذاتية مثل ميكلوش كالمان. إلى أن جاء عصر التنوير حاملا معه أساسا للنثر الوجداني الذي مهّد للسرد الروائي.

الرواية المجرية والمجتمع

صدرت أول رواية مجرية نهاية القرن الثامن عشر في عام 1788م، وكانت رواية تاريخية بعنوان «أتيلكا» للكاتب أندراش دوغونيتش، وتلتها روايات تاريخية متعددة، انتشر بعدها ما يسمى بالرواية الشعبية (الحكايات) في بداية القرن التاسع عشر. وفي النصف الثاني من هذا القرن ظهرت روايات الروائي العظيم مور يوكاي وأهم أعماله «الرجل الذهبي» وهي من الكلاسيكيات الإنسانية المترجمة إلى لغات عدة، إضافة إلى روايته الشعرية «أبناء الرجل القاسي القلب». وترسخت الرواية المجرية بمفهومها الوطني النضالي على يد كتّاب كبار اشتهروا بأعمالهم المعروفة عالميا من أهمهم: «غيزا غاردوني» صاحب أشهر رواية في الأدب المجري «نجوم أغريّة» وهي رواية تؤرخ للقتال ضد العثمانيين.

لكن العصر الذهبي للأدب المجري عامة والروائي خاصة بُني على يد مجموعة من الكتّاب الكبار ممن يُعرفون بجيل الـ «غرب»، وهي مجلة أدبية ثقافية رفيعة المستوى استمرت في أدائها الريادي لعقود. ويتربع الكاتب جيغموند موريتس على

عرش الرواية المجرية في منتصف القرن العشرين، وهو واحد من جيل الـ «غرب».

ولكي نكوّن صورة واضحة عن الأدب المجري (والروائي منه) لا بد لنا من إلقاء نظرة سريعة على الوضع السياسي والاقتصادي لبلاد المجر بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، إذ شهدت هذه الفترة تطورات سياسية واجتماعية خطيرة انعكست بدورها على الأدب، فقد انتهت الحرب العالمية الأولى بخسارة الإمبراطورية النمساوية - المجرية وألمانيا، فجاءت معاهدة تريانون في فرنسا لتقتطع ثلثي الأراضي المجرية وتوزعها على دول الجوار، تلتها الأزمة الرأسمالية الكبرى فصعود النازية والحرب العالمية الثانية، فتميزت هذه الفترة بصدمة شديدة لم تصحُ منها الحياة الثقافية بسهولة، لكن مجلة الـ «غرب» حاولت أن تحافظ على تقاليدها المتوازنة المعتادة.

وبانتهاء الحرب العالمية الثانية ظهر وضع سياسي جديد وانتعشت الآمال في بناء البلد على أساس من العدالة الاجتماعية بعد الانتصار على الفاشية. وانسحب هذا على ميادين الأدب عموما والروائي خاصة.

لكن الرياح الستالينية هبّت عام (1948 - 1949) ومعها بدأت عملية منظمة لتصفية التعددية السياسية، وانتهى الأمر بسيطرة مطلقة لدكتاتورية ماتياش راكوشي. كل هذا انعكس سلبا على الأدب وفرض تفسيرا إرادويا لما سميّ بالواقعية الاشتراكية، وأحكمت سيطرة الحزب الشيوعي على كل ما يكتب. وفي انتفاضة 1956 المجرية ضد الحكم الستاليني ساهم الأدباء في المنابر الأدبية بشكل فعّال في الحياة اليومية للثورة المجرية القصيرة الأمد (13 يوما فقط).

وعقب سقوط النظام الاشتراكي في المجر (1989 - 1990) والقضاء على دولة الحزب الواحد، والعودة إلى التعددية السياسية بدأ الأدب الروائي مرحلته الجديدة ملقيا الضوء على ما أنجبته تلك الفترة (الاستبدادية) من قسوة، وما خلفته من تبعات شملت مختلف النواحي الحياتية.

نبذة عن الكاتب والرواية

ولد الكاتب والمصور الفوتوغرافي آتيلا بارتيش عام 1968م في مقاطعة ترانسلفانيا[1] الرومانية ويعيش في بودابست منذ عام 1984م، ولكنه منذ 2014م يقضي جزءا من حياته في إندونيسيا.

بدأ حياته الأدبية بإصدار رواية (النزهة) عام 1995م.

تلتها مجموعة قصصية حملت عنوان (الضباب الأزرق) عام 1998م، ثم رواية (السكينة) في العام 2001، ثم مسرحية (أمي كليوباترا) عام 2002م، تلتها مجموعة قصص قصيرة جدا عام 2005، فمجموعة (الصمت) عام 2010، وأخيرا روايته الضخمة (النهاية) عام 2015.

يعتبر آتيلا بارتيش واحدا من كتّاب ما بعد الحداثة الطليعيين عقب سقوط النظام الاشتراكي في المجر والقضاء على دولة الحزب الواحد والعودة إلى التعددية السياسية، والذين رفدوا مسيرة الأدب الروائي المجري بتجارب ناجحة تحتوي الكثير من المغامرة في الأسلوب الروائي، فعززوا بذلك مكانة الرواية المجرية في أوروبا، وفتحوا لها آفاقها نحو العالمية.

---

(1) توجد ترانسلفانيا حاليا في رومانيا على الحدود مع المجر، وهي في الأساس جزء مقتطع عنوة من المجر بموجب اتفاقية تريانون الموقعة في قصر فرساي بفرنسا بتاريخ 4 يونيو 1920، بعد الهزيمة في الحرب العالمية الأولى، ومساحتها 43.000 كم^2.

رواية السكينة

يجدر القول إن رواية «السكينة» قد وضعت كاتبها آتيلا بارتيش حالا في المقدمة إلى جانب الروائيين المبدعين المعاصرين، وجعلته يتفوق على أبناء جيله في شهرته العالمية بعد أن ترجمت «السكينة» إلى أكثر من ثلاثين لغة أوروبية، إضافة إلى ما أحرزه الكاتب من جوائز أدبية في بلده هنغاريا.

وربما سيستغرب القارئ العربي بعد الانتهاء من قراءتها، تلك الأهمية التي جعلت من رواية «السكينة» تحظى في الولايات المتحدة الأمريكية بأنها أفضل كتاب مترجم لعام 2001م، وهو عام صدورها في موطنها المجر. فالرواية إشكالية في أسلوبها جريئة في طروحاتها تمزج الصدق بالصدق ولا تريد أن تقول إلا الصدق.

نص ما بعد حداثوي من حيث البناء وعلى النقيض من عنوان الرواية، فإن محتواها يفتقر تماما إلى السكينة، ويجعل القارئ يعايش كثيرا من القلق خلال مطالعتها، وكلما مضى قُدُما في معايشته أحداثها تفاقم ارتباكه وتشعّب قلقه لا كما هي العادة في الأدب الروائي حيث إن الحيرة تعصف بالقارئ في البداية، لكنها سرعان ما تزول مع تتالي الأحداث وانجلاء العلاقات المفضي في العادة إلى الانفراج.

تدور أحداث الرواية في فترة استبداد الحزب الواحد حتى انسحاب الجيش السوفييتي من المجر عام 1991، وتَشكُّل النظام السياسي الجديد سلميًا هناك. وتشكّل فترة الاستبداد هذه الخلفية العميقة لأحداث الرواية.

الأم وابنها يعيشان معا في شقة صغيرة في العاصمة بودابست. كانت الأم في السابق ممثلة شهيرة أقام لها معجبوها التماثيل،

وأكنَّ لها حاسدوها كثيرا من الاحتقار، إلى أن ركنت في منزلها ولم تخرج منه طوال خمسة عشر عاما. زوجها مهاجر، وابنتها العازفة الموسيقية الموهوبة مهاجرة، وكل ذلك نتيجة للنظام السياسي الاستبدادي السائد. ولم يبقَ إلى جانبها إلا ابنها الكاتب. وهو من يرعاها، وهي التي لا تكفّ عن مراقبته (مجسدة عليه نظامها الاستبدادي).

ما يقيد البطل ليس فقط العلاقة المتناقضة بأمه بل أيضا ما أقامته حبيبته أستر (ذات المصير التراجيدي أيضا) من جدران وعوائق في وجهه وإن كان بطريقة مختلفة، ليبقى محاصرا حتى في السجن المجازيّ للحب، إلى أن تنزلق أفعاله (وهي أفعال ناتجة عن وسواس قهري) شيئا فشيئا إلى أسفل المنحدر حيث يصل إلى نقطة أكثر غرابة، إلى حالة نفسية أكثر يأسا، ففقد السيطرة على أفعاله، ولم يعد قادرا على تكهُّن تبعات هذه الأفعال في نفس الوقت حين لم يكن بوسع (حُبِّه) أن يمنحه ذلك الانعتاق وتلك السعادة اللذين انتظرهما. هل حقا يصل بطل الرواية إلى نقطة يرى نفسه فاقدا للقانون الأخلاقي، كما تُقرأ على شاهدة قبر الفيلسوف الألماني إيمانويل كانت: «ما يثير دهشتي: السماء المتلألئة بالنجوم فوق رأسي، والقانون الأخلاقي في داخلي»؟

المؤلف

كان الدفن عند الساعة الحادية عشرة قبل ظهيرة يوم السبت، مع أنني وجدت من الأفضل أن أؤجله بضعة أيام على الأقل ريثما تحضر أستر. لكنهم رفضوا إبقاء الجثمان في الثلاجة حتى بزيادة في الرسوم، وفقا لتعليمات جديدة أشارت إليها موظفة المكتب، وسألتني لم لا أقوم بإحراق الجثة، لأنه أقل كلفة وأكثر عملية، ويمنحني الفرصة للتكيف بالوقت واختيار الموعد المناسب لجميع أفراد العائلة. كان ردي أنني لا أحرق أمي، وأفضل إذن يوم السبت، وعمدت في الحال إلى تسديد المبلغ الذي حسبته الموظفة كلفة حفظ الجثة لثلاثة أيام مقدما، ودونت في سجل المحفوظات: سبعمئة وأربعة - تابوت - السبت - كربشي. ثم وضعت أمامي أوراقا، وأشارت بقلم الحبر الجاف حيث ينبغي أن أوقع.

والحقيقة، حين اقترحت المرأة في المكتب فكرة الإحراق، اضطربت للحظة، فقد خطرت لي عروض أمي الجمبازية الهستيرية - قالت: انظر، هكذا يجلس الجميع. وأوضحت، متشبثة بمسند الكرسي المصنوع من الخشب المبخر المجاور لسريرها، كيف يتوضع الأموات في المحرقة، بعد أن شاهدت منذ أشهر برنامجا تعريفيا عن ذلك، ومنذ ذلك الحين وهي تبدأ بذلك كل صباح تقريبا. أما أنا فكنت أقول لها: اطمئني يا أمي، لن تحرقي، وحاذري كي لا يقع فنجان الشاي. لكنها ما لبثت بعد أيام أن أعادت الكرة، وقالت إن الإحراق لا دين له. وكنت أدرك أن أكثر ما كانت تخشاه هو

أن من يحرق لا يبعث من جديد. وقد أثار ذلك إعجابي لأنها طوال حياتها المزرية، لم تكن على علاقة بالله، لا من قريب ولا من بعيد. وفي الآونة الأخيرة صارت طوال الوقت تطالبني بأن أقسم أمامها إنها لن تتعرض للمحرقة، ذلك أنها ترفض أن تحرق. وكنت أجيبها بأنني لن أقسم بأي شيء، وما عليها، ما دامت تستطيع المشي على قدميها، إلا أن تقصد الكاتب بالعدل لتحصل على مستند حقوقي يضمن لها عدم جواز إحراقها. هذه الفكرة بالذات هي التي جعلتها تكف عن مطالبتها بالقسم، لارتعادها الشديد عبر خمسة عشر عاما من مغادرة المنزل.

باختصار، تصورتها للحظة جالسة واقعيا في المحرقة، لكن ليست متشبثة بالكرسي المصنوع من الخشب المبخر، وسرعان ما خطر لي: عسى أن تعود أستر وتشاهد الجسد الهزيل. في ليلتها الأخيرة كانت تقرض أظفار أصابعها المعقوفة التي تحتفظ بخواتم التكريم السبعة، بدءا من خاتم دورة الراحلة يوليا، مرورا بخواتم تكريم أصدقاء الشعر، وصولا إلى خاتم تكريمها في مهرجان موسكو، تلك الخواتم التي تآكلت قشرتها الذهبية منذ زمن، ولونت جذور أصابعها بالأخضر، والأسود، بغض النظر عن أنها مصوغة من النحاس أو الألومنيوم. كنت أريد لأستر أن تشاهد الشعر الأصفر القشي، الدبق بتأثير الزيوت، الذي لطخه الصباغ على نحو متفاوت سنة بعد أخرى، وبرقت من خلاله جلدة الرأس بلونها الرمادي، وأن تشاهد الثديين المشدودين مجددا نتيجة تصلب الجثة، واللذين في الزمن الماضي، بعد إرضاع لم يدم شهرا ونصف الشهر، عمدت إلى دهنهما بالملح منعا لاستطالة الحلمتين. لكنني أكثر ما وددت أن تشاهده أستر هو النظرة الميتة، التي لا تختلف

في شيء عـن النظـرة الحيـة، هـذه النظـرة التـي سـيضيء بريقهـا الأزرق مـن يـوم السـبت عمـق القـبر الـذي ينتظـر فارغـا منـذ خمسـة عـشر عامـا، حيـث لم يكـن ممكنـا إغـلاق عينيهـا.

لم يكـن ثمـة حاجـة لبطاقـات الحـداد، فمنـذ خمسـة عـشر عامـا لم يكـن لهـا أي مـن المعـارف، إضافـة إلى أننـي لم أرغـب في خـروج أحـد إلى المقـبرة في كربـشي سـوى أسـتر. وعـلى أيـة حـال، أنـا أمقـت بطاقـات الحـداد التـي احتـوى درج أمـي مـا يقـارب ثلاثـين بطاقـة منهـا، ذلـك أن اسـمها ظـل مدرجـا في بعـض القوائـم البروتوكوليـة، حتـى إن سـاعي البريـد جاءنـا ببطاقـة قبـل العـام الفائـت، وظلـت أمـي تقرؤهـا طـوال أيـام - يـا للمسـكين وينكلـر الصغـير! ولكـن كـم كان هربغـون ماهـرا! أليسـت الحيـاة رهيبـة! حتـى مثـل هـؤلاء الممثلـين المتميزيـن؟ مخيفة. بـكل بسـاطة مخيفـة. تذكـر يـا بنـي، ولا تنـس أبـدا، اليـوم وينكلـر، وغـدا أنـت. لا عـذر في هـذا. لا منـاص.

وفي بعـض الأحيـان كانـت تخـرج كل البطاقـات مـن الـدرج، وتفرشـها عـلى المكتـب إلى جانـب بعضهـا كأنهـا تلعـب الـورق. صـارت دهنيـة من كـثرة الاسـتخدام، كأصـداف قـراءة الحـظ لـدى نسـاء الغجـر، مـع فـارق أن بالإمـكان أن تقـرأ عليهـا تاريـخ الوفـاة بشـكل أدق، إضافـة إلى عبـارة: مفاجـأة تراجيديـة، أو عبـارة: بعـد معانـاة طويلـة. كانـت لسـاعات تصـف البطاقـات ذات الحـواف السـوداء، وترتبهـا زمنيـا، أو عمريـا، أو تصنفهـا، وهـي تحتـسي شـاي النعنـاع، حسـب الانتـماء الطائفـي.

إن متوسـط أعـمار البروتسـتانت يقـل بمعـدل سـت سـنوات ونصـف عـن أعمارنـا نحـن. وهـذا ليـس مـن قبيـل المصادفـة. - مثـل هـذه الأمـور ليسـت مصادفـة عـلى الإطـلاق يـا بنـي - قالـت - معـك حـق يـا أمـي، ولكـن عـلي أن أعمـل الآن - قلـت.

وعادت إلى غرفتها، تحصي مجددا من هم الذين يعمرون أكثر.

يـوم الأحـد المـاضي ذهبـت إلى الريـف لقـراءة قصـة في لقـاء أدبي. لم أكـن أوافـق عـلى هـذه الدعـوات مـن أجـل النقـود بالدرجـة الاولى، بـل لتعطـشي لشـم الهـواء. تسـوقت، وأعـددت الطعـام السـاخن، ثـم أوصـدت عليهـا البـاب، وكنـت أديـر المفتـاح دورتـه الثانيـة حـين سـمعت مـرة أخـرى: متـى تعـود؟ قلـت لهـا مـرة ثانيـة: سـأحاول جهـدي، يـا أمـي، أن أعـود مسـاء غـد عـلى أكـثر تقديـر. الحسـاء في الثلاجـة، لا تنـسي أن تسـخنيه، وأطفئـي التلفزيـون ليـلا.

كنـت في الحقيقـة أخاطـب البـاب الموصـد بقفـل مـزدوج أضافـت هـي عليـه سلسـلة مزدوجـة حرصـا عـلى الأمـان. ومـن بـاب الأمـان أيضـا، وليـس دونمـا سـبب مـن وجهـة نظرهـا، كان هنالـك أسـطوانة إطفـاء، ومـواد تعقيـم، وصنـدوق معـدني مـن نـوع ورتهايـم.

وأيضـا ليـس دونمـا سـبب مـن وجهـة نظرهـا، جعلتنـي لأسـابيع أفـض معهـا بريدهـا، بعـد أن شـاهدت في التلفزيـون مـا الـذي تبقـى مـن رئيـس مجلـس وزراء، أو مـن محافـظ بعـد فتـح الرسـائل.

- خـرق يـا بنـي. عرضـوا الخـرق. حـول طاولـة المكتـب - قالـت وأسرعـت إلى المرحـاض، كأنهـا في واقـع الأمـر، لا تكلفنـي فتـح الرسـائل إلا لأنهـا مضطـرة لأن تتبـول.

وفي ليلـة مـن الليـالي طرقـت بـاب غرفتـي، ووقفـت عنـد العتبـة، التـي مـا تجاوزتهـا قـط إذا مـا كنـت في البيـت، وراحـت تعنفنـي قائلة:

- تريد أن تقتلني بدخان السجائر هذا.

قلت لها:

- سأعمل تهوية حالا، يا أمي.

لكنها ظلت واقفة في الباب.

- سألتها: ما الخطب يا أمي؟

- تعـرف حـق المعرفـة. لا تقـرأ رسـائلي. هـذه حيـاتي. حيـاتي الشـخصية، ولا علاقـة لـك بهـا. أتفهـم؟

- حسـنا. لـن أفتـح الرسـائل بعـد الآن. لكـن عليـك الآن أن تخلـدي إلى النـوم، لأن السـاعة الآن الثالثـة فجـرا.

وامتنعت في الأشهر الأخيرة عن كتابة المزيد من الرسائل لها.

قصـدت المحطـة سـيرا عـلى الأقـدام مـدة مـا يقـارب الثلاثـين دقيقـة كنـت في حاجـة إليهـا للنزهـة. كنـت دائمـا أقـوم بمثـل هـذه النزهـة قبـل انطلاقـي إلى أي مـكان. وحتـى لـو ذهبـت إلى الحانـوت، كنـت أولا ألـف دورة في حديقـة المتحـف، أو حـول مجمـع الأبنيـة، لأعـود نفـسي عـلى تلـك العبـارات التـي لا تنتهـي بكلمـة أمـي. رغـم أن هـذا ليـس دقيقـا بشـكل كاف هكـذا، ليـس فقـط مـن أجـل العبـارات الأخـرى، بـل لأعـود نفـسي عـلى حـركات مختلفـة، وأنفـاس مختلفـة، لطالمـا كانـت هـذه الدقائـق أرضـا حرامـا، فمنـذ خمسـة عـشر عامـا، وفصـول السـنة تتبـدل بـين عبارتـين، ويفيـض الدانـوب، وتتشـتت إمبراطوريـة العـار بـين «متـى تعـود» و«أيـن كنـت». وخـلال تلـك الفـترة الممتـدة مـن «متـى تعـود» حتـى «أيـن كنـت» حـدث كل شيء: سـماسرة أسسـوا ديانـات، وموثقـون قانونيـون دونـوا أسـفار يوحنـا، وأطلقـوا الزوبعـات في حـق المغنيـات، وهـزات أرضيـة عـلى السياسـيين، خمـس عـشرة جائـزة نوبـل للسـلام خصـت نائليهـا، ونفـس العـدد مـن النسـاء العجائـز اسـتطعن الهـروب بالقـارب مـن جزيـرة الجـذام الأخـيرة في العـالم. خـلال مـرة واحـدة فقـط مـن العبارتـين ظهـر إلى الوجـود ثلاثـة قوانـين اجتماعيـة، وثلاثمئـة قمـر صناعـي، وأعلـن في آسـيا مـوت ثـلاث لغـات، وأبيـد في تشـيلي ثلاثـة آلاف عـن طريـق انهيـار منجـم. مـن

«متى تعود» حتى «أين كنت» أفلس من يكد ليل نهار في العمل، وصال وجال في الميدان مكتنز محتال، وأصيب بالعمى ساعي البريد القديم بفعل الڤودكا التجارية الميتيلية، وتدفقت أوساخ القناة الرئيسية كنبع حار. لكن بين هذين السؤالين ذاتهما قام ناظر البناية برفس الجنين في بطن ابنته إموكا ذات الأحد عشر عاما لأنها قالت إنها تحب العم أستاذ الجمباز من كل قلبها، ورفضت الإجهاض، فقام والدها برفس بطنها أول مرة حين سألت أمي متى تعود، وما إن وصلت البيت قادما من عند أستر وكذبت عليها قائلا إنني حضرت حفلة غنائية، حتى كانت إموكا قد تجاوزت العملية الأولى.

عقدت العزم على أنني ما دمت قد قبلت الدعوة لقراءة القصة، يجدر بي إذن أن أحتمل كل شيء، لأنني ذاهب إلى المكتبة بملء إرادتي. إذن إن طرحت علي الأسئلة هناك فسأجيب عليها، لأنهم في الأساس يدعون شخصا إلى مكتبة ريفية، لكي يتاح لهم توجيه الأسئلة له: لماذا تكتب، ما الذي تشتغل عليه حاليا، هل أنت راض عما حققته حتى الآن، أم كنت تنتظر المزيد؟ حتى إنني دونت على قصاصة بعض الأجوبة المسبقة، حتى لا أضطر هناك إلى عصر دماغي، لأني بطيء جدا، وإجاباتي الارتجالية متعثرة. ولقد حصل لي مثل هذا، وكدت أموت من شدة الحياء، حين قبلت المشاركة في حديث تلفزيوني مباشر أدارته إحدى المذيعات مع ثلاثة من الكتاب. حين جاء دوري لأجيب عن سؤال لماذا أكتب، كنت لا أستطيع التفكير إلا بأن أمي الآن جالسة في البيت أمام شاشة التلفزيون تحتسي شاي النعناع، وما إن أعد إلى البيت حتى تسألني: أين كنت يا بني؟ فكان جوابي في اللقاء التلفزيوني:

الكتابة هي انتحار الجبناء، لكني سرعان ما شعرت في اللحظة التالية أن ما قلته كان غير موفق، لأن المذيعة بادرتني بالقول إنها تستطيع الآن أن تذكر كتابا كثيرين مثل لهم الحبل أو قطار البضائع الانتحار. ومنذ تلك اللحظة لم تتحدث إلا مع الكاتبين الآخرين، اللذين أدليا بأجوبة متقنة مدروسة بعناية. والتزمت أنا حالة من البكم مدة ثلاثين دقيقة تحت الأضواء الكاشفة، كتلميذ على مقعد العار، وكل ذلك نتيجة عبارة فاشلة.

حين وصلت إلى البيت سألتني أمي: أين كنت يا بني؟ تتركني هنا وحيدة نصف يوم، حتى التلفزيون لا يعمل.

كنت أعلم أن تلفزيوننا لا يعاني من أي عطل، وأنها ببساطة قد بدلت القناة لكي توحي بأنها لم تشاهد شيئا.

منذ ذلك الحين اعتدت أن يكون لدي أجوبة مسبقة الصنع لمثل هذه المناسبات. كما أنني منذ مدة، رجوت الصحافيين أن يوجهوا لي الأسئلة كتابيا، فأمضي ليلتين أو ثلاثا لكي أرتب أجوبة مقبولة على عدد من «لماذا» التي قد تهم قراء الصحف الأدبية، أو الصحف النسائية. ليست أجوبة معمقة، بل هي أبعد عن الحقيقة من الأجوبة التي تشبه المتاهة مثل: أنا نفسي لا أعرف، أو أنا أيضا أود لو أعرف. لكنها أجوبة مفهومة وملاحة. وهكذا كنت في منأى عن الخجل بسببها. إذن فقد قررت أن أبذل جهدي لأتكيف مع تلك الأسئلة المتوقعة المشروعة بطبيعة الحال. وإن كان هناك بعد إلقاء المحاضرة، الملفوف المحشي، والبالينكا[1]، فسأحتسي البالينكا، ولن أتظاهر بوعكة صحية، كما حصل منذ نصف سنة حين أردت

(1) البالينكا: شراب كحولي هنغاري يشبه الويسكي. [المترجم].

أن أنجو من العشاء على حساب مدير الناحية وحاشيته، فنجحت في تظاهري بالتوعك، وتهربت قاصدا الحانة القريبة من محطة القطار، وشربت كثيرا، ولم أستطع الانقطاع بعد ذلك عن الشرب.

اصطحبني حارس السكة الحديد إلى منزله. أمضيت الليلة عندهما. وكلما خرج الرجل لتحريك ذراع تبديل السكة، كانت زوجته تغير الكمادة على جبيني.

قالت وهي تضع المنديل الرطب على جبيني: هذا قطار الليل السريع.

ثم قالت وهي تغمس الكمادة في وعاء الماء مرة أخرى: وهذه الآن عربة العشرين شخصا.

وعند وصول قطار شحن الساعة الثالثة والربع صحت قائلا:

- طعامك مالح أيتها الوقحة.

فانفجرت المرأة تبكي، وتتوسل زوجها بأن يقود الدراجة الهوائية ويذهب لإحضار الطبيب، لكن الزوج قال إنه لا حاجة للطبيب، لأن ذلك لا يخص أحدا إلا أنا، ومن أصيح له.

استيقظت على هدير قطار الحادية عشرة إلا ربعا، لا أعاني من شيء. كان حارس السكة الحديد ينام على كرسي مائلا على حافة النافذة، وقد انزلقت قبعة عمال سكة الحديد على قفاه تحمي رقبته من شمس الصيف، بينما كانت المرأة قد وضعت أمامي اللحم المقلي المثوم مع قدح من الشاي، وجلست عند الطرف الآخر للطاولة تشاهد كيف أتناول الطعام وهي تفرط البازلاء، أو الفاصولياء. مضت دقائق لا يسمع خلالها إلا شخير حارس السكة الحديد، وطرقات حبات البازلاء أو الفاصولياء في وعاء الغسيل، إضافة إلى صوت أدوات الطعام في صحني، وكأن هذه الأصوات

الثلاثـة تمـلأ أجـواء الكـون منـذ بـدء الأزمنـة. كانـت شـوكة الطعـام تطـرق الصحــن القرميــدي متواتــرة دائمـا مـع قفـزة كل حبـة مـن غلافهـا بيـد المـرأة، وهكـذا عـزف ثلاثتنـا الموسـيقى المالئـة كل شيء، إلى أن رن جـرس التبديـل، ولا أدري إن كنـت قـد أنهيـت طعامـي، وامتـلأ الوعـاء بالحبـوب. لا أذكـر ذلـك. ولكنـه أمـر غـير مهـم.

- ألديك سيجارة - سألت المرأة.

- سأشتري من عربة البوفيه.

لا يوجـد عربـة بوفيـه - قالـت، وانتشـلت مـن جيـب زوجهـا ثـلاث سـجائر مـن نـوع سـيمفونيا.

- شكرا.

- وخذ هذا أيضا - قالت، وسكبت لي نسكافيه في قنينة صغيرة.

- شكرا.

- احرص على نفسك.

- شكرا - قلت.

أقلنـي قطـار الـركاب في السـاعة الثانيـة عـشرة وعـشر دقائـق عائـدا إلى بودابسـت، وكنـت قـد تصـورت لوهلـة أن ذلـك مسـتحيل. أهنالـك حقـا لمؤسسـة السـكة الحديديـة المجريـة في مثـل هـذا المـكان النـائي غرفـة مطبـخ خدميـة، وحديقـة صغـيرة خدميـة في عقـدة السـكة الحديديـة.

حـين وصلـت إلى البيـت لم تكـن أمـي عـلى اسـتعداد لتحيينـي وقـد تأخـرت نصـف يـوم. ظلـت جالسـة أمـام شاشـة التلفزيـون، محدثـة جلبـة وهـي تحـرك شـاي النعنـاع، وتناولـت حبـة دواء ڤاليريـن، ثـم وقفـت أمـام المـرآة التـي جـاءت بهـا مـن غرفـة ملابسـها السـابقة، تسـوي روبهـا الحريـري، ثـم قعقعـت بسلسـالي أمـان بـاب الدخـول،

لتقف بعد هذا كله أمام باب غرفتي. سمعت لدقائق معدودات تنفسها اللاهث، وشعرت برائحة اللوز الفائح من عرقها، وأدركت أنها الآن إنما تتهيأ لتبث ما لديها من أقوال. وضعت القلم من يدي، وأعددت أجوبتي مسبقا. هذا ما اعتدناه على الدوام. وقرعت الباب أخيرا.

- أين كنت يا بني؟

رغم أنها تعرف بدقة أين كنت.

- كنت في الريف، ألقي قصة يا أمي.

- أستنكر أن تقرأ هذا الكثير من القمامة.

- ولم قمامة يا أمي؟

- أنت تعلم جيدا. لا تكتب عني مزيدا من النعي.

- هذه قصصي يا أمي.

- ما تكتبه مقزز. قمامة، قمامة تبعث على العار. هذا كله من بنات مخيلتك البائسة.

- ممكن يا أمي. قد تكونين محقة، ولكن عليك الآن أن تخلدي إلى النوم. تجاوزت الثالثة.

فعلا قد تكون محقة من وجهة نظرها الخاصة، لأن قسما كبيرا من معارفي يظن أن أمي ميتة منذ سنوات. النقد الإيجابي ملأ نصبها التذكاري بالمديح والنبات المعربش. عشيقاتي الشاحبات اللواتي أمضيت في بيوتهن ليلة واحدة سألنني عنها، فكنت بدلا من أن أجيبهن، أرتدي ثيابي متهربا منهن، وأسألهن أين أجد أقرب موقف للحافلات، لأنه ما من جدوى في أن أقول لهن إن أمي ممتنة لهن وهي بخير، وإنها منذ سنوات لم تخرج حتى إلى الممشى.

ذهابا فقط. قلت لمحاسبة التذاكر بمحطة القطارات الشرقية وقد أرادت أن تعطيني تذكرة ذهاب وإياب. لم أعتد قط على شراء بطاقة إياب. إضافة إلى أنه بعد اطلاعي على جدول الرحلات، تبين لي أنني إذا ما سافرت بهذه الرحلة فسأضطر إلى النزول وسط منطقة (ألفولد)، ففكرت لوهلة أن أجري مكالمة هاتفية، أو أرسل برقية عاجلة متذرعا بمرض مفاجئ أصابني يمنعني من إلقاء القصص. لأن الانتظار لأربعين دقيقة في الفلاة المجرية هناك، يعادل أربعين يوما. ثم إنني في الأساس أمقت حقول القمح المتماوجة، دونما سبب خاص يبرر ذلك، ولكن هذا ما حصل. هناك من تنفرهم المناطق الجبلية، وهناك آخرون ينفرون من البحر. أنا أنفر من الفلاة هذا كل ما في الأمر. باختصار، تبين لي أن علي أن أبدل القطار، وكنت أود لو أعود أدراجي، لو لم يخطر لي ما تفوهت به من كلام مخجل أمام زوجة موظف السكة الحديدية. الأمر الذي دفعني لأقول للمحاسبة: أريد التذكرة، وطمأنت نفسي بأن الأربعين دقيقة من الانتظار سوف تتيح لي مراجعة النص الذي سألقيه في الأمسية. ثم خطر لي أيضا أن (يوديت) في وقت مضى، انطلقت إلى بلغراد على هذه السكة الحديدية، منذ خمسة عشر عاما انقضت يوما في إثر يوم. منذ خمسة عشر عاما وأنا أحضر لأمي الفيتامينات وقطرات الفاليرين من الصيدلية، وأقلام حمرة الشفاه ومناكير الأظفار، وصباغات الشعر، من محال الزينة، ومنذ خمسة عشر عاما تجلس على أضواء التلفزيون الفضية، أو تقف أمام بقع المرآة العمياء. فإذا ما أخذنا الأمر على هذا الأساس، فهي ميتة منذ سنوات. جثة عادية لكن رائحتها تشتم

ممزوجـة بطعـم النعنـاع المغـلي، وتدهـن بشرتهـا بأسـاس يجعـل لونهـا بشريـا. جثـة تلعـب الـورق ببطاقـات الحـداد المهترئـة منـذ مـدة طويلـة. جثـة تجمـع منـذ خمسـة عـشر عامـا، أعـداد مجلـة الراديـو والتلفزيـون، ومجلـة أخبـار الكيميـاء، ومجلـة الحيـاة والعلم. وتحـشر هـذه المجـلات في غرفـة الخادمـة بـين مـا تجمعـه مـن زجاجيـات قـد تصلـح للاسـتعمال، وعلـب حلويـات جميلـة لحقـت بهـا أضرار. لقـد عاشـت عـلى هـذا النحـو: جمعـت الرمـم، وراسـلت شـقيقتي الكـبرى، دون أن يخالجهـا الظـن بـأن مـن تراسـله هـو أنـا. لأن مـا أكتبـه بيـسراي، يتعـذر حتـى عـلى خبـير أن يجـد فارقـا بينـه وبـين مـا تخطـه شـقيقتي بيمناهـا مـن أحـرف حـادة متوتـرة. كلفـت معـارفي أن يبعثـوا لهـا رسـائلي مـن أنتوربـن، أو بومبـاي، أو نيويـورك، بعـد أن كذبـت عليهـم بأننـي أجمـع مظاريـف عليهـا طوابـع أجنبيـة.

مـضى خمسـة عـشر عامـا عـلى وصـول آخـر بطاقـة بريديـة أرسـلتها (يوديـت) حقـا، كتبـت عليهـا مـن كاراكاس: أمـي المحترمـة، إن كنـت ترغبـين في رؤيتـي، فـلا تغمـضي عينيـك فيـما بعـد. ومنـذ ذلـك الوقـت لم تصلنـا إلا حـوالات مصرفيـة مـن بنـك في زيوريـخ - في السـابع مـن كل شـهر، بدقـة السـاعات السـويسرية، وبـكل مـا تتمتـع بـه البنـوك السـويسرية مـن هـدوء، لأن خمسـمئة فرنـك شـهريا هـي نصيـب حتـى أخـس الأمهـات. وبعـد بطاقـة كاراكاس صرت أنـا مـن يكتـب الرسـائل باليـد اليـسرى، وحرصـت ألا يتضمـن أي منهـا عتابـا أو غفرانـا، بـل كانـت نيتـي الإشـارة إلى الحيـاة مـن فتـاة مدفونـة حيـة، إلى أمهـا التـي دفنـت نفسـها وهـي حيـة. أمـي المحترمـة، خـلال هـذا الشـهر سـيكون لي ثـلاث حفـلات في سـتوكهولم. سـأكتب لـك مجـددا في عيـد

الفصح. تحياتي لشقيقي الأصغر، ولك أيضا بطبيعة الحال. هذا ما كتبته بيسراي، لأن أحدهم سافر في اليوم التالي إلى ستوكهولم، في حين كانت يمناي تنفض رماد السيجارة في المنفضة.

بعد مضي أسابيع على دفن شقيقتي الكبرى وجنازها المتواضع إلى حد معيب، تبين بما لا يدعو للشك، أن أمي لا تخرج من البيت لمجرد صداع الشقيقة، ولكنها باتت لن تغادره بعد الآن مطلقا. ومن الآن فصاعدا سوف تعيش في تابوت تقدر مساحته باثنين وثمانين مترا مربعا بين ديكورات مسروقة من المسرح: صوفة ليدي ماكبث، سرير لورا لانباخ، قبعة آنا كارنينا. حتى جلاس المرحاض يعود إلى عرض فاشل. فكرت عندئذ أن بعض الرسائل قد تساعدها، لكني لم أفطن لأمر وحيد هو أن أمي سوف ترد لاحقا على الرسائل، وسوف تبدأ مراسلة ابنتها الميتة التي جرى دفنها على نحو معيب. هذا ما لم أفطن له. ببساطة لم يكن منطقيا. لكني آنذاك كنت أحسب المنطق ككلب العميان، أو ككرسي عجزة أحكم القبض عليها فلا توقع في المهاوي. تحت القسم كان يمكنني أن أصرح بأن المنطق يقود أفعالنا، حتى إنني دونت سلسلة السبب - النتيجة لحياتنا حتى الآن: كل قول، وماذا ينتج عنه. كل إيماءة وما الذي سبقها. كنت أؤمن بمثل هذا نتيجة مسي الأحادي، وتركيزي على الفكرة الواحدة. رحت أرسم صورا، وأدون ملحوظاتي آخذا كل شيء بعين الاعتبار، منذ هجرة شقيقتي حتى بطاقتها الأخيرة من كاراكاس، منذ أن غادرت شقيقتي في إحدى الأماسي الفندق في بلغراد، مصطحبة كمانها، حتى إعلان أمي موتها، وترتيب دفنها في أقصى مقبرة كربشي عند قبور الأطفال التي نبتت فوقها أعشاب الفاشرا.

فجأة وجدتني عاجزا عن تدوين: سأصعد وأعزف في كاتدرائية كولن، ليس لأنني لم أصعد حقا للعزف في كاتدرائية كولن، بل لأن أمي بعد رسالتي الثالثة أو الرابعة بدأت ترد على رسائل (يوديت).

- من فضلك ضع هذه في البريد يا بني.

- طبعا يا أمي، أنا في وجهتي إلى هناك.

تجمد الدم في عروقي. ومنذ ذلك الحين تقبع ردودها مغلقة ضمن مظاريفها في درج مكتبي. فكيف أضعها في البريد ولا وجود أصلا للفنادق، وقاعات الكونشرتو[2] المعنونة. وكنت أدرك أنه لا يجوز لي أن أقرأ هذه الرسائل، فقد تتضمن أمورا أعجز عن السكوت عنها، ويفتضح الأمر بأن أمي تراسلني بدلا من ابنتها المدفونة حية.

ذات مرة وأنا في طريقي إلى الحانوت حملت الرسائل المعنونة إلى باريس، والبندقية، والقاهرة، ورميت بها في الحاوية، وما إن بلغت ناصية الشارع حتى سمعت هدير شاحنة جمع القمامة، فعدت مسرعا لأنتشل الرسائل من بين المخلفات المنزلية.

- انتظر!

ناديت الرجل صاحب المعطف الفوسفوري وهو يوشك أن يعلق الحاوية بالرافعة الهيدروليكية. لم يبد اندهاشا خاصا لندائي، لأن من المحتمل حصول ذلك فيتراجع أحدهم ويسحب من شدق الشاحنة ما ألقى به في الحاوية منذ دقائق قليلة.

- هل وجدت كل شيء - قال حين انتشلت الرسائل الملطخة بالقهوة.

(2) تأليف موسيقي غربي كلاسيكي. وهو صنف من التأليف الموسيقي وضع لآلة واحدة أو لعدة آلات مرافقة الفرقة الموسيقية، أي تقوم آلة أو آلتان أو ثلاث بأداء الدور الرئيسي، أما الفرقة فتكون مرافقة فقط. [المترجم].

- أجل وجدت كل شيء - أجبته.

ومنذ تلك اللحظة، ليس فقط لا أقرأ رسائل أمي، بل لست على استعداد لرميها، وأدركت أنه ينبغي علي التخلي عن هذا الأمر فلا معنى له إطلاقا، وسيان إن كتبت (يوديت) أم لم تكتب كل شهر، لأن أمي لا تفتح الرسائل أساسا.

وكان بعد أيام أن سافر أحدهم إلى كولن، وكنت أنا مرغما على كتابة رسالة: أمي المحترمة سأصعد للعزف في كاتدرائية كولن. كنت أريد أن أنهي هذا الافتراء البائس، إلا أن أمي في إحدى الليالي جاءت إلى غرفتي بشعر متلبد، تعض شفتيها، وصرخت بي كيف أجرؤ على اختلاس بريدها. وطلبت مني أن أعيد لها في الحال رسائل ابنتها. فقلت لها: اهدئي يا أمي لأن يوديت تعزف الآن في سيدني أو في مكان ما في كالدونيا، والرسائل تتأخر في الوصول إلينا من هناك. بعد هذه الحادثة كتبت أختي بعد أسبوع ونصف من إسطنبول، لأن عائلة (بنتير) في الشقة رقم اثنين في الطابق الأرضي، بدلا من سفرها إلى وارسو، عرجت على إسطنبول من أجل المعاطف الجلدية.

أجل، ربما كان من الأصلح ألا أوصيهم على معطف جلدي من تلك المعاطف الرديئة، إذا كانت توصيتي ذريعة لأطلب منهم إيداع رسالة البريد هناك، وأن من الأفضل أن ألغي الأمر نهائيا، لكني لم أستطع. بل أكثر من ذلك، فقد شكرت أمي لأنها تطالب برسائل يوديت. صرت أترقب يا أمي وصول البريد لأننا ألفنا معا أن أقوم أنا بفض الرسائل، ثم نقرأ سويا سطورها القليلة في المطبخ.

أمي المحترمة، هذا الأسبوع سأعزف ثلاث كونشيرتات في تل أبيب، ومن هناك سأنتقل إلى دمشق. تحياتي لأخي الأصغر - كتبت

يوديت، فلم أكن أملك أية فكرة عن أن أولئك البائسين قد عقدوا اتفاقا لوقف إطلاق النار، وهذا يعني أن الحرب قائمة. كما أنني لم أكن أدري أن على السائح أن يختار: إما إسرائيل، وإما سوريا. هذا ما عرفه الزوجان (برنر) في السفارة السورية حيث طردهما القنصل حين رأى الفيزا الإسرائيلية في جوازيهما. لكن المظروفين كانا قد صارا لديهما. وظنا منهما أنه سيكون لدي طابعان يهوديان على الأقل، فقد أودعا حتى رسالة يوديت الدمشقية في حيفا لإرسالها من هناك، لكن أمي لم تفطن للأمر، فلم يكن لديها ما يكفي من المعرفة للتفريق بين الحروف اليهودية، والعربية. المهم أنها لم تفطن لشيء بل أحضرت خريطة العالم التي حصلت عليها مني، ورحت أساعدها في العثور على دمشق، ووضعت على المدينة شارة إكس. صارت الخارطة مليئة بالإكسات والتواريخ، فغدت مثل لعبة رهانات، أو مثل: (تعامل بذكاء)، لكن هنا، ليس مجمعات سكنية بل صالات حفلات موسيقية وفنادق فخمة، ليس الهيف[3] بل اللوفتهانزا[4] أو الخطوط الجوية الملكية الهولندية KLM، وليس بمكعب النرد، بل بانتظارنا البريد. هكذا كانت شقيقتي على خريطة منشورة فوق طاولة المطبخ، تجوب العالم مثل بيدق تحركه أمي لكن أنا من يحدد الوجهة. خططت على مدى سنوات أن إشارة إكس ينبغي أن تكون فوق بودابست، حيث ستكون نهاية اللعبة، لأن المنطق يقول ذلك، لكنه تبين فيما بعد أنني أخطأت التقدير.

(3) قطار مجري عصري صغير الحجم مقارنة بالقطارات العادية ويصل العاصمة بودابست بضواحيها. [المترجم].

(4) أكبر شركة طيران ألمانية، وعند دمجها مع الشركات التابعة لها تكون أكبر شركة طيران في أوروبا من حيث عدد المسافرين وحجم أسطول الطائرات. [المترجم].

في كارتسغ جلست في قاعة الانتظار. أنا في الحقيقة أحب الزهور الاصطناعية المصفوفة على أنابيب المدافئ، والورق الصمغي المتدلي على النيون لقتل الذباب، والساعة بحجم وعاء الغسيل بالتوقيت الدقيق، والروائح: سندويشة كريم الكبد، والبالينكا المنزلية، ورائحة العرق التي لا تستطيع عاملات الشطف والتنظيف، حتى بمعطر جو التفاح الأخضر أن تزيلها من هذه الحظائر.

في نهاية الغرفة جلست امرأة ريفية شابة. راقبتها لفترة. كانت تضع بين رجليها سلة تزقزق فيها صيصان. وتحتضن رضيعا تحاول إرضاعه لكنها كانت تفشل في كل مرة لأنه لا يكف عن الصراخ. في نهاية المطاف حصلت على ما أرادت: حررت ثديها من تحت البلوزة، فتشبث به الرضيع كالعلقة. لم يكن في صوت رضاعته النهمة، ما يشير إلى ما يطلقون عليه براءة الأطفال، فما إن بدأ يمص حليب أمه حتى كفت الصيصان في السلة عن ضجيجها.

بعد ذلك جاءت شاحنة نسيج وتوقفت أمام المدخل. لم يقم السائق بإطفاء المحرك، بل انتظر حتى قفز خمسة عشر رجلا عن مؤخرتها، ثم أطلق الوقود ومضى. لا تلويحة، ولا مع السلامة، لم يحصل شيء من هذا القبيل، كأن سائقا آليا يقود الشاحنة. أم الرجال قاعة الانتظار، وجلسوا إلى جوار بعضهم. كانوا جميعا يرتدون نفس قمصان الجمباز، والسراويل. ومن المستبعد أن يكونوا من الجنود المجريين. وكان باديا عليهم أنهم لا يفهمون حتى عبارة (يوما سعيدا). إن كان من جهتي، فأنا لا أجد أن من المعيب أن تكون السمة العرقية بارزة على وجوهنا، كأولئك النسوة اللواتي يثرثرن أمام المدخل. أحيانا يمكن في الحال معرفة ماذا كان طعام الغداء، سباكيتي، أم حساء غوياش المجري. هذه السمة هي من

بين الوصايا القليلة التي أوصي بها إلى جانب الفوضى البابلية، وهي سمة أحبها. وباختصار فإن السمة العرقية قد برزت على وجوه الرجال الخمسة عشر لتقول إنهم ليسوا مجريين. لم ينطقوا بحرف، بل راحوا، بامتعاض، وبعيون رطبة لماعة يرمقون خطوط السكة الحديدية عبر الستائر الملطخة بفضلات الذباب، وبيد كل منهم كيس من النايلون يعود للمجمع الاستهلاكي نفسه. وبداخله نفس النوع من السندويش ونفس جواز السفر، وحين عاد الرضيع إلى زعيقه مجددا، ارتعشوا جميعا على نفس المنوال، مع أن واحدهم بمقدوره في كل حين أن يعتل على ظهره كيسين من الإسمنت.

ثم دخل مراقب المحطة وقال لهم إنه يرغب في مشاهدة بطاقات السادة، لأن الانتظار في القاعة يخص فقط من بحوزتهم بطاقات سفر صالحة. لكن الرجال لم يفهموا مقصد الرجل.

- بيليت. إن لم تكن بيليت، يمكنكم الخروج. الشمس ساطعة بأحلى ما يمكن - قال المراقب، وهو يشير نحو الخارج.

- أوراديا[5] - قال أحدهم، وبلحظة واحدة دس الخمسة عشر رجلا أياديهم في أكياس النايلون. وأخرجوا بطاقاتهم دفعة واحدة.

- اسمها نجفاراد، يا أولاد أمهاتكم القردة - قال المراقب مبتسما، وهو يومئ برأسه أن لا بأس إذن ما دام هناك بطاقات.

- وما الجدوى من هذه الشتائم الآن؟ - سألته، مع أني كنت أود لو أوسع رأسه لطما بالحائط. لقد تعلمنا طوال سنوات على الاعتقاد بأن جبننا هو قدرة على التحمل.

- لا داعي للقلق، لا يفهمون ما أقوله - قال وهو ما يزال مبتسما.

(5) أوراديا مقاطعة في رومانيا يطلق عليها المجريون اسم نجفاراد، وقد كانت في الماضي تتبع لهنغاريا. [المترجم].

- أنا أفهمه - قلت.

- لم يطلب البطاقة من حضرتكم - قال وخرج. هدأت نفسي بفكرة أنني سأكتب هذه الفكرة، فيما بعد، فنحن حين لا نجرؤ على الضرب، نكون على استعداد لنفكر بالكتابة على أنها كرباج.

وبعد دقائق وصل القطار الدولي من جهة (بست)[6] إلى المحطة فاستقله الرجال، لكنهم لم يصعدوا إلى عربة واحدة، بل صعد اثنان منهم إلى العربة الأولى، وخمسة إلى الأخيرة. وهكذا على نحو عشوائي، لأن وجود خمسة عشر عاملا بثياب سوداء دفعة واحدة، أمر صفيق، يجعل حتى أشد حراس الحدود تسامحا يتخلى عن لطفه، فيتعذر عليهم العودة من نجفاراد إلى هذا المكان بالتذكرة السياحية الصالحة لمدة شهر بقطار أكسبريس كورونا، ويصار إلى طردهم سنتين من غرفة المؤونة الأوروبية، ولا يبقى لهم بدلا من العمل الموسمي في الخريف المبكر إلا ذل باراغان، وبدلا من أجر خمسين فورنتا[7] ووجبتين ساخنتين في اليوم إلا عصيدة يوم أمس الباردة. هذا ما ستبقى لهم كخصوصية عرقية.

بقي أمامي عشرون دقيقة لانطلاق القطار، فتصفحت مخطوطة قصتي لأرى إن كانت تحتاج لتعديلات نهائية، فلم يتطلب الأمر إلا وضع فاصلة أو فاصلتين، وتنقيح عبارة. كانت أحداث القصة بسيطة جدا. حول قس ريفي يدعى ألبرت موهش، خدم طوال سنوات بنزاهة، ثم قام في قداس الجمعة الكبيرة، بمزج كعكعة القداس بسم الجرذان فقتل جميع الحضور.

(6) تنقسم بودابست إلى قسمين، بودا وبست، بودا هي المنطقة السكنية والأقل صخبا، وتقع على تلة خضراء، أما بست فهي المنطقة السياحية والممتعة حيث المعالم والمقاهي والمجمعات التجارية. يفصل نهر الدانوب بين بودا وبست، والجسور الجميلة تجمعهما معا. [المترجم].

(7) العملة المجرية الرسمية المستخدمة حتى اليوم. [المترجم].

من عادتي، حين أدعى للإلقاء، وبينما يكون الداعي -غالبا ما يكون أستاذ اللغة المجرية، أو أمين مكتبة، أو مدير مركز ثقافي- يقدمني ببعض الكلمات، أقوم أنا بمعاينة جمهوري، وأختار من بينه ذلك الشخص الذي سأقرأ له، والذي سأنظر أحيانا في عينيه، والذي لن يكون لديه أسئلة. أي ذلك الشخص الذي لا يصفق فيما بعد لأنه يشعر أن ذلك ليس من شأنه. والآن أيضا، حالما جلسنا على المنصة، قمت بانتقاء امرأة تقارب الأربعين من العمر، جالسة في طرف الصف الثالث، ولكني بعد قراءة بعض العبارات، شعرت أنها منزعجة من كوني أتوجه إليها بالقراءة، وعند منتصف القصة نهضت وخرجت من القاعة، حتى إنها لم تكترث لقرقعة كرسيها. في هذه اللحظة كان جلوسي على المنصة وكأني في جلسة قضائية، لكني أنهيت قراءة القصة وبذلت كل ما في وسعي لأجيب بنزاهة عن الأسئلة، من مثل: لماذا أكتب، وما مشاريعي، وهل أنا راض عما حققت من نتائج، أم أنني كنت أنتظر المزيد؟ غير أني لم أتذكر الأجوبة بدقة، وهكذا كان علي أن أكسب الوقت بشرب الماء حتى أنهيت كامل الإبريق. في مثل هذه الأماكن هناك، دائما لحسن الحظ، إبريق من الماء. ومع مرور الوقت سألني أحد الأشخاص المسنين لماذا وقع اختياري على قس بالتحديد ليكون بطلا لقصتي، وهل أنا غاضب من الكنيسة، فإن كان الجواب بنعم فلماذا -حسب رأيه- تلعب الكنيسة دورا مهما في العالم الاغترابي المعاصر. ومن جديد كان علي أن أكرع كأسا من الماء، فلم أكن أنتظر سؤالا كهذا لأجيب عليه. حتى إنه لم يخطر لي أصلا أن للقس ألبرت موهوش علاقة ما بالكنيسة.

أجبت بأني لست غاضبا من الكنيسة، وأني نفسي، لا أدري لماذا اخترت قسا ليكون بطلا للقصة. وقلت ربما لأنه لا معنى للقصة إذا كان سكرتير حزبي بطلها.

ليس بوسعنا أن نتوقع من سكرتير حزبي ألا يقوم بتسميم أعضاء الحزب. ولحسن الحظ أيضا، سارع أمين المكتبة لمساعدتي:

- حقيقة هذه القصة رمزية. عدوة العم، لكنها مصاغة بإخلاص شديد للحياة.

قال ذلك وسارع إلى تقديم امتنانه لقبولي هذه الدعوة، وتمنى لي مزيدا من التوفيق في عملي.

بعد ذلك، تقدم إلي القس المحلي، وهو رجل في حوالي الخمسين، من نموذج الروحاني الميداني، الذي إن دعت الحاجة، تنقل من خندق إلى خندق، وكأن السماء زاخرة برعودها، ولن يناله من رضا الله اللامتناهي إلا بعد أن ينجز عمله تماما.

- لدي نبيذ قداس طيب جدا، إن كنت راغبا في تذوقه - قال، وأخذني من ذراعي بطريقة أظهرت مبررا ألجأ إليه إذا ما أردت الاعتذار عن قبول دعوة مدير المدرسة، الذي كلفته اللجنة الثقافية في اجتماعها دعوتي للعشاء كمهمة من مهامها، والذي بدا عليه الارتياح واضحا الآن، لكي لا يجد نفسه مضطرا إلى الإسهاب في الحديث أمام شخص غريب، عن المشاق التي تواجه القضايا التعليمية، والمدرسة التي قدمت رغم كل شيء نموذجا يحتذى، ومهرجانات الإلقاء، والرحلات العلمية، والنجاحات التي حققتها في المقاطعات فرقة الرقص الشعبي التي تحتفل هذا العام بيوبيلها. بدا عليه الارتياح لكي لا يجد نفسه مضطرا لإبداء اهتمامه، سائلا عن المشاق التي تواجه نشر الكتاب. حسبه مشكلته الخاصة:

لم يمض يومان على إجهاض البقرة. وسيقول إنهم في نطاق البرنامج الثقافي يكلفونه مرتين كل عام، استقبال كاتب، في أحسن الأحوال، يملأ الحمام بالتقيؤ، ثم يتحرش بابنته ذات الستة عشر ربيعا. وفي أسوأ الأحوال يكون أبكم كالقبر، يأكل فخذ الدجاج بالشوكة والسكين، فيضطر أفراد العائلة لأن يسيروا على منواله، فيأكلوا بالشوكة والسكين، في حين إنه ينبغي أن يتكلم، أن يطارد الغيوم. سحقا لهذا البرنامج الثقافي الذي يجعلنا نقرأ على وجوه الكتاب جميعا، بكما كانوا أو متقيئين، أنهم ليسوا في الحقيقة سوى ركام من البؤس، أطفال رضع نفخوا على شكل بالغين يودون إلى اليوم أن يظلوا عالقين بأثداء أمهاتهم.

- شكرا أيها المدير، لكن الإبراشية دعتني للتو، على نبيذ القداس.

- يا للأسف، أيها الكاتب. لكم كان حديثنا سيطيب.

- وأنا كذلك، آسف كل الأسف، أيها المدير، لكنك تتفهم أن رأي الأب لازار يهمني على نحو خاص.

- طبعا، طبعا أيها الكاتب. إذن، أنا سعيد بأنني قد تعرفت عليك شخصيا. واسمح لي أن أتقدم، باسم المقاطعة بأكملها، بامتناني الجزيل من أجل هذه المناسبة التي لا تنسى.

ثم أمسكني القس بذراعي وقادني كما يقاد الأسير، فانقدت له، رغم أنني أجفل من ملامسة الرجال. المصافحات فقط هي ما أحتملها، بشرط مد الذراع طويلا ما أمكن. ولكني الآن شعرت أن هذا القس صاحب المصباح اليدوي هو الوحيد في هذه القرية اللعينة الذي لم تشحنه بالغضب الشديد، تلك الحادثة التي وصمت الموقر ألبرت موهش بالعار. هو الوحيد الذي يمكن المكوث معه

حتى الغد بلا تصنع، بعيدا عن المظاهر، ثم مغادرة القرية من هنا على الفور، والعودة إلى أستر بأول قطار. هذا ما دار في بالي وأراحني على نحو ما، فتركت القس يقودني من ذراعي في القرية المظلمة، عبر حدائق مهجورة، بين حظائر البقر، وأقنان الدجاج، لأن الطريق أقصر. يسحبني تارة، ويدفعني تارة، تبعا لحفرة، أو بركة ماء يضيئهما مصباحه اليدوي.

- عندما نصل سنعثر لك على كنزة من أحد صناديق المساعدات

- قال بعد أن تبللت سترتي من رذاذ المطر، فشكرته وأشرت أن لا داعي لذلك لأن نبيذ القداس سيفي بالغرض.

لا بد أننا قطعنا منعطفا طويلا بلا فائدة، لأننا ما إن عبرنا الترعة حتى بلغنا الطريق العام مجددا، وتوقفنا أمام علية في عزبة خربة طاف ضوء المصباح على كامل الواجهة الأمامية فلمعت شظايا نوافذ العلية المشلعة مصفوفة كأسنان القرش، حتى استقرت حلقة الضوء أخيرا على الشعار الحجري العفن فوق المدخل: البجعة التي تسقي صغارها من دمها.

- مناسب؟ - سألني فيما كان يفتش عن مفتاح باب المدخل.

- مناسب - قلت، وقد خطر لي أن هذا العش العفن كان شعار عائلتنا قبل أن يخرج مثل ذلك من الموضة، حينما كان هناك دروع أرقى تنحت فوقها الشعارات: العنقاوات تقذف اللهب، والدببة البنية اللون تضحك، والأسود المجنحة تزأر، ومازالت جميع حيوانات الشعارات تحيا بكامل عافيتها حين تحول الدم الذي يطعم به طائرنا صغاره إلى ماء منذ زمن طويل. هكذا أمكن لأمي في عمر السابعة عشرة أن تكون حرة وتصعد إلى خشبة المسرح لتلعب دور يوليكا، في حين أمكن لي أن

أستمتع بالعش من نوع غونترڤاغنر المطبوع على غطاء قلمي الحبر من ماركة باليكان.

منذ عشر سنوات قصدت، لأسابيع، بائعا للتقليديات بعد أن قررت أنني في عيد الفصح سوف أسترجع لأمي الشعار القديم. كنا صرنا نتبادل التحيات مع السيد روزنبرغ، لكنه لم يستطع أن يقدم لنا أفضل من قلم حبر، فيما كان طموحي أن أحصل على برشمان مثلا، أو على حفار خطوط نحاسي مقتبس من كتاب قديم. لم يكن يطمئنني أن أسلم أمي قلما. أنا عندي قلم مونتبلاس وهو قطعة بيضاء مصنوعة من بلاستيك الباكلي. فكيف أستبدل به قلم البجعة الموقوقة؟ وقعت في حيرة شديدة وقصدته مجددا لأنني لم أقرر بعد أي القلمين أريد. قلم مونتبلاس أم قلم البجعة، وهناك قلت للعجوز روزنبرغ إنه يستطيع أن يبيع القلم لأحد هواة جمع التقليديات: أنا لا أحتاج إليه. فقال لي: لا تنخبل، ولا تكن عاطفيا، وإلا فستظل تأكل حساء اللفت طوال حياتك. ثق أن هذا القلم أفضل لك. خذه إلى البيت، اغسله، واسكب فيه جرعة من الحبر الديمقراطي الشعبي. ليس لدي حبر هنا. قمت بنقعه بالماء الفاتر طوال ليلة كاملة، كي تعمل مضخته من جديد. وصار جاهزا للكتابة منذ أسابيع. لكنني لم أعرف ما سأفعل به، حتى سافر أحدهم إلى بروكسل، ومنذ ذلك اليوم، وأنا أكتب به لأمي رسائل شقيقتي الكبرى.

- هل سبق أن مررت بهذه النواحي - سأل القس.
- لا، لكني سأبذل جهدي لأشعر أنني في بيتي - قلت.
- في آخر فترة كان مقرا للحرس العمالي.
- أجهزوا عليه على أكمل وجه!

- في الناحية الخلفية لحقل التفاح كانوا يجرون تدريباتهم على إطلاق النار. في البداية أطلقوا على ديكة، ثم على كلاب شاردة. طبعا، تعتبر هذه مزحة صبيانية قياسا، إلى ما يقوم به قس فيقضي بكعكة القداس المسمومة على كافة الحضور.

- وأين المفارقة هنا! آمل أنه لا وجود للحرج الإكليركي في داخلك يا أبت.

- لا تهذر. منذ مدة طويلة تخلصت من شعور المهانة والحرج الإكليركي. ما رأيك، لماذا نقلوني من كنيسة متوجة إلى هنا؟ أنا قس صالح جدا وفقا لوجهات النظر التي تمتلكها.

أمسكت المصباح اليدوي كي يتمكن من وضع المفتاح في قفل الباب، ثم دخلنا إلى المطبخ الذي كان صالة للتدريب. أشعل الإنارة.

- أخذوا الجدران الخشبية، لكن المعدات الأخرى على السطح.

- المنظر الخارجي يوحي للمرء بأنه سيرى هنا أشياء أخرى.

- هل ترغب في حساء الكرفس، أم في حساء كريات الكبد؟

- حساء الكرفس.

- وأقلي اللحم.

- لا داعي. هل هربت الطباخة؟

- دعنا نقل زوجتي. صحيح أنه لم يكن زواجا تاما، لكن كلمة الزوجة أنسب.

- ما الذي حصل؟

- لا شيء خاص. أنا كنت أعلم الجغرافية، وهي الفيزياء. ثم جاء إلى المدرسة معلم جمباز. لا حيلة لي، ولا علاقة بما حصل من سلسلة أحداث الحب المؤثرة. لا وجود لطفل من حسن الحظ.

- وعلى العموم، الطريق من الطلاق إلى الإكليركية ليس باستقامة سهم.

- كنت محظوظا. يمكنني القول: اختبار رباني. في مكتبة المدرسة مددت يدي لأطال كتاب حمار أبوليوس الذهبي، فأخرجت عن الرف الكتاب المجاور: اعترافات أوغستين.

- هذا ليس بالقليل من أجل اختبار رباني.

- قد يكون كثيرا بالنسبة للمبتدئين. كنت حادا أكثر من اللازم في بداية الأمر، وسرعان ما طردت من التعليم. ثم هدأت، وفي الثلاثين من عمري انتسبت إلى اللاهوت. هذا تقريبا كل شيء في مسيرتي.

تركنا الماء يسخن على الغاز من أجل حساء الكرفس، وخرجنا لجلب الحطب، وأشعلنا النار لتدفئة غرفة الضيوف، والأدق غرفة الأسلحة، والأدق الأدق غرفة تدخين أحد الاقطاعيين السابقين المدعو (ڤير) الذي قد يكون وفق حساباتي من أخوالي البعيدين، أو الأكثر قرابة. لكن حساباتي هذه لم أجد لها أساسا أستند عليه. مثلما اضمحلت العائلة، ونفدت الفدادين الممسوحة، ومعها الأجراء، ومثلما ضمر لحم الضأن متحولا إلى مؤخرات دجاجات مبتاعة في السوق السوداء، ومثلما خفتت أصوات أبواق الصيد، واشتد بكاء الأطفال جوعا، وهدأ عواء كلاب الصيد ليحل محله قرقعة آلة رتق القمصان، ومثلما شيئا فشيئا استحال الدم الذي تطعمه البجعة لصغارها إلى ماء، هكذا تزاحم في الذاكرة، السلطان، والثروة الماضيان، لدرجة أن أمي، كمالكة سرية لنصف بلاد المجر، صعدت بلا عوائق إلى المسرح لتلعب دور يوليكا، وتابعت أولا فأولا من خلال الأحاديث في بوفيه المسرح، مفاصل التأميم المثيرة. حتى إن

المؤممين زاروها على الفور في الغرفة الحالية المفروشة، فلم يعثروا على أي شيء ذي أهمية سوى آلة كمان، في حين إن الطبقة العمالية لا تحتاج لآلة كمان ولو لحظة واحدة. إضافة إلى أن الفنانة الشابة (ڤير) قد اكتفت بالجلوس على الكرسي، وراحت تبتسم بارتباك للمؤممين الثلاثة، في حين سكتت أمي سكوتا عميقا عن نصف بلاد المجر العظمى.

إذن، في الوقت الذي امتلكت فيه الشعار العائلي على هيئة ماركة قلم حبر، فقد أعلن كتاب الهاتف شجرة العائلة الأكثر موثوقية. حصلت لأمي على كتاب هواتف بودابست، إضافة إلى جميع كتب هواتف الأرياف. سرقتها كلها من المقصورات الهاتفية، حتى لو كانت مثبتة بلوالب، فقد انتزعتها بالسكين. كانت هذه الكتب أحب الهدايا إلى قلبها طوال الفترة التي كنا نتبادل فيها الهدايا. أحيانا كنت أضع أمامها أفضل أنواع كتب الهواتف، فتقوم أمي، بمناسبة عيد الفصح، بالكتابة إلى كل شخص من عائلة (ڤير) واحدا، واحدا. وكان هنالك من يرد على الرسالة لكن على هذا النحو في أغلب الأحوال: نحن من (ڤير هاغن). أو على هذا النحو: جدنا كان من عائلة (ڤير) فقط. والغريب أن كل المولودين من عائلة (ڤير) لم يكتبوا مطلقا. تحديدا، أولئك الذين لم تصلهم وقائع التأميم المثيرة من خلال بوفيه المسرح، الذين لم يكن الإبعاد والنفي مجرد حادثة رحلة قنص قصت عليهم. هؤلاء بالتحديد لم يرغبوا في التواصل مع أبناء العم الثامن، أو العاشر، ومع أفراد عائلات لم يروهم أبدا، الأمر الذي بدأت أتفهمه جيدا بعد فترة، ولم تتفهمه أمي كثيرا.

من المؤكد أن عناوينهم قد تبدلت، يا بني.

أجل يا أمي تبدلت عناوينهم عدة مرات. لكن ينبغي حقا أن تنامي لأن الساعة تجاوزت الرابعة - قلت. وحين رأيت أن الثروة تتنامى حتى بعد اضمحلالها، وأن المملكة الماضية للعائلة (ڤير) تتوسع كل عام ببعض المقاطعات، شرعت، مستخدما قواي الذاتية، ورحت أعمل على تقطيع هذا البلد الشبحي، هذه الصنوبرة السرطانية. في بداية الأمر كنت حذرا -كي لا أقطع الفرع من تحتي وأقع كما يقال- ثم عكفت على تقطيعه مستخدما البلطة، وخلال سنوات كنت قد قطعت الفروع الممتدة إلى اللاشيء، والجذور الضاربة في الرغبة، إلى أن توصلت إلى الحقيقة الملموسة الوحيدة، كمان شقيقتي الفاخر.

كانت الأخشاب رطبة، فكان من الصعب إشعالها حتى بالبترول في المدفأة. بعد ثلاث - أربع محاولات خرج القس لإحضار دفعة جديدة من ورق الجرائد. في هذه الأثناء قمت بمشاهدة رفوف الكتب المشكلة من خزائن أسلحة الحراس العماليين. نجحنا أخيرا في إشعال نار التدفئة، أحضر لي كنزة حمراء من صندوق المساعدات الهولندية، فعلقت سترتي لتجف. ثم عدنا إلى المطبخ الذي خصص -وفقا للجص- ليكون على الأرجح صالونا، لا مطبخا أو صالة للتدريب. وبينما كان يرش مسحوق الماجي في الماء المغلي، كنت أنا أحضر الأطباق من الخزانة.

- أعترف بأنني ظننت أنك ستكون أكثر حماسا - قال.

- بسبب الشعار؟ - سألته.

- بل بسبب روح المكان.

- لا أزعم أنه أبقاني على حالة من البرود التام، أما عن الحماس، فليس هنالك ما يبعث على الحماس.

- هل نشوي؟ لدي ما يلزم من الثوم، والدهن.
- لا، شكرا.
- لسبب ما تصورت أنك تنشغل كثيرا بجذورك.
- جذوري موجودة تحت خشبة مسرح - قلت.
- أي أنكم أسرة فنية.
- من هذا القبيل - قلت.
- إن كانت تزعجك أسئلتي، لا أريد أن أضغط عليك.
- حسنا - قلت، وكان من نتيجة ذلك أن برد الهواء قليلا، رغم أن كل ما في الأمر أنني لم أرغب في أن يتحول الحديث، ويصبح عن الحالة الصحية للفنانة (ڤيير) المعتزلة.

تناولنا الحساء بصمت، ثم توجه إلى طرف المطبخ لإحضار النبيذ. ملأ، فكرعنا، ثم ملأ، وكنا مازلنا على حالة من الصمت الدائم. لا أحب الحديث عن الدين، مثلما لا أحب الحديث عن أمي، ورغم ذلك فقد بادرت بالحديث قائلا له إن بوسعه أن يبدأ حملته، فهذا واجبه المهني أولا وأخيرا، فكان رده: إن كان هناك من وسيلة لذلك فهو يفضل أن يتجنب الفشل وخيبات الأمل.

- ألا تطرح الموضوع للنظر فيه؟ - سألته.
- بعدما سمعت بحادثة ألبرت موهش المرعبة، أظن أنه لم يعد ينفع معك حتى تجربة مدعومة كل الدعم. لو أعتصر لك ماء من حفرة الخندق، فستقول لي: إنه عمل جميل، لكنني لا أشعر بالظمأ. سوف تظمأ فيما بعد. أنا أنتظر اللحظة المناسبة.

ثم خلع رداءه الكهنوتي وعلقه على خطاف مشدود على أحد جوانب الخزانة، عندئذ رأيت ندوبا، وقطبا لجروح ملأت ذراعيه.

- أردت أن أضرب أستاذ الرياضة - قال، ثم ارتدى كنزة صوفية.

- والآن، ألم تعد تريد ضربه؟ - سألته.

- كيف لا. لكن الآن لسبب آخر تماما. إنه قوي جدا. آنذاك مكثت في المشفى شهرا ونصف الشهر. أفضل الآن أن أصلي لأجله.

- إذن تنتظر اللحظة المناسبة - قلت لأني لسبب ما شعرت أنني إن لم أتحدث أنا عن أمي، فمن الأفضل ألا يتحدث هو عن أستاذ الرياضة - على أية حال أنت أول قس لا يسارع بحماس إلى إنقاذي.

- لا تقل إنك فوجئت بذلك. على أية حال أوشكت ألا تستسلم للمجيء معي. كان بوسعك أن تتحدث مع مدير المدرسة في قضايا التعليم، ومصاعب نشر الكتاب.

- يحتمل أنك محق.

- بالمناسبة، يمكن هداية الشكوكيين إلى الصراط المستقيم، لكن ليس أولئك الذين يبغضون الحق.

قال ذلك فشعرت للحظة أنني كالملفوظ. فلأنصرف إذن من هنا - فكرت. فلأعد إلى بودابست بأول قطار - فكرت. أو فلأقصد حالا مدير المدرسة، وأتناول فخذ الدجاج بالشوكة والسكين - فكرت. ثم فلأكرع الكحول حتى أثمل كحيوان، وأتحرش بابنته ذات الستة عشر ربيعا - فكرت. في النهاية، لقد مضى عام كامل ولم أتحرش بأحد - فكرت. ولأذهب غدا إلى أستر وأقول لها إنني لم أعد أحتمل - فكرت. وإننا إما أن نحاول أن نحيا كالبشر، أو فلتنسحب من حياتي، وترجع إلى غابات الصنوبر. أين كنت يا بني - تحدثت عن الدين، يا أمي.

- لم أكره الحق في يوم - قلت وأشعلت سيجارة.

- كيف لا. مثلما كرهت البائع الذي غشك بالوزن حين اشتريت السكريات من الحانوت. يمكنني القول إن لديك صورة طفولية عن

الحق، وإنك من الذكاء بحيث تدرك هذا. كما تتمتع بموهبة تؤهلك لكتابة ذلك على نحو مؤثر يفطر القلب. هل أتابع؟

- وأجبن من أن أتنازل عن هذه الصورة الكاريكاتورية لأنني أخاف أن تكون الكتابات التي تفطر القلب كثيرة.

- كما ترى، كان هذا مجديا.

- وكيف لا يكون مجديا. أنا أتبع منطقك. أغلب ما قلته أنت قد يكون صحيحا. وحده مثال بائع السكريات لا يقنعني. أولا، لأني لا أذهب إلى الحانوت لشراء السكريات، وثانيا، لأني أعتقد أننا جميعا صرنا مغشوشين. وأنا مضطر أن أفكر على هذا النحو حتى أفقد حسي السليم.

- أو حتى تتقيأ ذات صباح أمام المرآة. أخشى ممن لديه مثل هذه الصورة الدقيقة عن الدين، أن يفقد كل فرصة للإيمان، طالما فمه محشو بالطين.

- ممكن - قلت. سكبت النبيذ. اجترعنا.

سكب هو مجددا - هذه هي الكأس الأخيرة. أود لو أسافر بقطار السابعة والنصف.

- هناك قطار مباشر عند التاسعة. سأرافقك حتى المحطة.

- شكرا - قلت - من ناحية أخرى، إنك لا تدرك كم أنا ممتن، يا أبت، لأنني خلال وجبة من حساء الكرفس ونصف ليتر من النبيذ القدسي، كدت أفقد ما لدي من قناعة بعدم وجود للعناية الإلهية.

- لا أشك في ذلك.

- يمكن القول إنني شيئا فشيئا، صرت أحسد أولئك الذين يكفيهم أن يمدوا يدهم إلى كتاب آخر في المكتبة.

- ذلك شيء آخر. التعامل مع الذين تكون السماء فوقهم فارغة، أسهل على الدوام، قياسا مع من لديهم صورة كاريكاتيرية.

- ببساطة يا أبت، لا أعرف صورة أفضل. لهذا السبب أخشى أن أتمسك بهذه الصورة الكاريكاتيرية بعض الوقت.

- طبعا. قلت لك إنني أمنحك فرصة. هل أعطيك بيجامة للنوم؟

- أفضل بطانية إن أمكن.

- ستجد بطانية في الخزانة. ضعها قليلا فوق المدفأة. أنا أفعل هكذا.

أفقت صباحا، وقد وقف قرب سريري، رجل بعباءة كاهن تلامس إبهامه جبيني. كما يفعلون حين يعمدون أحدا، ويقومون الآن بالمسحة الأخيرة. بقيت لحظات أفتش في بقايا الأمس لأعرف أين أنا، ومن يكون ذلك الرجل. لا بد أني كنت داخل كابوس، ذلك أني جفلت من لمسة الكاهن وقد مسحت إصبعه كل مشاهد الحلم، الأمر الذي لم يسرني، لأنني أتشبث بأحلامي مهما كانت تافهة.

- انهض. لقد أنهيت توزيع الكفارات عن شتائم البارحة، إضافة إلى اثني عشر شخصا قدموا قرابين، ومازال الجميع يعيشون - قال. فقلت له ردا على هذا، بأن هذه القرية محظوظة لأن قسها يؤمن بالله. ثم سألته ونحن نحتسي القهوة، ما إذا كان قد رسم الصليب فوق جبيني بقصد الطهارة الأولى أم الأخيرة.

- أليس الأمر واحدا بالنسبة إليك؟ - سألني.

- نعم. لكن المرء في بعض الأحيان يجب أن يخمن ربما ليس واحدا - قلت.

كان أقصر طريق إلى المحطة يمر عبر مواقع الغجر. عبر القس بسيارة الجيب بين الخيام المنصوبة جزئيا، متجنبا البرك القذرة، دون أن يكف عن إطلاق منبه السيارة ليجفل الأطفال أنصاف العراة المهرولين إلى جانبها. كان بعض منهم بلا لباس داخلي، وجميعهم يلهثون ويتبعون السيارة الصارخة، بأقدام ومؤخرات عارية. المحظوظون من بينهم تشبثوا بقبضة الباب، وضحكوا عبر النافذة. وآخرون كانوا يتنقلون على الحجارة البارزة في البرك، فيبدون كأنهم يسيرون على الماء. وجميعهم يرتدون إلى ما فوق أفخاذهم العارية كنزات حمراء مثل كنزتي، لأن خمسمئة كنزة حمراء وصلت الأسبوع الماضي في شحنة مساعدات هولندية. لكن المشهد الشبحي الأعنف شكلته الأغطية النايلونية بدلا من السقوف القرميدية. هذا العدد الهائل من الكنزات الحمراء، كان أكثر شؤما من النوافذ المغطاة بالبطانيات، ومن النيران المشتعلة في الغرف ذات الجدران الثلاثة، ومن النسوة اللواتي قعدن على الأدراج البيتونية التي لا تفضي إلى مكان. درج لا يفضي إلى شيء ما يزال إنسانيا.

تملكني الغثيان، فظننته للوهلة الأولى بسبب السيارة المترجرجة، أو مشهد الكنزات الحمراء الهائلة العدد، لكنني سرعان ما تذكرت بوضوح شديد أدق تفاصيل حلمي الصباحي: جلست في كوخي على سرير من العوارض الخشبية، أصغي إلى فرقعة الخشب المشتعل في المدفأة، وأراقب، عبر النافذة الصغيرة، طلوع الفجر فوق الغابة، وأنتظر ابتداء وقت العمل. بعد ذلك، هنالك في الطرف الآخر، في الوكر، بدأت كلاب الدموم نشاطها ككل صباح. أنت ونبشت التربة، وحملت العظام المجردة، ثم راحت تمضغ

العمدان الفقرية بحثا عن بقايا نخاع جاف. ارتديت معطفي اللبادي، وتناولت العصا ذات الخطاف المعقوف، وقصدت حفرة الفطائس خلف الكوخ، لإحضار وجبات الكلاب. هذا كان عملي: إطعام الكلاب مرتين يوميا، دون السؤال عن أمر هذه الجثث، مع أنه من النادر أن أصادف من أسأله. مرة كل أسبوع، ودائما في الليل يملؤون حفرة الجيف. حين استيقظت كانت جثث الأطفال والنساء قد صارت هناك. اللافت أن كافة الجثث كانت رائعة: جمودها فقط ورائحتها المقيتة وشيا بأنها جثث أموات. يمكن لي إذن أن أطول أيا منها بعصاي، وأعلق الخطاف بعنقها، ثم أجذبها إلى صدري، كحبيبة نائمة، أو طفل مريض، وأمضي بها إلى الوكر الكائن في الطرف الآخر من فرجة الغابة، من أجل الكلاب. خلال هذه المسافة البالغة بضع مئات من الأمتار، كان بوسعي أن أتمتع بهمود الجثث الباردة. أدركت أنني أستطيع في ذلك المكان المشجر أن أفكر كما أرغب. وأشعر بما أريد، دونما تدخل من أحد، ودونما تأثير أي تعليمات ناظمة، كان من بين الموتى من حملته من حفرة إلى أخرى من دون أن أنطق بحرف، وكان منها من حدثتهن عن الغابة مثلا، وأن أشجارها أضحت بسبب مرض الأشنة، كأنها مغطاة بالتراب، وأن غابتنا بعكس الغابات الأخرى ليس لها منظومة جذور. انظري! قلت لامرأة عجوز وأنا أزيح التراب بقدمي.. انظري مجرد ألواح، فلا يجدر بك أن تخافي. طبعا كنت أعرف أنها لا تخاف، لأنها ميتة. ولا يهمها أن ألقي بها للكلاب. ومع ذلك، فهذا يختلف كثيرا عن أن أقوم بجرها من قدميها حتى الحفرة. حاولت ذلك مرة أو مرتين، لكنه لم يعجبني. والآن راقصت صبية رقصة الفالس لأني لاحظت أن أكثر

ما تحبه أن ترقص الفالس. حمرت شفتيها بحبة من التوت البري. كان جسدها الذي لم يبلغ سن الثامنة أخف وزنا من حفنة تراب خريفي. وفيما كنا ندور في رقصتنا كان شعرها يتطاير بفعل الريح ملامسا وجهي، وهكذا رقصنا، واحد، اثنان، ها، واحد، اثنان، ها، حتى وصلنا إلى الكلاب. لكنني كنت على الدوام أعرف واجبي بأنني عند حافة الوكر سوف ألقي بها من ارتفاع يقارب ست أقدام. حتى هي لم يكن بوسعي أن أستثنيها. وحين أوشكت أن أقذف بها إلى الكلاب المكشرة عن أسنان مقعقعة، فتحت عينيها وسألتني: ما دمت تجيد الرقص بمثل هذه الروعة لماذا إذن تقوم بهذا العمل؟ فقلت: لأني لا أعرف عملا أفضل، وعلي أن أكسب لقمة عيشي. لست أجيد أي عمل آخر، لهذا السبب فرزوني إلى فصيل الإطعام هنا. قلت. وفي أثناء الرقص تخليت عن خصرها، فلم تهو بين الكلاب كباقي الجثث بل هبطت طائرة مثل ريشة، وهي تضحك. وفيما كانت الكلاب تمزقها، كان صدى ضحكها يملأ الغابة. في هذه اللحظة شعرت بأني سأجن - دعوها! - صرخت ورحت أهوي على الكلاب بالعصي والحجارة - هذه مازالت حية! - صرخت - سوف تهلكون جميعا بسببها - صرخت، لكنهم استمروا في تمزيقها، وظلت الفتاة تضحك، وامتلأت الغابة النتنة برائحة النعناع الفائحة من دمها - أنت العاهرة الأخيرة - صرخت - لن تجعلي مني مجرما! - صرخت، ورحت أجري بين الأشجار رغم إدراكي أن لا معنى كبير لذلك وصار الوحل يسيل من فمي.

- ألهذا الحد أزعجك مشهد البؤس؟ - سأل القس، لكنني اكتفيت بأن أشرت بيدي أن دعنا من هذا، حتى إني لم أشعر بعد بالحياء المعتاد الذي يتملكني، إذا ما وجدت في نفسي أن

ما يعتمل في داخلي لا يظهر على السطح. يجب على المرء أن يقدم شيئا في مثل هذه الحالات. الشعور بالحياء على الأقل. يجب أن يمضي بنفسه ويقول للسيد روزنبرغ: لست في حاجة إلى قلم حبر، مع العلم أنه يدرك أن هذه العبارة، في جوهر الأمر، لا تكاد تختلف عن العبارة التي تقولها صناعة الألبسة الهولندية: لست في حاجة إلى هذه الخمسمئة كنزة من العينات السيئة الصنع.

- دعنا نسرع - قلت، وتركت ورائي مخيم الغجر برجاله سالخي جلود الأحصنة، وأدراجه المفضية إلى لا شيء، وأطفاله بكنزات المعونة الحمر، خلفته ورائي كسيرك جوال، مشهد الفرجة الوحيد فيه أسد هزيل من جلد وعظم يلعق الحليب من الوعاء.

لم أملك تذكرة عودة، لأني منذ خمسة عشر عاما وأنا أشدد لبائعة التذاكر في المحطة: ذهابا فقط، مثلما سبق أن شددت يوديت على هذا في أحد مرافئ البحر الأدرياني، عندما تأبطت بعض الملابس، إضافة إلى كمان عائلة (ڤير) الفاخر، راجية من أحد عمال سفينة الشحن، أن يؤمن لها من منطلق إنساني، ومقابل ألف دولار، مكانا صغيرا، بين البضائع الصناعية الثقيلة اليوغسلافية. خطر لي، إذن، عند نافذة بيع التذاكر، أنني صرت ملزما، حتى باتجاه عودتي إلى البيت، أن أؤكد: ذهابا فقط. دفعت ثمن التذكرة بسرعة، لأن القطار بات يصفر.

- خبئ هذا - قال القس. حين صرت واقفا على سلم صعود عربة القطار، ووضع بيدي كتابا بغلاف جلدي.

- كتاب الاعترافات؟ - سألت.

- لا تهذر معي. حتى إنك لا تعرف المؤلف.

- حسنا - قلت ودسست الكتاب في جيب سترتي - إذن فأنت بانتظار اللحظة المناسبة.

- لا تقلق. هنالك ما أمضي به وقتي.

- لعلك كنت محقا. قد يكون علينا أولا أن نملأ أفواهنا بالوحل حتى تطفح، وعندها يمكننا أن نرفع قلوبنا إلى الرب.

- لا ينبغي أن نحاول رفعها. إنها تصعد على أية حال.

نادرا ما يسافر أحد في رحلات ما قبل ظهيرة يوم الإثنين.. لا عمال، لا سياح، لا مرتادو أسواق طوق البلد بسلعهم التجارية، باستثناء وكيلين من ذوي المحافظ الجلدية المسطحة، بدأا الآن للتو، عملهما على نحو خفيف في القطار: فمن وجهة نظرهما أن شركة سويف سوزوكي سوف تجتمع خلال سنة، وعندها يمكن شحن معدات أدوات الطعام الملبسة بالذهب، إلى بودابست، والعائلة إلى بحيرة بالاتون[8] - سترى فيما بعد كيف ستأخذها، كالسكاكر، فتيات البوتيك في الشارع الدائري. الآن موسمها. كيف تقول إنك لا تستطيع أن تضع كفالة من أجل خمسين قطعة من المعدات؟ لا تشرح لي عن فاتورة الكهرباء، ينبغي عليك أن تقف على قدميك. استغل الفرصة.

إذن هذه النوعية من الوسطاء هي التي تجلس في هذه العربات، إضافة إلى بعض زائري المشفى الذي يحملون القرنفل، وزجاجات عصائر الفاكهة، وزائري مكاتب الدوائر بخصوص التعويض، وفي جيوبهم عقود بيع شراء مدونة بالحبر، لأراض بقيمة ثلاث ذهبيات، أو شهادات براءة سجنائهم التي تثبت أنهم منذ

(8) بحيرة عذبة المياه في غرب المجر. وهي أكبر بحيرة في وسط أوروبا وأحد مقاصد السياح. [المترجم].

اثني عشر عاما رجعوا معا إلى البلد سيرا على الأقدام من شواطئ يانيسي - من أي مكان سأحصل لك على كتاب إخلاء سبيل؟ ألم توقع على إفادة بأنك لم تطأ هذا المكان قط؟ قام الحارس بركلنا على مؤخراتنا عند مدخل المعسكر لكي نغادر من هنا لأننا لم نجرؤ على التسلق على سيارة الشحن خوفا من إطلاق النار علينا من الخلف. هل فقدت عقلك أيها الفتى؟ هل تظن أنهم اقتطعوا حلقة الشاذ من أذني؟ لا تذكر لي الفقرات المكتوبة، بل انظر في أذني. هذا ليس مكان حلقة شاذ، بل الجرذ هو من قام بقرضها في البراكة. والخسارة أنني لم أستيقظ، وإلا لكنا نحن أيضا قد أكلنا اللحم - إذن هذه هي النوعيات التي استقلت العربات قبل ظهيرة الإثنين، فكان من العسير إيجاد مقصورة فارغة، مثلما يتيسر ذلك فجرا حين يسافر العمال، أو في نهاية الأسبوع في أثناء الرحلات السياحية. مثل أولئك يجتمعون في مقصورة واحدة، وقد يكون عددهم حتى ستة عشر في ثمانية مقاعد، يشتمون رئيس الوردية أو أستاذ الفيزياء، وهم يتبادلون زجاجة المشروب على أنغام المسجلة. أما الوسطاء، وزوار المشفى، وطالبو التعويضات، فيرغبون في البقاء وحدهم، يغلقون الستائر، وعند محطات التوقف يتظاهرون بالنوم كي لا يزعجهم الركاب الجدد، وينزلون سقاطات الأبواب بحيث لا يتيسر إلا لمراقب التذاكر أن يدخل المقصورة.

عثرت على مقصورة في آخر العربات، أنزلت سقاطة الباب وأغلقت الستارة، وفكرت أن من الأفضل أن أدون حادثة القس ألبرت موهش في حافظة أوراقي الصفراء التي تتضمن أحداثا استثنائية غريبة على قاعدة حكاية شقيقتي يوديت، وخواطر قوامها خيبات الأمل، لم ألجأ إلى القذف بها لتأكلها نار المدفأة، بل

أبقيتها داخل حافظتي الصفراء مستلقية على مكتبي بين مسودات، ومنقحات كتابية، كي تتمكن أمي - جريا لاتفاقنا - من تصفحها على هواها حين لا أكون في البيت. فحين أكون في البيت لا تتجاوز أمي عتبة غرفتي، ولكنها ما إن أغادر حتى تنبش كل شيء وتملأ غرفتي بروائح عطورها القوية، وتريق شاي النعناع، وتسقط بعضا من شعر رأسها، وتلطخ مخطوطاتي بأحمر الشفاه العالق على يديها، وبالكحل أيضا نتيجة قيامها بمسح عينيها هناك. غير أني لم أكن أتحدث معها بالأمر، وإلا لكنت قد أوصدت على مخطوطاتي وخبأتها في الدرج، ولكانت أمي ليست أول من اطلع عليها.

لا أستطيع في القطار أن أكتب، أو أقرأ. المناطق الريفية المتحركة قربي لا تنفك تضغط علي خلال محاولاتي في المطالعة. إن مشهد أتفه الغابات يؤثر سلبا على الوصف الطبوغرافي الخصب، وهو مشهد جدير بالذكر، فقط لأن الناس، مثلا، لا يشكلون إزعاجا. أستطيع جيدا أن أقرأ فوق سلم متحرك، أو في موقف ترام، أو في سيارة، ولم يزعجني الحديث الجانبي وأنا أسمع مونولوج الممثل مرميلادوف، بل إن من الممتع أحيانا أن تصغي إلى جدال يدور حول نهائي الكأس، وأنت تتصفح (نقد العقل المحض).

وحده الإقليم مزعج إن لم يكن نعمة من النعم. كم حسدت أولئك الذين بوسعهم أن يجلسوا إلى مطالعة كتاب في جزيرة مارغيت[9]، أو أن يقصدوا حديقة الورود بقلم وأوراق. لكن ذلك لسبب ما لا يتماشى معي. حتى إنني لم أحاول أن أتصفح الكتاب الذي حصلت عليه من القسيس، بل رحت أرمق السهب منتظرا

(9) جزيرة صغيرة في بودابست تقع في نهر الدانوب وتمتاز بطبيعتها الخلابة، حيث تحتوي على العديد من الحدائق الخضراء والمناظر الطبيعية الساحرة. وهي تعتبر المكان الأمثل للراحة والاسترخاء من ضجيج المدينة. [المترجم].

قدوم مراقب التذاكر كي أنتهي من هذا الأمر. منذ سنوات وأنا أرتعد من فكرة أن يجد المراقب عيبا ما في تذكرتي، وينزلني من القطار، وهذا طبعا من الحماقة. فليأت هذا المراقب العاهر - فكرت. وسرعان ما أدهشني أنني لم أعد أشعر بالخوف. لا بل لو أنه يقدم على الأمر وينزلني، فسوف أظل هائما على وجهي في هذه السهوب لأربعين يوما. ولهذا فائدته المرتجاة: لن تستطيعي أن تفتحي صنبور الماء يا أمي - فكرت. وسوف تضطرين أن تقتري بنصف الكيلو من الخبز - فكرت. وأنت أكثر ما تعتمدين على الخبز يا أمي - فكرت. على الخبز الأبيض من المخبز في شارع راكوتسي - فكرت. لو كان هذا المراقب يتمتع بقدر بسيط من الإنسانية، لوجد عيبا في تذكرتي، وقذف بي من القطار السريع إلى السهب، ونزلت أنت إلى التسوق يا أمي - فكرت. تكفي خمسمئة فرنك شهريا لتنفقي منها على تفاهات لا تنفع في شيء، ومكياجات لا يراها أحد - فكرت. بالمناسبة ليست أختي الصغرى، بل أختي الكبرى، أما آن لك أن تفهمي ذلك يا أمي - فكرت. حسمنا هذا الأمر منذ أن كنا في سن السابعة - فكرت. من الحمق أن نظل نتجادل مدى الحياة في نصف ساعة فارق عمر - فكرت. حين كنتم في تدريبات أحد الأعمال المسرحية العمالية، كنا، أختي وأنا، في غرفة التلقين نتبارى في الحملقة في عيون بعضنا، ومن يستمر يكن الأكبر سنا - فكرت. ولم نتجادل بعدئذ في الموضوع - فكرت. كان عليك أن تفهمي منذ ذلك الوقت أن يوديت هي شقيقتي الكبرى - فكرت. يوما سعيدا، التذكرة من فضلك، قال المراقب. تفضل، قلت. هذه ليست مقصورة للتدخين، قال المراقب. آسف، سأخرج فيما بعد إلى الممشى، قلت. لا ريب في أن إلحاق الأذى

ببطنـه سـيلفت انتبـاه المـرء. فكـرت. يكفـي أن تفتـح النافـذة، قـال المراقـب. لا بـأس، شـكرا لـك، قلـت.

حـين أحـضر سـاعي البريـد رسـالة يوديـت الأولى مـن أمريـكا، قـام الرفيـق الوزيـر باسـتدعاء الرفيـق (فنيـو) الأمـين الحـزبي في المـسرح، وأعلمـه بـأن قلبـه لا ينفطـر عـلى نحـو خـاص مـن أجـل الفنانـة (ڤيير)، لأنـه، مـن ناحيـة أولى، يفضـل الممثـلات السـمراوات ذوات الخصـور المليئـة، ومـن ناحيـة ثانيـة، لأن هنـاك وقوفـا عـلى الـدور مـن أجـل الجوائـز المختلفـة، وخواتـم الذكـرى، الوضـع مناسـب تمامـا لتحصـل عـلى البرقيـة، لكنهـا في نفـس الوقـت، كـما أفـادت بـه نيويـورك تايمـز، أن ابنـة السـوء الصغـيرة هـذه تبـلي بـلاء حسـنا بالعـزف عـلى كمانهـا بشـغف القطـة حـين تمـوء في أيـام الخصوبـة. باختصـار، مـن الخطـأ أن نخـسر أحـدا مثلهـا، فنحـن في نهايـة المطـاف، قـوة موسـيقية عظمـى، أليـس كذلـك؟ ثـم إن المتميزيـن يملكـون الأفضليـة للتبهـرج والظهـور، في حـين يمكـن شـكمهم نسـبيا فـلا يكتبـون أو يرسـمون الترهـات عـلى هواهـم، ولـو أن مـن الصعوبـة بمـكان تقويـض الطبقـة العماليـة عـن طريـق الرباعـي الوتـري.

باختصـار، إنـه كرفيـق وزيـر، سـيكون ممتنـا للرفيـق فنيـو إذا مـا عـثر سريعـا عـلى كعـب آخيـل قلـب الأم. فأمـضى الرفيـق فنيـو ليلتـه بطولهـا سـاهرا يفكـر في موقـع كعـب آخيـل قلـب الأم. حتـى إنـه اغتـاظ بعـض الـشيء آسـفا عـلى الفـترات التـي لم تكـن فيهـا يـدا المـرء مقيدتـين، ثـم خطـر لـه: فليكـن مـا يكـون، ففـي النهايـة مازالـت المرحلـة مرحلـة الديمقراطيـة الشـعبية، أو مـاذا ندعوهـا. وفي اليـوم التـالي في أثنـاء البروفـة، اسـتدعيت كليوباتـرا لـكي تبـدل دورهـا بـدور فتـاة مـن الرقيـق - لا بـد أنـك تمـزح؟ - سـألت كليوباتـرا، لكـن

الرفيق فنيو قال إنها ليست مزحة أيتها الرفيقة الممثلة، كوني على يقين من أنه دور ممتاز، وإذا ما دققنا جيدا في الأمر، فإن كافة المسارح على ضفاف نهر تيسا قد تحتاج لممثلة قديرة مثلك. فقالت كليوباترا للمخرج: أنزل هذا الغبي عن المسرح، لكن المخرج طلب من زميلته ألا تقف عائقا، وتربك التدريبات، ورجاها أن تتعلم تلك العبارات القليلة، لأن قلبه سيعتل حتى موعد مهرجان براغ المسرحي.

أسرعت كليوباترا، على حالتها الراهنة، إلى البيت، وقد اغرورقت عيناها بالدمع الأسود من تأثير الكحل الذي لم تقم بمسحه. وعبرت شوارع المدينة بشعرها الاحتفالي، وتاجها المرصع بالمجوهرات الزجاجية، وحمالة الثديين الياقوتية، تنتعل صندلا، وعلى كتفيها عباءة من الحرير، على حالتها تماما كما تخيل الرفيق فنيو ابنة أخته كليوباترا مستوحيا ما جادت به مخيلته على أساس لوحة إعلان برنامج منوعات فرنسي. لم يصدق الناس ما تراه عيونهم. الأمهات اللواتي خرجن لتوهن من مجمع (أوترو) أمسكن برؤوس أطفالهن وفتلنها كما تفتل رقاب الدجاج. الزوجات في الشارع المفتوح صفعن أزواجهن المحدقين بأفواه فاغرة. الباص رقم سبعة زاد من سرعته، من ساحة الاستقلال حتى أستوريا، لكي يتجاوز كليوباترا، بناء على طلب الركاب. وحدها هي، لم تفطن من تكون هذه المرأة نصف العارية ذات العباءة الخفاقة. لم يتعرفوا إلى فنانتهم الممثلة لأنهم لم يروها أبدا بدموعها الحقيقية، بل فقط بما فرضه الموقف التمثيلي من دموع اصطناعية نتيجة سيلان بلسم ڤيتنامي مدهون تحت عينيها، كما لم يشاهدها أبدا أنطونيو نفسه وهي تبكي، ولا حتى حين جاء ساعي البريد بالرسالة الأولى من الضفة الشرقية. الواقع

أنهـا الآن حتـى أدركـت أن دمـوع كليوباتـرا الحقيقيـة ليسـت معـدة مـن المنتـول، بـل مالحـة الطعـم كدمـوع أي أحـد آخـر. ولم يعـد يؤسـفها أنهـا، بسـبب فقدانهـا دورا رئيسـيا نتنـا، تراهـا للمـرة لأولى تبـكي بـكاء ذا معنـى. كانـت ممتنـة أشـد الامتنـان لقوانـين الذئـاب لـدى الديمقراطيـة الشـعبية صاحبـة الفضـل في هـذه الدمـوع المالحـة الطعـم. كـما لم يعـد يؤسـفها أن يخرجوهـا مـن معكـسر المدعومـين ذوي الامتيـازات، ويصنفوهـا ضمـن الفئـة المنبـوذة، إذا مـا هبـط ملفهـا الشـخصي رفـا واحـدا أيضـا. بعـد ذلـك دخـل أنتونيـو إلى الحـمام مـن أجـل الڤاليريـان، والمناشـف المبللـة بالمـاء. فـك أربطـة الصنـدل عـن قدمـي كليوباتـرا، ثـم مسـح عـن كاحليهـا، وأصابـع قدميهـا غبـار شـارع لايـوش كوشـوت، والشـارع الدائـري، وحديقـة المتحـف، ثـم جردهـا مـن العبـاءة ذات خيـوط الحريـر الاصطناعـي، ليجفـف بمنشـفة أخـرى قطـرات العـرق المتجمعـة بـين المفاصـل مـن أجـل أن يسـكن الكتفـين المرتعشـين إثـر البـكاء، ويهـدئ مـن اضطـراب الـورك المزنـر بحـزام ذهبـي. ثـم مسـح عـن يـدي كليوباتـرا مـا عليهـا مـن نـدف بنيـة اللـون، إلى أن خمـد البكاء.

حسـنا تفعـل، قالـت كليوباتـرا، ودارت بجسـدها كي يطـال أنطونيـو الوبـر العالـق عـلى وجههـا، والدمـوع الحقيقيـة السـائلة فـوق مكياجها المسرحـي، والعـروق النابضـة لجيدهـا الطويـل. فيخمـد لهـاث صدرهـا المـزدان بالياقـوت الزجاجـي.

لا تبـكي يـا أمـي. قـال أنطونيـو، وراح يمسـح عـلى بطنهـا بـدءا مـن القفـص الصـدري حتـى الحـزام الذهبـي تحـت الـصرة.

أزل هـذه التفاهـة، يـا بنـي. قالـت كليوباتـرا. فككـت الربـاط، ثـم رفعـت عجيزتهـا كي أزيـل مـن تحتهـا مشـد جلـد الأفعـى الاصطناعـي المذهـب.

وضيعـون، يظنـون أنهـم سـيجعلون منـي شـخصا عـلى الهامـش. قالـت، وأنـا أمسـح الزغـب عـن فخذيهـا.

حسـنا تفعـل يـا بنـي. قدمـاي أيضـا - ورفعـت رجليهـا لتضعهـما في حضنـي، فقبضـت عـلى كاحليهـا، وجعلـت رؤوس أصابعهـا أمـام وجهـي.

اهـدئي يـا أمـي - قلـت ورحـت أدفـئ أسـفل قدميهـا بأنفـاسي، قبـل أن أبـدأ تمسـيد أصابـع قدميهـا. ثـم أسـندت كعـب إحـدى رجليهـا عـلى كتفـي الأيـسر لأني لم أجـرؤ أن أضعـه في حضنـي، ولم أرغـب أن أعيـد رجلهـا إلى السريـر. ظللنـا هكـذا بضـع دقائـق، هـي تسـتند عـلى مرفقهـا بشـعر مصفـف فالـت قليـلا مـن أنشـوطته الشـقراء، وعـلى كتفـي إحـدى رجليهـا، والأخـرى أمسـك بهـا بيـدي. لعلهـا المـرة الأولى التـي أشـعر فيهـا بسـخونة هـذا المشـهد، لكنـي لم أجـرؤ أن أرفـع رأسي لأني كنـت أدرك أنـه سـيزول لمجـرد أن تتلاقـى عيوننـا. إضافـة إلى أننـي كنـت أدرك أيضـا أنـه لا يمكننـا أن نجلـس هكـذا وأنـا مطـرق الـرأس طـوال الحيـاة. ثـم مـا لبثـت أن سـحبت قدمهـا شـيئا فشـيئا مـن يـدي، ووضعتهـا أمـام شـفتي لـكي أتمكـن مـن تقبيلهـا.

ستحبك النساء كثيرا يا بني - قالت ثم أسرعت إلى الحمام.

وفي ذات يـوم مشـمس دعـا الرفيـق فنيـو أمـي إلى مكتبـه قـدم لهـا كونيـاك نابوليـون، وقـال:

- أكـثر مـا يؤسـفنا ألا تتمكـن الفنانـة العزيـزة مـن توظيـف موهبتهـا. لدينـا الآن، وعـلى الفـور، هـذا السـيناريو لفيلـم سـينمائي يتضمـن دورا رئيسـا عظيـما، حتـى إنـه يتطلـب السـفر. صحيـح إلى بلغاريـا فقـط، لكـن البحـر هـو البحـر - هـل ترغبـين في كأس أخـرى؟

- ومـن ناحيـة ثانيـة هنـاك دائمـا عوامـل تفرضهـا الظـروف القائمـة،

ولكـن يمكـن التغلـب عـلى هـذه الظـروف، والقضـاء عليهـا - مـا أمهـر الفرنسـيين بالكونيـاك، أليـس كذلـك؟ - إذن، لـو تعـود ابنتـك العزيـزة إلى البلـد. بلدنـا في النهايـة يمثـل قامـة كبـيرة في مجـال الموسـيقى، أليـس كذلـك؟ لدينـا (ليسـت) و(بارتـوك)، و(ليهـار)، وفرقـة (مـاڤ) السـيمفونية. نحـن لا نفهـم مـا الـذي دار في بـال ابنتـك العزيـزة. لكـن مـا إن تعـد إلى البلـد حتـى نعتـبر هـذه الخطـوة المشـؤومة التـي قامت بهـا، مجـرد زلـة، ودرس لهـا، وأؤكـد لـك، حينهـا، أنـك لـن تنتفعـي مـن موهبتـك فحسـب، بـل مـن كل علاقاتـك الجديـدة، لكـن طبعـا إلى جانـب النقـد والالتـزام الـذاتي. إضافـة إلى مـا أسـلفت وقلـت، هنـاك سـيناريو فيلـم، ومـا لا يحـصى مـن الأدوار الرئيسـة الأخـرى، التـي يليـق بـك أن تلعبيهـا. خـذي هـذه الـكأس الأخـيرة.

وفي ذلـك المسـاء قامـت أمـي بكتابـة الرسـالة الأولى، متغاضيـة فيهـا عـن الأدوار الرئيسـة، لكنهـا مشـددة عـلى صيغـة - زلـة الانشـقاق والهجـرة. فـكان أن ردت أختـي الكـبرى بهـذه الرسـالة المختـصرة: أمـي المحترمـة، الأسـبوع القـادم سـأعزف إلى جانـب مينوهـين. لكـن لا أظنـك تفكريـن جديـا بانضمامـي إلى فرقـة مـاڤ السـيمفونية.

لكـن أمـي كانـت قـد عمـدت قبـل إرسـال رسـالتها إلى استشـارة السـكرتير الحـزبي.

- اكتبـي لهـا أن تفكـر بأسرتهـا - قـال الرفيـق فنيـو، ثـم تأمـل قليـلا، وقـال:

- لا، لا تكتبـي ذلـك، لأنـه قـد يفـضي إلى سـوء فهـم، فسـوف يظـن أولئـك الإمبرياليـون أن الأسرة هنـا قـد يلحـق بهـا الأذى. الأفضـل أن تكتبـي أننـا نقـدر هـذا النـوع مـن المواهـب حتـى مسـتوى الكسـب المـادي والحيـاة المعيشـية.

فردت شقيقتي: أمي الفاضلة، التقدير هنا لا ينحصر في كسب الرزق فحسب، رغم أنني في هذه المرحلة لا أستطيع أن أرسل سوى خمسمئة دولار. على أية حال أفضل أن أكون هنا حتى خادمة في فندق، من أن أكون في الوطن عازفة كمان أولى في حفلة موسيقية مقامة على شرف انعقاد مؤتمر الحزب. لذلك أرجو منك ألا تكتبي المزيد حول هذه المسألة.

ومن دون أن تلجأ أمي إلى استشارة الرفيق فنيو، قامت بإعداد قائمة بالأدوار الرئيسة، وشهادات التقدير الحكومية التي لا تتمكن من الحصول عليها نتيجة انشقاق ابنتها الطفولية، وهجرتها خارج البلد، وألزمتها قائلة لها: - عودي حالا يا يوديت - وذكرت لها أنها لا تحتمل أن تكون على الهامش بسبب تافهة صغيرة. فإما أن تعود بأول طائرة، أو تعتبر نفسها من الآن فصاعدا، في عداد الأموات في نظرها. وستضمن لها أنها ستقوم بدفنها كأحد الأموات. وستحمل معها إلى المقبرة كل ما خلفته هنا من قذاراتها.

وقبل ظهيرة أحد الأيام كنت أفتش في الخزانة عن دواء لأن صداعا ألم بي. فوقفت لحظات أنظر ذاهلا إلى مظاريف الرسائل المفتوحة لأني ظننت أن كل رسائل يوديت قد قرأتها لأمي عند الفطور.

- من حيث المبدأ، ميتروبول ليست بالمكان السيئ. لكن المخيف أنك دائما لا تجيد القراءة بسلاسة، يا بني. لا أستغرب أبدا أنك لم تحصل على الثانوية العامة - قالت.

- لم أرسب في القراءة يا أمي - قلت.

- حقا؟ لا بأس. تابع القراءة - قالت، وراحت توزع البيضة النيئة على الخبز المحمص. وتابعت أنا القراءة.

لكن تلك الرسائل كانت ما تزال تتحدث عن أمور أخرى غير التي تتضمنها هذه الرسائل الثلاث المعنونة إلى المسرح لتصل ليد الفنانة ريبيكا ڤير، والتي خبأتها أمي في الخزانة، وراء علبة الدواء. في الرسالة الثالثة كانت يوديت قد خاطبت أمنا بضمير «أنت». ليس بصفاقة، أو عصيان، بل كامرأة لامرأة. عار من سبع صفحات منزوعة من دفتر. وقفت وسط الغرفة وقد أذهلني أن شيئا ما قد فاتني عن شقيقتي منذ حادثة طمسها الأول إلى الآن، علي أن أرجع المظاريف إلى مكانها فلا أرغب في معرفة أي شيء بعد الآن، خاصة حين لاحظت في المرآة نظرات الإشفاق من أمي.

- يا مسكيني - قالت وهي تأخذ الأوراق من يدي. التقطتها كما تلتقط فطيسة جرذ بإصبعيها، وكانت عيناها باهتتين كعيني حيوان مقتول. وأدركت حينها أن حياتنا من الآن فصاعدا سوف تسير على نحو مختلف تماما، بعد أن فقدت نواظمنا إلى الآن صلاحيتها.

- مسكين، يا قريبي الصغير - قالت وتركتني.

لم تعد إلى البيت إلا في ساعة متأخرة من الليل، برفقة شخص بقميص داخلي يعمل في تبديل ديكورات المشاهد المسرحية، وقد حمل على كتفيه صندوقا أسود.

- ضعه هنا - أشارت له أمي، وأزاحت الملابس المخلوعة وسط الغرفة، ثم دست خمسمئة فورنت في يده، وأغلقت الباب وراءه.

كنت ما أزال جالسا على السرير.

تعالي، نامي، يا أمي - قلت.

- انصرف من غرفتي - قالت. لكني لم أتزحزح.

فتحت التابوت بقدمها، وألقت فيه برسائل يوديت، ثم بجميع نوتاتها من باغنين حتى شترافينسكي، وبالأوتار، وعبوات

الراتيينـج. مـن ثبوتيـات الـولادة إلى الملابـس المتبقيـة في البيـت، حتـى إبريـق الشـاي. ثـم فتشـت عـن صنـدوق الأحذيـة الأصفـر، والصـور العائليـة، وجلسـت إلى جانبـي، ثـم راحـت تقـذف بالصـور واحـدة واحـدة. كحبـوب القمـح المقشـورة، وقشرهـا. كل مـا لـه علاقـة بيوديـت قـشر ترمـي بـه في الصنـدوق، وتقـذف في حضنـي كل مـا تبقـى مـن القمـح المقشـور.

ثـم طافـت في البيـت مـرة أخـرى بحثـا عـن أشـياء تخـص يوديـت. وجـدت في الحـمام بيجامـة للنـوم، وفي غرفـة الخادمـة محفظـة مدرسـية قديمـة.

- المحفظة كانت لي - قلت.

- حسنا - قالت وألقت بها حالا بين الحقائب، وسقط المتاع.

فعلا كانت المحفظة لي.

ثـم أحـضرت صنـدوق العـدة، وأخذت تـدق المسـامير. انحنـت كافة المسـامير لأنهـا أسـاءت وضعهـا. عنـد المسـمار الخامـس أو السـادس كلفتنـي المهمـة، أعطتنـي المطرقـة فسـمرت كامـل التابـوت. لم يكـن بـذي معنـى أن أقـول بـأن تسـتعين بعامـل الديكـور. ولعلـه كان ذا معنـى، لكنـه لم يخطـر ببـالي. ثـم قلـت لهـا تصبحـين عـلى خـير يـا أمـي.

في الصبـاح ذهبـت أمـي إلى المكتبـة الكاثوليكيـة، حيـث يبيعـون إضافـة إلى الكتـب، كل اللـوازم الضروريـة للممارسـة الدينيـة: مسـبحة فوسـفورية، طاسـة مـاء مقـدس، تماثيـل مريـم العـذراء ذات الوشـاح مـع عيـسى الصغـير مـن الجبـس، جولجـو ثـلاثي الأبعـاد، كل مـا اسـتطاعت الصناعـة الوطنيـة الخفيفـة أن تنتجـه مـن لـوازم الطقـوس الدينيـة، وكل مـا اسـتطاعوا إدخالـه مـن الفاتيـكان عـن طريـق التجـار

الكبـار. اشـترت عـشر كليشـات نعـي جاهـزة تشـتمل عـلى فراغـات تمـلأ كتابيـا.

حين استيقظت كانت أمي قد ملأتها كلها.

صباح الخير، يا أمي - قلت.

أهـه - قالـت، واسـتأنفت تنسـخ مـن كتـاب الهواتـف بحـروف لؤلؤيـة العنـوان البريـدي للـوزارة. لأنهـا لم تكتـف بإرسـال بطاقـة لشـقيقتي الكـبرى، بـل أرسـلت البطاقـات لسـكرتير الحـزب في المسرح، ووزارة الثقافـة، وحتـى ليانـوش كادار الأمـين العـام للحـزب.

لم يبـد عليهـا أي أثـر للجنـون. وقفـت وراءهـا أشـاهد كيـف تبلـل الطوابـع البريديـة بلعابهـا، وتلصقهـا عـلى أغلفـة الرسـائل.

- دعك من هذا يا أمي - قلت.

- أنت لا تتدخل - قالت، وأنزلت يدي عن كتفها.

ثـم مضـت إلى القـبر. قـبر سـددت رسـومه لمـدة خمـس وعشريـن عامـا يقـع في الركـن الخلفـي لمقـبرة كربـشي، إلى جـوار قبـور الأطفـال التـي نمـت عليهـا النباتـات المتعرشـة، ملاصقـا الجـدار اللبنـي لمصنـع المطـاط، حيـث تتصاعـد نفثـات الخراطيـم وكأن الأمـوات هـم الذيـن يتنفسـون تحـت الـثرى. تذمـر حفـارو القـبر مـن منطقـة الحفـر لأن تربتهـا مليئـة بالجـذور المتشـابكة للزيزفـون، والكسـتناء، والدلـب، وليـس هنالـك عمـل أشـنع مـن أن تقطـع بالبلطـة مثـل هـذه الجـذور، حتـى إن حفـر قـبر صخـري عمـل أسـهل بكثـير. إلا أنهـم أفلحـوا في النهايـة، ونظفـوا الحفـرة، ولم يتصـوروا أنهـم بعملهـم هـذا قـد رقـوا إلى عـمال ديكـور مسرحـي، فقـد كان كل شيء، شـكلانيا عـلى أحسـن مـا يـرام. عـلى سـبيل المثـال: نحـات الحجـر يوجـف شـموك عـاش ومات لأجـل ڤـودكا (فنلنديـا) فنقـش خـلال دقائـق اسـم شـقيقتي وعمرهـا

على مسلة من حجر صناعي مشغولة مسبقا، حتى إنه ذهب الحروف، وتدبر أمر نقلها أيضا.. أما مدير مؤسسة الدفن فغض النظر عن قصة وثيقة الوفاة، وعلى نحو أكثر دقة: كانت وثيقة وفاة شقيقتي عبارة عن كرتونة سجائر أمريكية، وزجاجة بالينكا القمح سكوتلندية، اشترتها أمي من حانوت في شارع (كيجو) يبيع بالعملة الصعبة، طبعا من النقود التي ترسلها يوديت.

إذن على الرغم من أنهم منذ ثلاثين عاما لا يقومون هنا بأعمال الدفن، أو ما شابه، إلا أن حفاري القبور الأربعة قبضوا على أدواتهم بكل طيب خاطر، وراحوا يحفرون ويقطعون الجذور على وقع مضخات مصنع المطاط حتى حفروا قبر ذكريات يوديت المادية.

- قميصك يبعث على الذعر، ضع عليك ملابس مرتبة.

- أنا لن أذهب يا أمي.

- بل ستذهب. البس.

- قلت لك يا أمي إني لن أذهب.

- الأمر سيان على أية حال. افعل ما تريد.

- دعك مما تقومين به يا أمي. أرجوك.

- هذا شأني وحدي. أفهمت؟

- فهمت يا أمي. لكنك لن تسامحي نفسك مطلقا.

- أنت مخطئ، يا بني. لا تتصور، كم يستطيع المرء عند الضرورة أن يسامح نفسه - قالت، ثم بدلت ملابسها، واستدعت سيارة تاكسي. ذات حمالة سقفية.

أبدى السائق أسفه قائلا: - لا تغضبي سيدتي، لكنني لا أنقل الجثامين - فأخرجت أمي من محفظتها ألفي فورنت جعلت

السائق يغير رأيه قائلا: إن كان لا بد من ذلك فيمكن اعتبار الحمل تابوتا. انحنى الرجل ليرفع الصندوق فتبين أنه أخف ثقلا مما خاله، فلم يضطر إلى عتله على كتفيه، بل أخرجه من البيت تحت إبطه. وضعه على السقف، ثم شده بأربطة مطاطية. فيما أمي بطقمها الأسود، وصندلها ذي الأربطة، ومحفظتها المخملية السوداء، واتخذت مكانها في المقعد الخلفي للسيارة من نوع جيڤولي.

- يمكن أن ننطلق - قالت. ومضت السيارة بنا إلى مقبرة كربشي. عبرت صف الأشجار الظليلة حتى آخر المقبرة عند مقابر الأطفال. لكن أيا من المدعوين أمثال السكرتير الحزبي، ووزير الثقافة، والأمين العام للحزب يانوش كادار، لم يكن واقفا عند الحفرة. وحدهم الحفارون الأربعة. قالت أمي للسائق أن ينتظر، فسينهون الأمر خلال دقائق قليلة. وفيما كانوا ينزلون التابوت في الحفرة، كان عداد السيارة يدق، مسجلا فورنتين كلما أهيل أربع دفعات من التربة على النوتات الموسيقية لباغانين، وسترافنسكي، لأن الحفارين كانوا يماطلون ويمدون في الوقت لكي يظلوا يحملقون في أمي أطول مدة ممكنة، وهي مشدودة الجسد بطقمها الأسود منذ أن قاسته في مقصورة متجر الملابس.

لا ريب في أن صناعة الملابس لم تنتظر من هذا الطقم كل هذا التأثير. لم يضع المصممون في اعتبارهم أن الزوجات المثلات اللواتي تماثلن للشفاء من الوهن النفسي في طفولتهن، قد يقعن مجددا في كآبة تمتد حتى القبر بسبب هذا الطقم، لم يضع المصممون في حسبانهم أن العشيقات السريات لمديري المسارح يسهمن في غسيل المعدة بسبب هذا الطقم الأكثر سرية، ولا أن

مئات النساء فيما بعد ستود أن تلقي إلى النار بهذه الجوارب الحريرية، والمعطف الحريري المقتصر على زرين لا أكثر. إضافة إلى الكثير بعد ممن رغبوا في إلقاء هذا الطقم بالنار، منهم مساعدو الإخراج السابقون، ندلاء، جزارون، أفاقوا مرتعدين متصببين عرقا وقد تحسسوا في أحلامهم رائحة لوز، وراحوا في الصباح يصفعون بناتهم ثم صرخوا فيما بعد: لن أرى عليك هذه الخرقة مرة أخرى، لأن الطفلة المسكينة حاولت ارتداء طقم حريري أمام المرآة.

إذن لم تضع مؤسسة صناعة الألبسة الجاهزة هذا في حسبانها. كل ما فكر به المصممون أن يكون لباسا صيفيا خفيفا، ترتدي النساء فوقه، بالطبع، بلوزة بلون الكريم مثلا، وتذهب به المستخدمات بين سن الثامنة عشرة والخامسة والثلاثين إلى السينما في نهاية الأسبوع. لكن أمي فاجأها وهي في مقصورة القياس في متجر ألكسندر بالاس أنها أضخم بمئة مرة من هذا الثوب الحريري صغير الحجم، ولم يردع نزوتها أن طمثها قد توقف منذ ثلاثة أشهر.

انطلق. قالت للسائق بعد دقائق قليلة، بعد أن كان سير العمل جيدا. ولم يعد يهمها الأمر. وما إن أنهى الحفارون ردم الحفرة حتى كانت جالسة على الكنبة الجلدية الكثيرة الاستخدام في مكتب الرفيق فنيو. وسألته إذا ما كان الحزب الآن بات راضيا بما قامت به، ووجدت حلا آخر بعد أن فشلت مراسلاتها لابنتها، التي صارت في نظرها ليس مجرد فتاة ضالة، بل خائنة لوطنها. والتي، في سبيل مهنتها، ما ترددت لحظة واحدة في أن تخون ليس فقط أمها، بل الطبقة العمالية كذلك. حقيرة، تافهة، عاهرة. وكما

يعلم الرفيق فنيو إنها إضافة إلى أنها قد قطعت علاقتها معها، فقد اعتبرت ابنتها ميتة. وها هي ذي الآن كأم، وكممثلة، تعود مجددا لتكون صالحة، ومناسبة للأخلاق الاشتراكية. اعتقد سكرتير الحزب لبعض الوقت أن أمي تسخر منه، ومن كل ما يمثله، وأكد للرفيقة أن حزب العمال الاشتراكي المجري لن يتسامح مع هذا السلوك على الإطلاق، لكنه تفاجأ في غضون ثوان أنه ليس مقصودا أي نوع من الازدراء، وأن هذه المرأة تعتقد ذلك بجدية شديدة. وعندها بصق على وجه أمي.

ألقت دفتر عملها، كما لو كان ورق ألومنيوم فارغا نفد منه كونياك الكرز الحامض، وفي المنزل لم يكن لديها قوة لإغلاق شيش النافذة. ركلت الصندل من قدميها بطريقة ما، وفكت أزرار حلتها، وارتمت على السرير.

قالت: أحضر لي منديلا مبللا، أعاني من صداع نصفي.

قلت: سأنتقل للعيش بمكان آخر، يا أمي.

وذهبت حتى الحمام بصعوبة لإحضار منشفة مبللة، ووضعت في حقيبتي بعض الملابس الداخلية النظيفة.

نظرت من الباب وهي ترقد للتو في فراشها في الحجرة المظلمة، بين الزينة المدعى أنها إرث فيير. انزلقت من بطنها السترة الحريرية السوداء، ليس في مكان وجهها إلا خرقة مبتلة. كان عريها يشبه عري الموتى. لم آبه حتى بما إذا كان يسقط من عينها لعاب الرفيق فنيو بدلا من الدمع، فلأشعر بشيء ما فحسب. لكن كل ما شعرت به هو أنني أختنق. إذا لم أهرب الآن من هنا، فلن أستطيع ذلك أبدا. فكرت: على الأقل بغضها. دار في ذهني: بغضها كما يوديت. أو مثل تلك الزوجات اللواتي تحترق الواحدة منهن في

أحد أفران المحارق، وما تزال راغبة في أن تستعرض نفسها وهي تتفحم بطقمها الحريري، أمام نظر الزوج الذي يلصق وجهه على الزجاج المقاوم للنار، داعية إياه لكي يتسلل إلى الداخل ويحتضنها.

سأذهب الآن يا أمي - قلت مرة أخرى، لكن لم أوجه كلامي لها، بل للخرقة الملتصقة بوجهها.

سأقفل الباب - قلت.

ثم قفلت الباب وخرجت أتمشى حتى الشارع الدائري. ولم أكن أدري أين سأذهب. ثم خطر لي أن كريمر وزوجته عرضا علي بيتهما الريفي متى أشاء.

درجت آنذاك البيوت الريفية بجدرانها الطينية، وهوائها النقي، وفي فنائها العربات المزدانة بنبات الغرنوق، أما الفلاحون فقد وقفوا يشاهدون هؤلاء المثقفين البودابستيين كيف يجبلون الطين بهمة عالية، ويطينون الفرن الهرمي المتشقق، وكيف يعملون من برميل الكرنب طاولة في الحديقة وكراسي صغيرة من الدلاء، ومصباح قراءة من الأواني الفخارية المحطمة. وكيف يعبث الأولاد بماء الجرن ويرشونه مرحين، في حين يقوم والدهم بسن المنجل، وتطلي أمهم لوح المخبز بورنيش القوارب، وقف الفلاحون يشاهدون المذيعة وهي تقرأ الأخبار في التلفزيون، وتغرس في الوقت نفسه بتلات البصل في الحديقة المجاورة، وعندئذ سألوها من وراء السياج كيف يحصل هذا، كيف يمكن. فأوضحت لهم المذيعة أن ذلك يحصل بالتصوير، لأن التقنيات تطورت كثيرا، ويمكن حله، فقال الفلاحون بأنهم يفهمون ذلك تماما، لكن ما لا يستوعبونه هو كيف تقرأ في يوم الجمعة ما هنالك من أخبار أيام السبت. كيف يمكن معرفتها مسبقا؟ فأحست المذيعة بالحرج، فسألتهم

كيـف حـال التربـة هنـا، هـل يكفـي أن تغـرس بتلتـين مـن البصـل في ثقـب واحـد، أم يمكـن أن تضـع ثـلاث بتـلات؟ فـكان رد الفلاحـين بـأن التربـة مازالـت طيبـة، واعتدنـا نحـن أن نضـع واحـدة.

مـن المستحسـن أولا أن أتصـل بعائلـة كريمـر - فكـرت. حتـى إننـي حـضرت قطعـة النقـود، لكـن خطـر لي أنهـما سـوف يسـألانني عـن أمـي، ويسـألان عـن أحوالنـا، ومـا أخبـار يوديـت. ينبغـي إذن أن أجـد ردا مناسـبا - فكـرت. لا يمكـن أن أقـول إن أمـي فقـدت عقلهـا - فكـرت. بـكل بسـاطة، ليـس بوسـعي أن أخـبر أحـدا عـلى الإطـلاق - فكـرت. لا يجـوز لأحـد أن يقـول عـن أمـه إنهـا مجنونـة - فكـرت. وحاولـت العثـور عـلى حـل. وحـين أمطـرت السـماء لجـأت إلى حانـوت بيـع المجـلات، وراقبـت مـن تحـت واقيتـه الترامـات الكهربائيـة، ولم أعـثر بعـد عـلى مـا أقولـه إن سـألوني عـن أمـي. وبعـد مـرور الـترام العـاشر أدركـت أننـي لـن أكـون قـادرا عـلى الحديـث عـن أمـي أمـام أحـد.

وفيـما بعـد أخـرج البائـع رأسـه مـن النافـذة مـن بـين جرائـد الأخبـار اليوميـة، ومجـلات الكلـمات المتقاطعـة، وسـألني إن كنـت أرغـب في شيء. فاعتـذرت قائـلا إننـي في انتظـار أحدهـم، وطلبـت مجلـة سـينما مـسرح موسـيقى. وحـين ناولنـي المجلـة، مـع الفكـة، فوجئـت بعـدم وجـود أي مـكان أتوجـه إليـه. وبعبـارة أدق، كيـف أذهـب إلى أي مـكان، إذا كنـت سـأضطر إلى شراء مجلـة سـينما مـسرح موسـيقى حـين يجفلنـي البائـع. كمثـل الشـبان القرويـين الملتحقـين بالخدمـة العسـكرية، حتـى في الجبهـة وهـم يحفـرون الخنـادق، يفركـون بأكفهـم حفنـة مـن تـراب ليعرفـوا إن كانـت صالحـة لزراعـة القمـح أو الشـعير.

عـبرت الشـارع امـرأة خمسـينية ثملـة، حافيـة، بثيـاب جورزيـه حمراء. أطلقـت السـيارات الأبـواق، وأطلـق بعـض السـائقين الشـتائم، فبصقـت المـرأة عليهـم، وردت عـلى الأبـواق صائحـة: أنـا عااهـرررة. غسـل المطـر شـعرها التعـس، وألغـى تموجـه، وراح يسـيل عـلى وجهها كـما عـلى قطعـة قـماش شـمعية. أمسـكت بإحـدى يديهـا زجاجـة ڤـودكا، وحـذاء، وبالأخـرى غرابـا. أنـا عااهـررة. نطقـت بهـا أيضـا عندما بلغـت الرصيـف، لكـن ليـس بصـوت جهـير، بـل قالتهـا لنفسـها. ألقـت بالغـراب عـلى الرصيـف، وحاولـت أن تنتعـل الحـذاء، لكنهـا تمايلـت وهـوت عـلى عمـود الكهربـاء، وجلسـت في النهايـة عـلى حافـة الرصيـف، بينـما راح الغـراب يخبـط إلى جانبهـا عـلى الإسـفلت.

حـين فـك الغـراب الطـوق حـول رجليـه كان قـد مـات. وانفـرش جناحـاه المهيضـان دون حـراك عـلى الإسـفلت، وكأنهـما قـد التصقـا بالقطـران. لم تفطـن هـي للأمـر إلا بعـد أن أنهـت انتعـال حذائهـا. انهـض ياريبيـكا - قالـت. وحملـت الريـش المبلـل، ولم تشـأ أن تصـدق أنها النهايـة. ثـم حاولـت أن تسـكب الڤـودكا في منقـاره. وحـين ضاعت الكميـة بكاملهـا هبـاء، أيقنـت أنـه مـات، فقبضـت عليـه مـن رأسـه وراحـت تخبطـه بـالأرض وهـي تصيـح: ريبيـكا يطـير! ريبيـكا يطـير! كان الرصيـف مضرجـا بـدم الطائـر بعـد أن تحطـم رأسـه.

عنـد الموقـف سـارعت امـرأة، وغطـت عينـي طفلهـا الـذي كان يشـاهد مـا يحـدث، قائلـة لـه: لا تنظـر، امـرأة قـذرة. لكـن الطفـل أراد أن يشـاهد كل شيء، فتلقـى صفعـة قويـة مـن أمـه التـي جرتـه إلى جهـة أخـرى مـن الرصيـف. وصـاح بائـع الجرائـد مـن حانوتـه: إن لم تبتعـدي مـن هنـا فسـأقذف بـك تحـت الـترام، لكـن المـرأة لم تكـف عن خبـط الغـراب، فخـرج البائـع وأمسـك بهـا مـن شـعرها.

- دعها - قلت له، رغم أنه لم يسبق لي أن تدخلت في أي مشهد يحدث في الشارع.

- لا تتشدق، وإلا فسأشدك من شعرك مثلها - قال.

- قلت لك دعها - قلت له مجددا، لكن بصوت خافت.

- خذها إذن مع طائرها القذر من هنا - قال غاضبا، وعاد إلى حانوته وهو يشتم، وصفق الباب.

ضمت المرأة رجلي كما تحيط بجذع شجرة، فيما لم أكن أدري ماذا أقول. كل ما خطر لي آنذاك: دعك من هذا، اهدأ، وشعرت بعد لحظات أنني من الآن فصاعدا، طوال حياتي سأظل واقفا هنا مع هذه المرأة الجاثية في الوحل عند تقاطع الشارع الدائري وشارع بيركوتشي. كل ما كنت أتمناه أن ألوذ بالفرار، وكان من الأفضل أن أترك الأمر لبائع الجرائد. ثم أمسكت بذراع المرأة لأتخلص على الأقل من احتضانها لساقي.

- ارفعه عن الأرض - قالت.

أوقفتها على قدميها، فاستندت على العمود. لففت جثة الغراب بمجلة سينما مسرح موسيقى. تأبطت المرأة الصرة، وأمسكت بذراعي، وعبرنا إلى الساحة. بحثت عن مقعد لم ينزعوا عنه عوارضه الخشبية، لكنها لم ترغب في الجلوس.

- ليس مكانا جيدا - قالت.

- أين تسكنين؟ - سألتها، فأشارت برأسها ناحية شارع ثانوي، ثم ألقت بالغراب في سلة المهملات.

كانت الغرفة عند الدرج الخلفي قبالة المراحيض المشتركة. وكان على المرأة أن تصعد فوق المغسلة لكي تأتي بالمفتاح عن سقف خزان الماء. وأخيرا دخلنا إلى غرفة الغسيل التي استحالت إلى

سكن. منذ أن انتشرت الغسالات من نوع (هايدو)، أباح مجلس الحي بحماس شديد أن تكون غرف الغسيل سكنا احتياطيا، يتسع لسرير، وطاولة صغيرة، وكنبتين، وخزانة، وطباخ غازي.

غطي الملاط المنهار حول المغسلة والطباخ بأغلفة مجلات ملونة. فلتت دبابيس التعليق في أماكن فتدلت صور مطربات الأغاني الراقصة، وصور الموديلات بكنزاتهن الربيعية، وبانت لبنات الجدار الرطبة من خلف فتيات أغلفة مجلة (راكيتا) عاريات الجيد. لم تكن الرائحة الفائحة في الداخل رائحة التبغ بل تلك الرائحة التي تفوح في مأوى عصافير. ثم فتحت المرأة خزانة الملابس، فامتلأت الغرفة فجأة بالسقسقة. خمسة وعشرون قفصا للطيور توضع على الرفوف. جفلت، بتأثير النور، الكناري، والببغاوات، والنوارس، واليمام الضاحك، والحمام العادي، واليمام البلقاني، والسمان الأسود، ومجموعة من عصفور الدوري، وكانت جميعها تخبط في قيعان الأقفاص بأجنحة متكسرة.

- معك سيجارة؟ - سألت المرأة، فقلت إن سجائري نفدت، جثت وفتشت تحت السرير، حتى أخرجت زجاجة مليئة بالفيلليرات[10] وأعطتني حفنة منها.

- اجلب علبة (فتشكا).

كانت البائعة تكنس المحل.

- ينبغي المجي أبكر. الصندوق مغلق - قالت.

- غدا صباحا تدخلين المبلغ في الحساب - قلت.

فقالت إن ذلك لا يجوز، فما الذي سيحصل لو كنت من الرقابة، سيطردونها من العمل طبعا. لم أقل إنني لست من الرقابة، بل إن

(10) فيللير: جزء من مئة من الفورنت، العملة المجرية. [المترجم].

أمـي لم تسـتطع النـزول لـشراء علبـة سـجائر لأن جناحيهـا متكـسران، فضحكـت الفتـاة، وسـمحت لي بالدخـول مـن تحـت المـصراع نصـف المغلـق، رغـم أني بالمصادفـة لفظـت كلمـة جنـاح بـدل كلمـة رجـل. ثـم ابتعـت أيضـا أربـع قطـع صغـيرة مـن الخبـز، ومئتـي غـرام مـن المارتديـلا. وحـين عـدت، كانـت المـرأة مسـتلقية عـلى السريـر تشـاهد الطيـور المزقزقـة، مثلـما أحـد آخـر يشـاهد التلفـاز، أو يشـاهد عـبر النافـذة الشـارع لـيرى مـاذا يحـدث في العـالم الخارجـي.

- جائعة؟ - سألتها، ووضعت المأكولات على الطاولة.

- كل أنـت. أنـا لـن آكل اليـوم - قالـت، ثـم نهضـت، وأشـعلت سـيجارة، وعـادت ترمـق الطيـور. في الخـارج كان يصطفـق بـاب المرحـاض، وفيـما بعـد امتزجـت همهـمات رجـل مـع زقزقـة عصافـير الكنـاري، وعصافـير الـدوري.

- هـذا (نيـتراي) - قالـت - يعـاني مـن إمسـاك منـذ أسـبوعين. يجاهـد خروجـه كل مسـاء.

ثم صرخت بأعلى صوتها:

- نيتراي! خذ حبة إسهال.

فرد لها قائلا:

- أغلقي فمك، وإلا بلغت عنك الأخلاقية، يا عاهرة.

- لـن يبلـغ عنـي - لوحـت بيدهـا، كأنمـا تريـد أن تطمئنـي لـكي أبقـى وآكل بارتيـاح. ثـم أطفـأت السـيجارة، وأشـعلت طبـاخ الغـاز، وسـخنت المـاء.

- سـتمرض الطيـور مـن المـاء البـارد - قالـت، ثـم رشـت في الأقفـاص شـيئا مـن البـذور أخرجتهـا مـن كيـس، وكـررت في أثنـاء ذلـك أن ريبـكا تـأكل.

- من أين حصلت عليها؟ - سألتها.

- مـن هنـا وهنـاك. الطيـور الأفضـل هـي هدايا مـن الزبائـن. لكنهم جميعـا يجيئوننـي بطيـور متكـسرة الأجنحـة لأنهـا زهيـدة الثمـن، أو مجانيـة، الأمـر سـيان، هنـا عـلى أيـة حـال لا تسـتطيع الطـيران.

- والغراب؟

- الآن وجدته في الساحة. أحضره كلب.

قاسـت بأصابعهـا فتـورة المـاء، ومـلأت للعصافـير، ثـم أشـعلت سـيجارة جديـدة.

- هل ترغب في...؟ - سألت.

- لا - قلت.

- أنت شخص نبيل. لا بد أنك تقصد مقهى (آنا) الفاخر.

- ليس لهذا الغرض.

- بثلاثمئة فقط. أنا أيضا أقصد مقهى آنا.

- أنا لا، حتى الآن.

- متزوج.

- لست متزوجا.

- لو كنت متزوجا فسترغب أكثر. المتزوجون يرغبون أكثر من غيرهم.

- أيمكنني النوم هنا؟

- بثلاثمئـة أيضـا. لهـذه الليلـة فقـط. عنـدي غـدا زبـون. سـاعي البريـد يـأتي كل ثلاثـاء.

- حسنا.

- هو من جلب الكناري. لكنك ستدفع مقدما.

- طبعـا - قلـت، وأخرجـت ثلاثمئـة فورنـت، فتناولتهـا ووضعتهـا في الخزانـة خلـف أحـد الأقفـاص.

- مـن هنـا لا يسرقونهـا. إذا حـاول أحدهـم فسأسـتيقظ عـلى الزقزقـة.

- هذه أنت؟ - سألتها مشيرا إلى صورة معلقة فوق السرير.

- أمي.

- تشبهك. كانت أمك امرأة جميلة.

- لسـت مضطـرا لمغازلتـي. إن كنـت راغبـا بي فقـد سـددت الثلاثمئة. وإن أصبحـت زبونـا تسـتطيع أن تجلـب الطيور.

- لست أغازلك. إنها جميلة حقا.

- جميلة. دعها لتتدلى، وترى كل شيء.. ماذا؟ هل ستخلع ثيابك؟

- حقا أريد أن أنام فقط.

- طردتك زوجتك، أليس كذلك؟

- ليس لدي زوجة.

- لست مرغما على الحديث عنها إن كنت لا تريد.

- لم لا تصدقين بأنه ليس لدي زوجة؟

- سـيان عنـدي. يمكـن أن أصدقـك. لكـن الجميـع يأتـون بحجـة أن زوجاتهـم يلفظنهـم، ثـم يألفـون المجـيء إلي. وكأن الأمـر مختلـف هنـا.

أغلقت باب الخزانة لتسكت الطيور.

- هيـا، اكـرع هـذه - قالـت، وأودعـت بيـدي زجاجـة ڤـودكا نصـف مليئـة أخرجتهـا مـن تحـت الطبـاخ، ثـم خلعـت ثوبهـا الأحمـر، وفكـت حمالـة صدرها.

مـن المؤكـد أن سـاعي البريـد يزورهـا مـن أجـل هـذا - فكـرت. قـد يعـاني مـن مشـكلة نفسـية هـو الآخـر - فكـرت ـ البائسـون هـم مـن يرغبـون في الهـروب إلى هنـا - فكـرت. العاجـز أيضـا يكـرج بعربتـه ويوجههـا برجـل واحـدة كل يـوم أحـد إلى هنـا بالتأكيـد، ولا يهمـه

حتى لو عبر الشارع على الإشارة الحمراء - فكرت. يتوجه بعربته ليدهس قدمي الشرطي ويشتم أمه، فيفضل الشرطي أن يتنحى جانبا، مبتعدا عنه، دون أن يتحامق ويطلب منه الهوية لأنه يعلم أنه شخص لا يبالي، والأمران سيان بالنسبة له، فمن غير المجدي أن يتغابى معه - فكرت. نعبر على الإشارة الحمراء، فإن لم يطلبوا منا الهوية، معنى ذلك أن الأمرين سيان - فكرت، وأنا أشاهد المرأة وهي تركل حذاءها. كانت رجلاها موحلتين، فسحبت منديلا من تحت الوسادة، وبصقت عليه، ومسحت أصابع قدميها، ثم رمت بالخرقة تحت السرير.

- هيا، ألا تأتي؟

- أفضل أن أنام على الكنبة - قلت، وكرعت زجاجة الڤودكا ليأخذني النعاس على وجه السرعة.

- يمكنك خلع ملابسك، لست نشالة.

- أعلم.

- إذن أطفئ الأنوار فيما بعد - قالت وسحبت عليها الغطاء.

جمعت الكنبتين، خلعت ملابسي، ثم شربت حفنة من الماء من الصنبور الجداري، لأن الڤودكا ألهبت حنجرتي.

- لماذا تريدين أن تري أمك كل شيء؟ سألتها في الظلمة.

- نم - قالت.

انتظرت حتى يمر القطار عبر المجمعات السكنية، وقطار الدرجة الثالثة عبر المنطقة الخضراء، لأنني أنقبض من مناطق طوق المدينة، دون أن تكون لدي معها أية مشكلة. من المحتمل أن يفضل الكثيرون غوطة (كشبشت) على الشارع الدائري الكبير، لكن مجمع هافانا السكني أفضل من لا شيء. أما بخصوصي أنا،

فـإذا مـا اسـتيقظت هنـا في إحـدى شـقق المجمعـات السـكنية، دهمنـي علـى الفـور ذعـر حقيقـي، لاعتقـادي بأننـي لـن أعـرف طريـق العـودة إلى البيـت. وخـلال سـنوات امتـلأ درج مـن دروجـي بخرائـط مرسـومة علـى قصاصـات. خرائـط رسـمت بأعـواد ثقـاب محروقـة، لعـدم توافـر أداة كتابـة قـرب السريـر- لكنهـا واضحـة بمـا فيـه الكفايـة يـا عزيـزي. إذن تسـلك هـذا الطريـق، وعنـد متجـر ABC تنعطـف يمينـا، وهنـاك ترمـي هـذه القصاصـة مـع العنـوان ورقـم الهاتـف في سـلة المهمـلات، لأننـي لا أحـب أن تخلطـوا بـين رقمـي ورقـم خدمـة المرضى النفسـيين. وهنـاك أيضـا خرائـط رسـمت، عنـد احتسـاء قهـوة الصبـاح، بحمـرة الشـفاه علـى مغلفـة سـجائر، أو صفحـة دفـتر، أو خرقـة قماشـية. لكنـك سـوف تحتفـظ بهـا يـا حبيبـي، وهـذا هـو العنـوان، ورقـم الهاتـف، إذن تسـلك هـذا الطريـق، وعنـد متجـر ABC[11] تنعطـف يسـارا، وسـتجد الموقـف. والآن أسرع، يوشـك أبي أن يـأتي مـن مناوبتـه الليليـة، أو زوجـي مـن لينينغـراد. وكنـت أنـا أسرع مـن أجـل أن ألحـق بالرحلـة الليليـة.

إلى جانـب هـذا، مفهـوم يـا أمـي أنـك بلـت في ثيابـك خوفـا مـن (أسـتر). كنـت تفضلـين أن يكـون هنـاك المزيـد مـن الخرائط المسـتخدمة لمـرة واحـدة، وورود الـوداع الجافـة، وخصـل الشـعر الشـقراء، والقصائـد المكتوبـة علـى ظهـري. وأن يسـتمر تزايـد أرقـام الهواتـف المقطوعـة نهائيـا، والصلبـان المنتزعـة عـن السلاسـل، والقلـوب الذهبيـة الصغـيرة، ونجيـمات ديفيـد. صـور الثانويـة العامـة، ميداليـات المرحلـة الدراسـية. نفـس المقـدار مـن الأسـماك كـما مـن العقـارب، ليـس مصادفـة يـا أمـي. وطبعـا نفـس القـدر مـن الأخريـات، ولـكل واحـدة شراشـفها، وعلـى الأقـل شريـط أغـاني لأديـت بيـاف.

(11) سلسلة محلات صغيرة ومتاجر كبيرة منتشرة في كل ربوع المجر. [المترجم].

مثل هذه التشكيلة - اللاشيء، لا ريب أنها تمنح من راحة البال أكثر مما تمنحه أستر. وأن عشر سنوات أمضيتها مع عشيقات الليلة الواحدة كانت أكثر طمأنينة من أستر، يا أمي.

ذات مرة جلس في المقصورة ثلاثة رجال من عمال السكة الحديدية الذين يتنقلون في المدينة أيضا. على متن القطار، من أجل استعارة عدة عمل. يتناولون في البوفيه شيئا من المشروبات خلال الطريق الذي يمتد لساعة ونصف الساعة، من دون أن يكونوا هنا عرضة للمساءلة، رغم أن فترة تنقلهم بالقطار محتسبة من ضمن ساعات عملهم، كما هي الحال في أثناء تنقلهم بالباص أو الترام، شأنهم شأن البحارة على اليابسة، الذين تقرقر أمعاؤهم حالما يتوقفون في المرفأ. عرفت ذلك من أحد المراقبين حين حدثني أنه على سبيل المثال لا يستطيع النوم على الوسادة. وأن زوجته منذ ثلاثين عاما تهيئ له السرير، فيقوم هو، طوال ثلاثين عاما برمي الوسادة على الأرض، ويضع تحت رأسه محفظة أغراضه جريا على عادته في شبابه. أما زوجته التي تعمل في فندق (هاينال)، فلا ينتظر منها أن تتغاضى عن الوسادة. لأن العادة سيد عظيم. (والحمد لله أننا لم نختصم خلال ثلاثين عاما إلا مرة واحدة أفسدت فيها عطلتنا الصيفية). لأن محفظة أغراضه لم تكن معه، فلم يستطع النوم طوال أربع ليال في منتجع (سوت)، وظل حتى الصباح يجاهد مع الوسادة ويجعدها. قامت زوجته بمحاولة وضع السلة ذات الخيوط الليفية التي وضبوا فيها الأغطية، لكنها لم تصل إلى حل، فرجعا في اليوم الخامس إلى البيت. وسار زواجهما على هذا المنوال، حتى اكتشفت الزوجة أنها غير محقة، وأنه ما من مراقب في العالم يستطيع النوم من دون المحفظة.

وذات مرة أخرى، تحدثت مع سائق قطار كفت يده عن العمل وأحيل على التقاعد لأنه عجز عن القيادة بعد أول منتحر أمام القطار. تشنجت يداي، لم أقو على إفلات يدي عن المقبض، أتفهم؟ وتابع القول:

وقفت على درج الصعود إلى القاطرة ورحت أبكي. حتى جاء مشرف السير وحرر أصابعي عن المقبض الحديدي. وفي ذات اليوم أحالني الطبيب إلى مشفى ماق في بودابست، رغم أن سائقي القطارات قد حصلت معهم حوادث قتل ما لا يقل عن خمس إلى ست مرات. هذا محسوب. حتى في فترة علاجي التأهيلي كانوا يقولون لي إنه لا يجوز تضخيم أمر كهذا، وجعل منها مسألة كبيرة، لأن هنالك كثيرين يلقون بأنفسهم كالوعول أو الأرانب أمام عجلات القطار. وهذه مشكلتهم الخاصة. أمر لا يتعلق بنا إذا ما امتلك أحدهم النزعة للانتحار. الأفضل في مثل هذه الحالة هو الصياح، ثم متابعة السير، كأن شيئا لم يكن، فليس من مشكلة في الأمر. أنا لم أصرخ، لأني، بكل بساطة، بكمت. أتفهم؟ عند منعطف (تاتابان) وقفت تلك المرأة مع ولديها، حتى إنها لم تكن تحتضنهما، بل وقفوا جميعا في صف واحد كشجرات الحور وعيونهم - هم الثلاثة - في عيني. أتفهم؟ نظرت إلى الفتاة الصغيرة ذات السنوات الست كما تنظر إلى شجرة ميلاد مليئة بالهدايا. وفي اليوم التالي أوردت الجريدة صورا عن المكان إلى جانب مقالة تدين مثل هؤلاء الأمهات، فأبدى الصحافي كاتب المقال تعاطفه مع سائق القطار الذي هزته الحادثة دون أدنى شك. قمت أنا بالبحث عن الصحافي لأسأله إن كان شاهد من قبل أما تقف مع ولديها على سكة الحديد؟ كنت أريد أن أطلب منه تصحيحا لمقالته، وأن يكتب

أنهـم انتصبـوا كشـجرات الحـور، وأنـا لم أصرخ. لكـن الزمـلاء ردعـوني بقولهـم لي لا تـؤذ نفسـك، يكفيـك مـا حصـل، وأنـه لم يكـن مـن جدوى لصراخـك. وفي اليـوم التـالي لم أقـو عـلى العمـل. تشـنجت أصابعـي فـوق مقبـض الصعـود إلى القاطـرة، فأحلـت عـلى التقاعـد. ومـن يومهـا أعمـل بإنتـاج الفطـر في القبـو. أمـا أنـا فقـد سـألت سـائق القطـار لمـاذا إذن يجلـس رغـم ذلـك في القطـار. فأجابنـي أن الأمـر ليـس كـما نرمـي بسـيجارة. لأن عامـل السـكة الحديديـة لا يسـتطيع أن يعيـش مـن دون قطـار. لـدي بطاقـة مجانيـة، وفي كل يـوم أحـد أسـتقل القطـار وأذهـب حتـى مدينـة (دبرتسـن)[12] أو مدينـة (ميشـكولتس)[13]، ثـم أعـود بقطـار الليـل، فـلا شيء أعملـه هنـاك.

حـين اتخـذ عـمال سـكة الحديـد أماكنهـم في المقصـورة، أخرجـت مـن جيبـي عـلى الفـور الكتـاب الـذي حصلـت عليـه مـن القسـيس، لأتظاهـر بأننـي أطالـع في الزاويـة، فلـم يكـن لـدي الرغبـة في التحـدث مـع أحـد، فالـذي يقـرأ يدعونـه وشـأنه. ولا يتملكهـم الفضـول ليسـألوه مـن أيـن وإلى أيـن يذهـب، وهـل لديـه أسرة، أو مـا شـابه. والـذي بيديـه كتـاب لا يكـون حـاضرا في الواقـع، ولا ينبغـي ضيافتـه بقطعـة صغـيرة مـن الجاتـوه، أو بالمـشروب لأن الكتـاب يجعـل منـه شـخصا غـير مـرئي. حتـى إنهـم أمـام مـن يتصفـح كتابـا يمتنعـون عـن الـكلام ولـو بصـوت خفيـض. إذن، أخرجـت الكتـاب، ولعـل فضـولا خالجنـي لأتعـرف - بـدلا مـن الاعترافـات - عـلى المؤلف الـذي دسـه الأب لازار في يـدي، ومـا السـبب الـذي جعلـه واثقـا في أننـي لم أسـمع باسـمه مطلقا. كان عليـك يـا أبـت، ألا تكـون قاطعـا في رأيـك بـأني لا أعـرف الأدب

(12) ثاني أكبر مدينة في المجر بعد العاصمة بودابست. [المترجم].

(13) مدينة تقع في شمال شرق المجر، وتعتبر رابع أكبر مدينة في المجر، والمركز الإقليمي لشمال المجر. [المترجم].

الكنسي، بل افتراضك ذلك كان أفضل من القطعية، يا أبت. كل ما راودني وأنا أتصفح الكتاب شعور بالحياء دفعني لأجعل أحدهم يصدق أنه يمكن أن ينبثق من عمق الهيكل الإسمنتي شيء ما أفضل من كعكة مسمومة. ورحت أتصفح الدفتر الفارغ ذا الغلاف الجلدي الأسود، فلم يختلج في شيء سوى الحياء الباهت. يخشى يا أبت من أنني سوف أسبب لك الخزي، كما ألحقته الخيام الغجرية من خزي بصناعة ملابس المساعدات الهولندية. لم يجف، بعد، الوحل الذي يلطخ الكنزات جميعها - فكرت. إضافة إلى أنهم يحفون بها جلود الأحصنة المسروقة، وبها يقعدون على السلالم المفضية إلى اللاشيء - فكرت. الأمر الذي ليس بالخطب الكبير كما نظنه - فكرت. ألا يصح القول إن قبطان السفينة الذي لا يعرف الوجهة التي تقوده إلى المرفأ، لا يهمه أيا كان اتجاه الرياح، لكن إذا توافر لحم الأحصنة في السفينة، لم الرغبة إذن في الوصول إلى المرفأ - فكرت. لكنه حقا لطيف بل جد لماح هذا الكتاب المنجد، لكن الصفحات التي أستخدمها للكتابة نظيفة أيضا في البداية - فكرت. ولدي أسبابي القوية لأفترض أن قمح قايين محط إعجاب أكثر مما أكتبه أنا على الورق. هذا ما جاء في الوصايا، فلا يمكن تجاهل الأمر. ما علاقة ذلك بأنني، في أفضل حالاتي، لست سوى خامة رنانة. دعنا إذن عند الأمور الأخيرة يا أبت.

- فلأجعل من نفسي أعمى - قلت لنفسي وأنا في العاشرة من العمر.

وهكذا صرت أسير في المنزل متعثرا كمن لا يرى فعلا. بقيت لثلاثة أيام أصب الشاي خارج الكأس، وأصطدم بحافة الباب الخشبية حتى إنني لم أشد على نفسي. كان الأمر عاديا ولم يزعجني

ما أفعل، فأنا لست أعمى في الحقيقة.

يوديت وحدها تعرف ذلك.

- أنا أعمى، لكن لا تخبري أحدا - قلت.

- حسنا - قالت، وتابعت تدريباتها من أجل حفلة المدرسة.

أما أنا فأطللت عبر أمي، كما أطل عبر زجاج مغبش. ارتدت معطفها الفارسي، ثم تناولت بسرعة قطع الجبن من الثلاجة، وأسرعت إلى المسرح.

- يوم الإثنين عطلة - قالت يوديت في العاشرة من عمرها.

- لدى أمنا تدريبات بالتأكيد. العرض يوم الجمعة - قلت في العاشرة من عمري.

- يوم الإثنين لا يوجد بروفات، لأن يوم الإثنين. هو يوم أحد الممثلين، كما أن السبت هو يوم أحد اليهود.

- اليوم ليس الإثنين إذن - قلت، وكان منها أن أنزلت آلة كمانها، وأحضرت مفكرة أمي عن الطاولة.

- انظر، يوم الإثنين.

- أنا لا أرى.

- آسفة - قالت - ها هو ذا يوم الإثنين. مكتوب على الصفحة: الساعة الثامنة مساء، ت، إ.

- هذا يعني تراجيديا إنسان.

- بل تماش إفنباخ.

- بل تراجيديا إنسان.

- تماش إفنباخ. على فكرة: لقد حظروا «تراجيديا إنسان» حين صفق حضور مسرح غوركي مشجعين الكتائب.

- إذن أحد آخر. لقد وعدت ألا يأتي تماش إفنباخ إلى هنا.

- كانا يجريان تدريبات، ما الذي يزعجك إن كانا يجريان تدريبات في البيت؟

- لا أستطيع النوم من صراخهما. ثم كيف تكذب؟ أمي تكذب علي. تماش إفنباخ ليس ممثلا، لكنه صحافي.

- ناقد. يمكن اعتباره ممثلا - قالت.

- وإن كان. يمكنها أن تتدرب وحدها ليلا.

أمسكت بيدي، وقادتني إلى المطبخ. دهنت جبنا على قطعة خبز، وأودعتها يدي كأنني أعمى حقيقي، ثم فتح الباب وجاءت أمنا. لم تلق التحية، ولم تخلع معطفها، بل توجهت إلى الحمام.

- أرأيت، لا يوجد عرض هذا اليوم - قالت يوديت، ولم نكمل عشاءنا، ودخلنا إلى غرفتنا.

- تعاني من الشقيقة. لا تتدربي على العزف اليوم - قلت.

- دعنا نلعب الورق - قالت.

- لا أستطيع.

- إذن لنلعب الدومينو. تستطيع ذلك باللمس.

بعد ما يقرب عشر دقائق، فتحت علينا الباب، وبيدها منشفة مبللة، ويدها الأخرى على قبضة الباب، وقد توترت كأنها تضغط على مدية. بدت يدها على هذه الحالة أكثر جمالا، فنسيت للحظة أنني أعمى. كانت اللحظة الوحيدة التي ترنحت فيها، وبعدها سرعان ما نظرت عبرها كأنني أنظر من خلال زجاج مغبش. لم أنظر في عينيها، بل إلى ما وراءها في البعيد.

- إياك بعد الآن أن تقحم نفسك في حياتي. لا أحتمل أن يحتقروني مرة أخرى بسبب ابني الصغير - قالت ذلك وصفقت الباب.

- هذا الآن بسبب إفنباخ - قالت يوديت.

- لا بأس. على الأقل لن يأتي بعد الآن. هلا تلبسينني البيجامة؟
- إلى متى ستبقى أعمى؟
- لا أدري حتى الآن.
- لم لا تكون أصم مثلا؟ ستفطن أمك إلى الأمر حالا.
- ليس أكيدا. ثم إننا لن نتمكن من التحدث.
- لا يمكنك أن تكون أعمى في المدرسة.
- لن أذهب. في الصباح سأجعل أنفي يرعف حين أضع هيبرمنغا.
- هل أبقى معك في البيت؟ أتدرب على العزف.
- الأفضل أن تذهبي. لا أحب فيفالد.
- مع أنه ليس رديئا - قالت - لا تستطيع القراءة وأنت أعمى. ولا تستطيع أساسا أن تفعل أي شيء. أما وأنت أصم فيمكنك أن تقرأ، ولا تسمع عزفي.
- لكن عندئذ سيقومون بغسيل أذني. أو يخزونني بإبرة كما وخزوا (لاتسي ڤورش) قبل عيد الميلاد.
- وأنت أعمى أيضا ستأخذك إلى الطبيب.
- لن يتجاوز الأمر الإضاءة، وقطرات العين.
- كيف تعرف؟
- أخبرني بذلك (المير) حين وصفوا له نظارات. قال لي: يوسعون حدقتيك بالقطرات، ويغبش نظرك ليوم كامل، كأن عينيك مليئة بالدمع.
- سيعرف الطبيب أنك ترى.
- مم؟
- سترف رموشك حين يسلط النور. الأعمى الحقيقي لا يرف.

- هل تراهنين أنني لن أرف. هيا لنحملق.
- وما رهاننا؟
- إن لم أطرف، فستكونين أنت الأصغر سنا مني.
- لا أراهن على هذا. لقد سبق أن حسمنا هذا الأمر.
- حسنا. تختلسين لي خرطوشة من غرفة ملابس أمي، لأحقن هيبرمنغا في أنفي.
- حسنا. وإن فزت أنا؟
- سأكتب لك درسك القراءة في الأسبوع القادم.
- ووظيفة القواعد أيضا.
- حسنا.

وفي اليوم التالي، اختلست يوديت دزينة كاملة من خراطيش الحقن من المسرح، بعد أن فزت عليها، وحملقت فيها كالعميان الحقيقيين، ولم أطرف بعيني حتى عندما لوحت بدفتر النوتات الموسيقية.

- فزت؟ - قالت وهي تلبسني بيجامة المنامة، لكن أمي لم تفطن إلى أنني أعمى إلا بعد يومين.

- علينا أن نقصد الطبيب. رهيب أن أنفك يرعف بهذه الشدة. صار تغيبك عن المدرسة متكررا.

- سأعوض - قلت، وأردت أن أكسر البيضة بالملعقة الصغيرة لكن ضربتي جاءت جانبا، وأخطأت هدفها.

- ما خطبك؟ - سألت.

- لا شيء. سأكسرها في الحال - قلت. وفشلت ضربتي مرة أخرى، فيما كنت أنظر عبر زرقة عينيها إلى اللاشيء.

التقطت البيضة متوترة، وقشرتها ثم وضعتها أمامي، لكن يدي لم تعثر على الملاحة. تلمست على الطاولة بحذر كي لا أطيح

بفنجان الشاي، فجاءت يدي على الزبدة. ازداد توتر أمي، لكنها، حتى الآن، لم يخطر لها أنني قد أكون أعمى.

- خذ، امسح يدك - قالت يوديت، وهي تقدم لي منشفة المطبخ، لكنني مددت يدي إلى ناحية أخرى منتظرا أن تضع فيها المنشفة.

- ما الذي يحصل؟ - سألت أمي.

- منذ ثلاثة أيام، لا يرى - قالت يوديت.

- ماذا تقولين؟ كيف لا يرى؟ لماذا لا يرى؟

- لأنه صار أعمى. حين يكون إفنباخ هنا، يظل أخي لساعات ينظر في المصباح.

- يا إلهي! - صاحت أمي، وأسرعت نحوي، وجثت أمامي، وأمسكت رأسي بكلتا يديها، وكنت أنا ما أزال أحملق عبر زرقة عينيها في اللاشيء.

- أنفه يرعف بتأثير الهيبرمنغا - قالت يوديت - وهو لا يجرؤ على الذهاب إلى المدرسة، وهو أعمى.

- يا إلهي! البس في الحال - قالت أمي.

- لا يستطيع. أنا ألبسه ثيابه منذ ثلاثة أيام - قالت يوديت.

- كيف لم تخبراني؟ ما الذي جعلكما تخفيان الأمر عني؟ - قالت، وكانت هي المرة الأولى التي كان يمكنني فيها أن أراها تبكي، لكنني أعمى. تركتها تخلع عني البيجامة، وتلبسني أول بنطال تعثر عليه، وتضع قدمي الحافيتين في حذائي الشتوي.

- لم نشأ إزعاجك قبل العرض - قالت يوديت ببرود، وتابعت قضم قطعة الخبز - لكنه بلا جورب - قالت تستمتع بما تملك أمي من حيرة وبأس.

- اجلبي جوربا، هيا - صرخت أمي.
- كلها قذرة - كذبت يوديت.
- اجلبـي إذن واحـدا قـذرا - قالـت بخفـوت، ثـم اسـتدعت التاكسي، واحتضنتني إلى السـيارة.
- إلى (بـال هايـم) - قالــت للسـائق بصـوت كان غـير صوتهـا. ولم أدرك، إلا حـين وصلنـا إلى شـارع (أولـو)، أننـي لـن أكـون قـادرا عـلى النظـر في مصبـاح الطبيـب، دون أن أطـرف. لم أعـد قـادرا عـلى النظـر عـبر زرقـة عينـي أمـي. وحـين أمسـكت رأسي مـرة أخـرى بكلتـا يديهـا، علقـت نظـراتي بقزحيتهـا المبهرتـين، وصـار وجهـي مبلـلا بالدمـوع، رغـم أنـه كان مـن المستحسـن أن أحتمـل حتـى نصـل إلى الطبيـب عـلى الأقـل، لكنـي صرت أرى. رأيـت أولا وجههـا الأملـس الناعـم، ثـم كيـف كان متجمـدا كتمثـال.
- ارجـع - قالـت للسـائق بنفـس تلـك النـبرة التـي نطقـت بهـا بعـد عـشر سـنوات حـين طلبـت نقـل تابـوت الديكـور إلى مقـبرة كربـشي. عدنـا أدراجنـا صامتـين إلى البيـت. وكان كل مـا قالتـه في البيـت:
- لا تحاول أن تبتزني مرة أخرى.
ومضت من دون إلقاء التحية.

العــمال الثلاثــة راحــوا يشــتمون الســوڤييت الذيــن أخــذوا في الانسـحاب، فتوقفـت حركـة النقـل المجريـة بالكامـل نتيجـة تحريـك الوحـدات العسـكرية، وهديـر المعـدات الشـبحية كل ليلـة، عـبر البلـد بـأسره، حاملـين معهـم كل شيء. هـذا الاسـتقلال العظيـم أيضا سـيتبعه أيضـا صيـام كبـير، فـما إن تغـادر آخـر العربـات منطقـة زاهـوني، حتـى تكـون أمعاؤنـا قـد تعطلـت. نهبـوا النوافـذ مـن أماكنهـا. طبقـة نوافـذ، طبقـة بطانيـات، لـكي لا يتكـسر الزجـاج. امتـلأت الألغـام

بحبوب الأسبرين، وسبطانات البنادق بعبوات الأقلام، وربما امتلأت خزانات وقود صواريخ أرض - أرض بفلفل منطقة (سڤد). حمل هؤلاء المياه المعدنية، والشوكولا، ولو استطاعوا لشحنوا معهم كافة الصناعات الغذائية المجرية، فلا يتبقى إلا البراز الكثير. امتلأت براميل الوقود بالسكر المجري الباهظ، بعد أن أفرغوها من الغاز والنفط في نهر (زالا)، فخرجت الأسماك إلى الشاطئ كي لا تنفق بتأثير البترول. وفي أنحاء منطقة (بيتش) ذهب الأطفال بعمر ست سنوات بالكمامات إلى رياضهم، وأصبح من الخطورة على الحياة تركهم يلعبون في الحقل، بسبب الكبسولات المتفجرة المندسة بين الأعشاب. وروت إحدى المعلمات لشبكة الأخبار وهي تبكي أنها حين طلبت من أحد تلاميذ الصف الأول ممحاة، كانت محفظة أقلامه مليئة بالطلقات النارية التي اصطفت مدببة كأقلام الرصاص في المحفظة. قامت المعلمة على إثر ذلك بتفتيش محافظ الأولاد، فعثرت على طلقات أكثر مما رأت من الكتب والدفاتر. كل ثلاثين طلقة تساوي قنبلة يدوية، هذا ما قاله تلاميذ الصف الأول متذمرين من تلاميذ الصف الرابع الذين عثروا على صندوق طلقات، ولم يتركوا لهم إلا بقايا. وقالوا أيضا إن بعضا من تلاميذ الصف الرابع يحوزون على مسدسات. تصوري يا آنسة، يمكن قطع الأشجار بالمسدسات أفضل من المنشار الآلي. ظل بابا ينشر شجرة الزان ما يزيد على دقيقتين حتى كاد محرك المنشار يحترق، في حين إن (شاني بو نغراس) من تلاميذ الصف الرابع تمكن من قطع شجرة خلال ثلاث ثوان بعد أن أفرغ فيها مشط المسدس، فانهارت الشجرة على الفور. لا تخافي، انهارت إلى جهة أخرى بعيدا عنا.

- كان ينبغي أن يفطسوا في الغابة - قال أحد العمال - أقاموا هناك مدة أربعين عاما، ولم يعرفوا، بعدها، أن يذهبوا إلى بلدهم بشرف. هؤلاء، ليس بمقدور أحد أن يجعلهم متحضرين. أسوأ من الغجر. الغجر على الأقل لا يتسكعون بالعربات. يأكلون ما يسرقون، وهذا كل شيء. أما هؤلاء فيسلبونك إلى حد ستظل بعدهم مضطرا للعمل الإضافي في المستقبل.

- لكنهم وطدوا النظام، والأمن.

- خطأ، يا صاح. أين النظام هنا؟ متى كان هنا نظام؟

- حسنا، حسنا. أقصد كان هناك قوة عسكرية. لا تستطيع أن تنكر ذلك. قناصات، دبابات، كل شيء، لكن الآن لن يبقى شيء من كل هذا. الجندي المجري منذ أربعين عاما لا يقوى حتى على الجري. لكنه، كالحمار الألباني، يمكن أن يبتسم ويكشر للهيلوكبتر إذا ما جاء اليوغسلاف، أو الرومان. أليس من الأفضل أن يبقى هنا من اعتدنا عليه، وألفناه.

- أنا، بالتأكيد، لم أعتد عليه، ولا ألفته.

- لماذا؟ لا يزعجوننا. لا نتواعد معهم على العشاء، ولا يتحرشون بزوجتك. حتى إننا لا ندري أين يسكنون.

لقد انكفؤوا، ولزموا أماكنهم خلف لائحة (ممنوع التصوير). أتظن أن الزنوج أفضل؟ بعد خمس سنوات سيكون حفيدك الهجين، والخلاسي، وما شابه.

- لن يأتي الزنوج إلى هنا. انتهى كل شيء. أتفهم؟

- الحال أسوأ إذا لم يأتوا. بعد غد سوف يأتي الرومان ويرفعون العلم الثلاثي الألوان فوق البرلمان، كما حصل سنة تسع عشرة. أنا أيضا لا أحب الروس. هذه هي الحقيقة. هم من أطلقوا على

شـقيقي الأكـبر سـنة سـت وخمسـين صـاروخ بـازوكا. تقلـص جسـده كجسـد رضيـع. البـازوكا سـلاح رهيـب، إذا مـا أصـاب قمـرة فحمهـا تماما. رغـم ذلـك أقـول مـا دام أنهـم كانـوا هنـا، ومـا دمنـا قـد ألفنـا صورهـم، فبقاؤهـم أفضـل.

منـذ أن بـدأ السـوڤييت ينسـحبون، وأحاديـث النـاس عـلى هـذه الشـاكلة. في المتاجـر العامـة، والخـمارات، وحافلات الـترام، مثلما حصل حـين تذمـروا مـن إعـلان الجمهوريـة، الجميـع آنـذاك تكلم بالسياسـة. منهـم مـن أراد تحييـد المؤسسـات المصرفيـة، كـما في السـويد. ومنهـم مـن رغـب في الملكيـة، وبخاصـة أن التـاج موجـود، والملـك مـازال عـلى قيـد الحيـاة. ويجيـد اللغـة المجريـة بطلاقـة. ينبغـي إخـراج اللوحـات الفنيـة الكثـيرة مـن القلعـة، ودعـوة (أوتـو هابسـبورغ) إلى البلـد. هـو عـلى الأقـل شـخص نبيـل، وليـس مذبذبـا مثـل بقيـة غـير المتمسـكين بالتقاليـد. حتـى إن النـاس تطرقـوا بأحاديثهـم إلى بـلاد المجـر العظمـى. والمتكسـبون منهـم طالبـوا بإعـادة النظـر في قـرارات معاهـدة تريانـون[14]. الفرنسـيون أنفسـهم قالـوا إنهـا معاهـدة ظالمـة، وكـثر الهـذر عنهـا كأنهـا مبـاراة قـدم: خـرج الرومـان إلى فرنسـا بقطـار مـليء بالعاهـرات، وفيـما كان الشـيوخ المجتمعـون يحتسـون الشـمبانيا، ويرسـمون الحـدود الجديـدة، كانـت الفتيـات يداعبنهـم تحـت الطاولـة. تكشـفت الوثائـق أيهـا الكاتـب، وسـتكون كلهـا تحـت الاطـلاع والمراقبـة.

(14) معاهـدة تريانـون وقعتها المجر مع الحلفاء الغربيين في 4 يونيو 1920، في بهو قصر تريانون الكبير في فرسـاي بفرنسـا، وقد عاقبت هذه المعاهدة المجر بقسـوة لدورها في الحرب العالمية الأولى. قلصت المعاهدة مسـاحة المجر إلى الثلـث. وقد تركت المجر بلا موانـئ ولم يؤد تذمرها من المعاهدة إلى نتائج، لقد اعترفت هذه المعاهدة بالحدود الجديدة لكل من النمسا وتشيكوسلوفاكيا سابقا ورومانيا، وما أصبح يعرف فيما بعد باسم يوغوسلافيا. كما سمح لها أن تحتفظ بجيش قوامه 35.000 جندي فقط. وكان على جميع السفن التجارية المجرية أن تستسلم للحلفاء. وكذلك تم فصل نحو ثلاثة ملايين مجري عن موطنهم. [المترجم].

وكان منهم من لا يبالي بشيء آخر سوى: أن يقينا الله شر اليهود، كي تستطيع النظر في أحوالنا. بدعم من الدولة سوف يطمرون أطفال الأمهات المجريات، وخلال خمسة وعشرين عاما سوف تنتقل حكومة تل أبيب إلى بودابست كطائر الفرنغيلا المهاجر. سوف يودعون دائرة النار هناك، بصحرائها وبحرها الميت ويشكلون مجموعات في كيشفولد شمال غرب المجر. وها هم الآن حول الجمار يلتقطون معنا الكستناء، ويلتهمون القليل الذي تبقى لنا من بلد القديس اشتفان. التعليم الديني غير إلزامي في كل مكان، لكن هناك نصف ساعة يهودية في التلفزيون. وهذا فقط ما نراه بأم أعيننا، وما يعايشه الفرد المجري بشكل مباشر. لأننا، بالطبع، لا نعلم شيئا عن الأموال السرية النيويوركية. أموال هائلة تصرف على طباعة صور الحاخام من أجل الانتخابات، لكن فيللـيرا واحدا لا يصرف على طباعة بروتوكولات حكماء صهيون.

وطبعا كان من بينهم من ينتظر وصول ساعي البريد، ومعه أموال نيويورك السرية، التي تجعل هذه الجماعة تقف من جديد على قدميها، وتسهم في تحويل الثقافة. معيب ما تفعله هذه الجماعة التي يسري في عروقها الدم المجري. حقا إنه معيب لو كان بيدهم لقطعوا الناس في الشارع إربا إربا. لكن ذلك ليس ببعيد. كفانا الله شر هؤلاء. ألا يكفي ما حصلوا عليه من أموال؟ فليأت أخيرا ساعي البريد حاملا الأموال السرية ليقيموا هنا أوروبا صغيرة، بدلا من إثارة دمائنا بأفعالهم. عيب. أقسم بالله، عيب.

أما آخرون فقد أقسموا إنه لم يحصل أي تغيير، ولن يحصل، ما دامت الأرض تحمل الشيوعي على ظهرها. يوحون بأنهم قد تنازلوا عن السلطة. وبقليل من حرية الصحافة يفقؤون عين

الغـرب، لكنهـم في حقيقـة الأمـر قـد انتـشروا في كل حـزب جديـد. ضمنـوا عـلى أنفسـهم تمامـا. كل الأمـوال ملكهـم. هنـاك مثـلا منتجـع (سـوت) الضخـم. لا يجـرؤ أحـد عـلى القـول إن هنالـك سـلطة يمكـن أن تتخـلى عـن تلـك المنتجعـات سـلميا مـن دون قتـال، لـو لم تحصـل عـلى ضمانـات. هـذه حكايـات. كل مـا يطفـو عـلى السـطح مـن تغيير للنظـام عمليـة مدبـرة، ومتفـق عليـه كمبـاراة كـرة قـدم.

وطبعـا هنالـك مـن يعتقـدون أن إصلاحا نوعيـا قد طـال ديكتاتورية البروليتاريـا، لكــن قبــل كل شيء ينبغــي إيقــاف هــذه المجموعــة الغوغائيــة قبالــة الحائــط. مــا الــذي يتصــوره هــؤلاء؟ في الســابق لم يجـرؤوا عـلى ذلـك؟ ألا يسـتحون؟ مــن الــذي بنــى هــذا البلــد بعـد عـام سـتة وخمسـين؟ مـن أقـام صناعـة ثقيلـة؟ البـاص المجـري مـازال يسـير في الصحـراء المنغوليـة. قواعـد خشـبية مجريـة تحـت السـكك الحديديـة في إفريقيـا. كل ذلـك ثـم يقولـون يـا بروليتاريـا القيـلات اتحـدوا؟ أيـن البوليـس في مثـل هـذه الحالـة؟ مـاذا يعنـي أنهـم قـد حلـوا الحـرس العـمالي؟ مـاذا يعنـي أن السـوفييت لا وقـت لديهـم بسـبب انشـغالهم بالانسـحاب؟

حسـنا، يمكـن سـماع مثـل ذلـك في كل مـكان. حتـى الشـحاذون سـاهموا في العمـل السـياسي. تجمعـوا في المظاهـرات، اصطفـوا في مؤخـرات مواكـب الحـداد، وإعـادة الدفـن، ووزعـوا المناشـير بأجـر يومـي. أمـا ليـلا فراحـوا يجمعـون الملصقـات الضخمـة، التـي تنفعهـم كأغطيـة جيـدة. مؤسسـو الصحـف تكلمـوا عـن المزيـد مـن النسـخ بمـا يسـاوي عـدد الذيـن يعرفـون القـراءة في البلـد، ووفقـا لمـا يتطلبـه التبديـد. خمسـة عـشر مليـون نسـخة ربمـا تجعـل آلات الطباعـة تنفجـر. خـلال دقائـق قليلـة انتعشـت الصناعـات الصغـيرة. صنعـوا

كل شيء، بدءا من الشارات الجديدة، حتى لوائح أسماء الشوارع الجديدة. وقامت فتيات بديعات الحسن في المرحلة الثانوية ببيع علب الكونسروة، بآخر ما لديهن من أنفاس الشيوعية، لأن مصنع (كلوبوس) للكونسروة قد دعم الثورة بآلاف العلب الفارغة الخاصة بمارتديلا الكبد.. وكان لكل فتاة منهن ثلاث صور، على الأقل، عن المستقبل، وكل صورة أجمل من الأخرى. لعلها المرة الأولى منذ ألف عام، تحصل فيها مثل هذه الأنشودة الرعوية كما في جنة الخلد. تهافت الجميع على الإمساك بالميكروفون، ولم يمد أحد يده إلى حافظة المسدس، وكأنما اعتبارا من هذه اللحظة، لا وجود إلا للموت الطبيعي، اللهم إلا جرائم الحب. حتى خراطيم المياه لم تشاهد سوى مرة واحدة في أحد الشوارع الثانوية، وكانت معبأة بالشاي الساخن. وقف المتظاهرون رتلا واحدا أمام خرطوم المياه ليحصلوا على كوب بلاستيكي من الشاي الروسي، وتوجهوا بعدها إلى البرلمان. أليس أمرا مدهشا أيها السيد الكاتب؟ بلى إنه كذلك أيها السيد ناظر البناية.

- دعني وشأني - قالت لي المرأة النائمة، لكني لم أدعها، وحاولت الالتصاق بظهرها.

- إن كنت لا تعرف، فدعني أنم - قالت.

- حالا.

- إذن أسرع - قالت. وحاولت أنا أن أسرع.

حين أنهيت الأمر، كانت المرأة تشخر كمصابة بالربو. ما أيقظني أنني كنت محصورا بين حضنها الدبق، والجدار الرطب، وبقيت لفترة لا أجرؤ على الحركة. إنني ببساطة لا أذكر اللحظة التي انتقلت فيها من الكنبتين إلى السرير. تملكني صداع، وكانت

القودكا ما تزال تحرق حنجرتي. ثم وجدت نفسي أتملص من السرير، وأبحث عن ملابسي على ضوء عود الثقاب، بينما كانت المرأة تتابع نومها وركبتاها مثنيتان إلى بطنها، كرضيع كهل. وكانت تتدلى فوقها صورة أمها التي كان ينبغي عليها، حتى وهي ميتة، أن تشاهدنا، أنا وساعي البريد، والعصافير الخمسة والعشرين البائسة.

اصطفق في الخارج باب المرحاض، فانتظرت حتى يخرج (نيتراي). فلم أرغب في أن ألتقي أحدا. ثم سحبت من علبة التبغ ثلاث سجائر، وغادرت غرفة الغسيل متسللا كلص.

كان الفجر قد طلع، وبدأت الشاحنات الصغيرة تنقل الخضار الطازجة إلى السوق. خلف صالة السوق كان ثلاثة رجال يقتلون الأسماك. كان أحدهم يخرج الشبوط بالشبكة من الصهريج، ويضعه على لوح التجميع، أما الآخران فكانا يضربان رأس كل سمكة حتى تكف عن الخبط.

- البقية إلى الحوض - قال صاحب الشبكة، ثم نزل عن سطح الصهريج، وأشعل سيجارة، فيما استراح الآخران قليلا، كل يستند على عصاه، ثم انهمكا يلقيان بالأسماك الميتة في الصندوق.

وأنا أيضا قعدت على أحد المقاعد البيتونية، ومججت سيجارة. لم يفتح بعد أي من الباعة. ربما كانت الساعة الخامسة والنصف، وربما أقل من هذا التوقيت، فقد نسيت أن أحمل ساعتي. ريببكا يطير - فكرت، ورحت أنظر إلى الأسماك المسحوقة الرؤوس، وهي تسبح في الهواء.

وأخيرا، فتحت في الشارع المقابل خمارة في قبو. - بعد عشر دقائق - صاحت المرأة، رحت أتسكع مدة عشر دقائق أمام

المكنسة التي اعترضت باب الخمارة. صرنا ثلاثة حين سمحت الساقية بارتياد المحل. أحد الرجال حمل على كتفيه أنبوبة غاز نتيجة انفجار، وكان مع الآخر أربع رزم من جريدة أخبار المساء. سكبت لهما أولا بعد أن وجدت ما يبرر مجيئهما هذه الأنحاء في مثل هذا الوقت. أنا الوحيد الذي قاستني من أخمصي حتى قمة رأسي. ووضعت أمامي قدح النبيذ بالصودا، دون أن تنطق بحرف، لكن نظراتها كانت توحي بأنها لم تعتد أن يؤم الخمارة أشخاص يرتدون طقما أسود.

لكنها فيما بعد صارت تبدي اهتمامها بالطقم، وبقيت أنا أرتاد (لؤلؤة البلقان) طوال خمسة عشر عاما. لم أحجز طاولة خاصة، أو قدحا خاصا بي على الدوام، لكني كنت أدخل من أجل قدح بالصودا، وأحيانا من دون أن أطلبه، كنت أذهب إلى المغاسل لأرتب هندامي. وأحيانا أيضا كنت أنزل إلى الخمارة لأتكلم مع (يوليكا)، التي ظلت لثلاث سنوات محافظة على بعد ثلاث خطوات عني. كنت أدرك تماما أنني حتى لو حصلت على ملابس أڤارول، أو حملت دزينتين من الجرائد اليومية، فلن يبدل في الأمر شيئا.

وذات مرة بعد أن قدمت لي النبيذ بالصودا، ألقت على الطاولة بجريدة إلى جانب القدح.

- هذا أنت؟ - سألتني. وأشارت إلى صورة في زاوية من الحوار الصحافي.

- أجل.

- وعن أي شيء تكتب؟

- عن كل شيء. يصعب شرح الأمر.

- ومع ذلك، حاول أن تشرح لي - قالت متوترة.

- أكتب قصصا أسمعها هنا وهناك - قلت ما بدا لي أنه الأسهل.

- وكتبت عني أيضا؟ - سألتني، وأشارت بسبابتها إلى صورتي وكأنها تضغط على حشرة فوق سطح الطاولة، وتوشك أن تفركها لمجرد النطق بكلمة سيئة أخرى.

- لم أكتب عنك يا يوليكا - قلت.

- حسنا إذن. قدحك اليوم مجاني.

وفي فترة لاحقة بعد سنوات، في الصباح الباكر لم يجر حديث عن القصص، والحوارات الصحافية، والصور. لم يكن لدي سوى الرغبة في أن يبلغ الغثيان نهايته لأتذكر بوضوح أكثر كيف تسلقت جسد تلك المرأة البائسة كالنبات المعربش. كحلزون عار على جذع شجرة فاكهة ذابلة، مثلي مثل ساعي البريد، وبقية زبائنها الآخرين، رغم أني لم أكن أمتلك الرغبة. لم أمتلك الرغبة على الإطلاق، لكن المرء أولا وأخيرا رغم كل شيء سوف يدب من الكنبة إلى تحت الغطاء المزدوج، حتى لو كانت رائحة النشادر لا تؤثر في تنشيط الرغبة الجنسية.

- أين أجد الحمام؟ - سألت الساقية.

- مقابل الملجأ - قالت، وتناولت المفتاح المعلق قرب الأقداح، واستأنفت تقول:

- فورنت واحد.. وخذ محفظتك معك رجاء، لا أريد أن يحصل سوء تفاهم.

حملت محفظتي، وتلمست طريقي بين الصناديق الفارغة وبراميل الألومنيوم حتى بلغت نهاية الممشى حيث يبدأ الملجأ.

لم يعط مجلس الحي موافقته إلا على النحو التالي:

(لؤلؤة البلقان) ثمانون مترا مربعا، الملجأ ثمانون مترا مربعا حيث ينحشر حشد السكان إذا ما دعت الحاجة وحصل خطب ما. ولم يجد يوليكا نفعا أنها طلبت من رئيس القسم أن يشاهد القبو، إضافة إلى فيلم توجيهي عن صواريخ أرض - أرض، وأنه لن يجد في ذلك البناء شخصا لا يفضل أن ينتقي بدلا من الملجأ صندوق قمامة يقيه القصف، فما كان من رئيس القسم إلا أن أعلن بكل صراحة أنه لا يهتم لأمر السكان حتى ولو انتقلوا جميعا إلى الحاويات، فهي في نهاية المطاف ليست إلا حاويات للقمامة، والنظام هو النظام. قالت لي:

- كان بودي لو أعبئ سلة الأوراق برأسه، وأفرغ وجهه ببقايا السندويش، وأوراق طلبات السكان المهملة، لكنني تذكرت أنه لم يبق إلا توقيعه الأخير على طلبي. أضحكتني النكتة فقلت: آسفة أيها الرفيق رئيس القسم، ما كان في نيتي أن أعطيك التعليمات، لكنه كان مستحسنا أن تضيف عشرة أو خمسة عشر مترا مربعا للبراميل، وبما أنني منذ عام ونصف وأنا أتقدم بالطلبات، وأكدسها في كيس نايلوني، فقد نسيت حاجياتي للمحل، أي نوع من ورق الجدران، أي نوع من أغطية الطاولات، أي نوع من بوفيه الكؤوس. لم ألتق، طوال حياتي، بهذا الكم من الأوغاد الجشعين الذي يطلبون كل شيء، مثل لحم مقدد، صابون سائل يوغسلافي. يطلبون كل شيء. وفي جميع الأحوال لن يمهروا الطلب بالختم، إلا إذا مسح الإنسان به عجيزته. في كثير من الأحيان كان الأمر يتطلب أن أدفع رشوة للبواب كي يسمح بالوصول حتى المكتب. صدقني أيها الكاتب إنني خلال سنة ونصف لم ألتق سوى شخص شريف واحد، حين كان علي أن أحصل على رخصة باسم المحل: (لؤلؤة

منغوليـا). بالأسـاس كان هـذا هـو اسـمه وليـس (لؤلـؤة البلقـان) سـألني: ولم هـذا الاسـم بالـذات وليـس مثـلا (قبـو يوليـا) أو (حانـة يوليـا)؟ كـم كنـت حمقـاء كبقـرة حـين كان ردي أن السـبب هـو اسـم حبيبـي الرومـاني (بـيرلا رادو) ومعنـى كلمـة (بـيرلا) هـو لؤلـؤة.

في تلـك الفـترة ونحـن عـلى شـاطئ البحـر في مسـبح منغوليـا، قـال لي الشـاب الرومـاني، مسـتخدما اللغتـين الروسـية والرومانيـة:

- تعالي ليلا. عديني أنك ستأتيني. سأريك شيئا جميلا.

فأجبتـه بـأن مـن الأفضـل أن تدعنـي وشـأني لأن ذلـك الرجـل البديـن هنـاك هـو أبي. طبعـا لم يكـن ذلـك صحيحـا، لأن أبي ظـل طـوال اليـوم جالسـا في الفنـدق، لأنـه لا يطيـق الرومـان، ولا الحـر. أمـا أمـي فكانـت راغبـة في البحـر، ونصحنـا مكتـب السـياحة (إبـوس) بـأن شـاطئ رومانيـا أصبـح أفضـل مـن شـاطئ بلغاريـا. لكـن عـلى المـرء أن يشـم اللحـم، ويغسـل الخضـار جيـدا، وعندئـذ لـن يحصـل مـا يضـير.

قلـت للشـاب مسـتعينة بكلـمات روسـية ورومانيـة بأننـي لسـت سـاذجة كي لا أعـرف تمامـا مـا الـذي تريـد أن تريني إيـاه. لكنـي كنـت حريصـة أشـد الحـرص كي لا أجفـل الشـاب الوسـيم الـذي يتمتـع بوجـه أكـثر روعـة مـن وجـوه الممثلـين عـلى ملصقـات الأفـلام السـينمائية.

حـين تسـللت ليـلا مـن الفنـدق، أدهشـني مشـهد الشـاطئ. كانـت القـراءة ممكنـة عـلى ضـوء الأمـواج. وكانـت تطفـو عـلى سـطح المـاء أنـواع مـن الأشـنيات والطحالـب التـي يجرفهـا التيـار في يوليـو نحـو الشـاطئ. وكان زبـد المـاء يتلامـع كالحباحـب المضيئـة. حتـى تلـك اللحظـة كنـت أعتقـد أن الألم والحـزن وحدهـما يبكيـان الإنسـان، حتـى رأيـت الدمـع في عينـي هـذا الشـاب، رغـم أنـه كان قـد رأى هـذا المشـهد مـرات عديـدة. ثـم نهـض فجـأة وخـاض في المـاء كأن

البحر ملك له. حين غاص في الماء للحظة، كانت أشعة مخضرة من الضوء تنسحب فوقه، فأضاءت ظهره، وأسفل قدميه. ثم وقفت وتبعته من دون أن يدعوني، وعرف من وقع خطواتي أنني القادمة. نسيت خوفي من أنني مع شاب للمرة الأولى في حياتي، ولم يتملكني أي شعور آخر سوى أنني المرأة الوحيدة في الكون التي يخلعون عليها الآن وشاحا من الأضواء الخضراء الباهتة، هو وشاح حورية في بحر مضيء.

- ما اسمك؟ - سألته، وكان الماء قد أصبح أحمر اللون حولنا ونحن نتعانق في الماء.

- بيرلا.

- ماذا يعني؟ - سألته، لكنه لم يعرف ماذا يقول.

- انتظري - قال، وحرر يديه من عناقي، ثم غاص في الماء.

بكيت أنا، لكن ليس من الروع، بل من حيرتي في أمري. فقد طالت فترة اختفائه تحت الماء، وكأن البحر قد ابتلعه. حين طلع استحق صفعة على وجهه، لكنه قابلها بالضحك. ثم كسر صدفة بأسنانه.

- هذه بيرلا - قال، وقبلني، فشعرت بحبة من اللؤلؤ في فمي. هذه هي الحبة تتدلى الآن في سلسالي.

إن راقت لك الحادثة، تستطيع أن تكتبها لأنها جميلة. هذا إذن سبب تسمية (لؤلؤة البلقان).

آنذاك، في الصباح، أنا أيضا تلقيت صفعة شديدة من أبي، وتلقيت صفعة أخرى منه بعد نصف عام حين شجعت على مرأى منه الفريق الروماني في المباراة الودية التي أقيمت بين الفريقين المجري والروماني. صدقني أن من قبلته وحظيت بلؤلؤة من فمه،

قـد تغـوط عـلى كل شيء. وصـار بعـد الـزواج أكـثر اسـتبدادا مـن المجريـين. بعـد أربعـة أشـهر ألقـاني عـلى الأرض كالمخـاط، فاضطـروا إلى إخـراج الجنـين مـن رحمـي. أمـا هـو فقـد أوقـف عـن العمـل مـدة عـام، وخـرج مـن المنـزل بحقيبتـين، وغلايـة قهـوة.

إذن كتبـت عـلى الطلـب بـكل نزاهـة أن لي حبيبـا يدعـى بـيرلا، فهـز الرجـل في المكتـب رأسـه قائلا:

- هذا غير مقبول.

- لمـاذا؟ - سـألته - أيـن المشـكلة إذا كانـت رغبتـي أن اسـمي المحـل باسـم زوجـي السـابق الـذي بسـببه انتزعـوا رحمـي في مشـفى (يانـوش)، وألقـوا بـه في سـلة المهمـلات.

- هـذا شيء آخـر، حتـى لـو كانـت علاقتكـما الزوجيـة قانونيـة فلـن يوافـق مكتـب القسـم عـلى التسـمية لسـبب كهـذا، أنـا أيضـا شـخص وحـداني، وكنـت عـلى شـاطئ البحـر، لكـن لم لا يكـون الاسـم أكـثر جاذبيـة، (لؤلـؤة منغوليـا)؟ دعينـا نعـثر عـلى مـبرر أكـثر إقناعـا، ولـو كان لا يمـس الواقـع إلا مسـا خفيفـا، كأن تكتبـين مثـلا أرغـب في هـذا الاسـم دعـما للصداقـة المجريـة - الرومانيـة. كـما لهـذا الغـرض سـمي (مطعـم بوخارسـت). مـا رأيـك عزيـزتي يوليـا؟

- أنت تعرف هذا جيدا.

- هل أكتبه إذن؟ - سألني، وثبت الورقة البيضاء في الآلة الكاتبة.

كان الشـخص الوحيـد مـن بـين خمسـين موظفـا وراء مكاتبهـم، الـذي لم يمـد يـده للرشـوة. وهكـذا تبدلـت كلمـة منغوليـا إلى البلقـان لأنهـا كلمـة أكـثر شـهرة.

قمـت أولا برسـم الـرأس مـع القـرن المـضيء، ثـم الشـكل بأكملـه، وأخـيرا علقـت اللوحتـين عـلى العنـق، فبدتـا كنافذتـين مفتوحتـين في

قفص صدري. ثم لونت الخلفية بالحبر الأسود، والسترة بطلاء أظافر أمي الأحمر، ودعمت القرن بقليل من الأصفر لكي يزداد ضوؤه شدة. أوشك الرسم أن يكون منتهيا، لكنني لم أجرؤ على مس اللوحتين. غير أني استجمعت جرأتي وكتبت عليهما تسع مرات: لكن، لكن. وفي النهاية بقي مكان (لا تقتل) خاليا، ففقدت اللوحة توازنها بعض الشيء لكني شعرت أنها أفضل هكذا.

- ما عنوانها؟ - سألت يوديت.

- شاهدة قبري.

- ولم هذا الكمان بيديه؟

- لا أدري. هذا ما خطر لي.

- جميل. لكنك رسمت رجلين يسريين لموسى.

على كل حال، الكمان بالوتر المقطوع أنسب لموسى وهو برجلين يسريين.

- أردت أن أرسم سوطا، لكن لسانه صار طويلا. حتى الرجلان اليساريان مجرد مصادفة. سأحاول تصحيحه فيما بعد.

- لا تصححه. يعجبني هكذا. هل تعطينيه؟ - سألتني.

- طبعا. لكن لا تريه لأحد.

- لن أريه لأحد. سألصقه على الكمان.

وأحضرت الصمغ، ودهنت الوجه الخلفي للرسم وتركته يجف قليلا.

- دعينا نعتذر لأمنا، فهي لم تكلمنا منذ أيام - قلت.

- هل ضايقتها؟ - سألت وهي تلصق لوحة موسى.

- لا.

- ولا أنا إذن لماذا؟

- بـل ضايقتهـا. كان حلـوا أنهـا صدقـت، ونقلتنـي بالتاكـسي إلى المشـفى. جـاءت بـروب نومهـا، ولم تلبسـني الجـوارب.
- لماذا بكيت إذن؟ كان ممكنا أن يصدقك حتى الطبيب.
- لا أدري.
- خفت؟
- لا.
- إذن ندمت.
- لا.
- لا يبكي الإنسان لأسباب أخرى.
- بل يبكي. أنت تبكين حين تتمرنين.
- هذا مختلف.
- ليس مختلفا. بكيت وانتهى. دعينا نطلب العفو.
- أنا لن أطلب. يمكن أن تعتذر إذا شئت.
- الأفضل أن نكون معا.
- قلت لك، لا.
- غدا سيكون عرضها.
- وإن كان. وأنا لدي حفلة موسيقية يوم الأحد.
- لن تحضرها إن لم نعتذر حتى ذلك الحين.
- حسنا. اعتذر أنت. وسأقف هناك فيما بعد - قالت.
- حسنا - قلت.
- أريـد أن أعتـذر. لـن أصـير بعـد الآن أعمـى. - قلـت لأمـي عنـد الفطـور.
- آهـا - قالـت، دون أن ترفـع بصرهـا، وظلـت تدهـن شـطيرة الخبـز بالزبـدة - تعـالا في المسـاء إلى المـسرح، سأرسـل لكـما التاكـسي.

- الحفلة الموسيقية يوم الأحد - قالت يوديت.
- لدي بروفة تصحيحية من الساعة الخامسة - قالت أمي.
- الحفلة الموسيقية عند الساعة الثالثة.
- حسنا إذن - قالت أمي - لكن كلميهم بحيث لا تكونين الأخيرة. هذه الحفلات أكثر رعبا من اجتماعات مجالس الأهل. كيف تحتملين هذا الكم من عديمي المواهب؟
- غروسمان ماهر جدا. لكنه ينضج ببطء - قالت يوديت في العاشرة من عمرها. قالت عبارة (ماهر جدا) كما تنطق بها أمي، لكن بمعنى مختلف تماما.
- هؤلاء سيؤثرون عليك سلبا، ويجعلونك تتراجعين. سأرتب أمر انتسابك إلى المعهد الموسيقي بدءا من الخريف - قالت أمي.
- لا أحب.
- سنناقش المسألة فيما بعد. ارتديا للمساء ثيابا مرتبة. سأرسل التاكسي في السادسة والنصف - قالت أمي، ثم نادتني وهي خارجة عند الباب، وطلبت مني أن أعتذر من إفنباخ لما بدر مني في المرة الماضية، فور أن ينتهي العرض.

علي في الحقيقة أن أكره المسرح، وغرف الملابس العابقة برائحة العرق، ومتاهة ممرات مستودع الديكور، والتصفيق الحاد، والكراسي الثلاثمئة الفارغة لمدة عشر دقائق، وأجهزة الإضاءة، الغروب عند مئة واط. العصر الصيفي عند ألف واط. وركن الملقن الذي يتسع لولدين نحيلين، لكن المرأة البدينة عاملة النظافة في المسرح كانت داخله. مسدس الإطلاق في غرفة اللوازم. غلايات الشاي ومعداتها، الألبسة التاريخية القديمة ذات الرائحة الكريهة، السترات العسكرية. الملابس الرجالية وعليها علامة مصنع ملابس أكتوبر الأحمر. أكره كل ذلك.

علي أن أصاب بالغثيان من الضوضاء في نادي الممثلين، من نظراتهم المسرحية، ومن حركاتهم المسرحية خارج خشبة المسرح، ومن نكاتهم التافهة.

- وطني لأجل الملح[15] يا عزيزي (ينو). وهات بعض الخردل للنقانق.

فقال (ينو):

- لحظة أيها السيد الفنان، سأحضر فاتورة الفنانة عما اجترعته من الليكور.

- في الرابع من الشهر، يا عزيزي (ينو). لا تسألني عن الحساب حتى الرابع من الشهر.

- طبعا، أيتها الفنانة، لن أسألك.

- في أي مكان عاهر أجد هذا الخردل يا (ينو)؟ إنهم ينتظرونني. بعد دقيقتين سأصعد إلى المسرح - لكنه لم يستطع ابتلاع اللقمة لأن المايكروفون نادى السيد ريتشارد الثالث للصعود إلى المسرح.

بالكرباج ينبغي تفريق طالبات الثانوية وهن يكمن أمام مدخل الفنانين، ويدسسن، خلال حصولهن على التواقيع، أشعار الحب في جيب (كور لانوس)، ويأملن، إن لم يتحقق حلمهن في القبول بمعهد التمثيل، أن يحظين بفرصة لإلقاء المعطف على كتفي السيد الفنان، فيقمن بتدريباتهن أمام المرآة على هذه اللقطة، وأيضا كيف يناولنه سيف الألومنيوم، دون أن يخطر ببالهن أن كلية الفتيات بكاملها لا تعير له اهتماما، وأنه هو بالذات، من يتمنى أن يخلع المعطف عن كتفي ذلك الشاب الذي يتسمر منذ ثلاثة

(15) وطني لأجل جواد- عبارة ريتشارد الثالث الشهيرة. [المترجم].

أيام قرب لوحة (ممنوع الوقوف) منتظرا الفنانة (ڤيير)، للحصول على توقيعها دون جدوى، لأن الفنانة إما أن تكون خارجة مع أصحابها، أو تقول له: في مرة قادمة، يا حلو، أنا مستعجلة الآن. من لا يملك العزيمة والجلد، ولا ينتظر فرصتين أو ثلاثا أمام المخرج، لا يستحق من الفنانة أحرفها اللؤلؤية. إضافة إلى أن الفنانة تدرك جيدا إلى أي حد يسعها أن تشد الوتر. مثلا، حين رأت هذا الشاب للمرة الأولى قالت: دعه ينتظر شهرا كاملا، ما أحلاه من شاب!

أما الفنان الغر فقد ظل لنصف ساعة يوزع التواقيع للفتيات. يحادثهن، ويطري على تسريحاتهن، وينطق أحيانا ببعض الآراء يصيب بها عين الحقيقة فيما يخص المسرح، ثم يندفع هاربا من أمام الشاب طالب الثانوية الذي ينتظر أمي، لأنه لو شوهد معه مطولا لكان الأمر منافيا للأخلاق الاشتراكية. وإذا ما حصل ذلك، ولم يغضوا الطرف عنه، فسوف يعتبر شيئا مشينا أكثر من انشقاق ابنة أحد ما عن وطنه. المريض العقلي يجلس في ثلاجة الموتى في مشفى (فاتسي)، أو فاقد الحياة في معهد بودا لعلاج الأمراض العقلية.

- كيف لرجل وسيم ناضج مثلك ألا يتزوج حتى الآن، أيها الرفيق؟

- أسعى أن أحيا لأجل المسرح، أيها السيد السكرتير الحزبي.

- لا، أيها الرفيق، حتى البابوية صارت تعترض، وتحتج على العزوبية. طبيعة الرجل تستوجب ذلك. أترغب في قدح من الكونياك؟

- شكرا أيها السيد السكرتير الحزبي.

- ألا تعتقد أن نموذج فتياننا في المعاهد عليه أن يؤسس أسرة؟ وإلا فسيحصل على الأقل نوع من المغازلة التي قد يساء فهمها.

شيء من الرومانسية مع فتاة ملقنة في المسرح، أو ما شابه. كل ما هنالك فقط هو أن الشغف المبالغ فيه للعمل يوقع في سوء فهم، أيها الرفيق.

- أجل أيها السيد السكرتير الحزبي.

- هذا هو جوهر الحديث. أيها الرفيق الشاب. وكن على يقين أنك تستطيع أن تعتمد علينا. ما رأيك مثلا بمكافأة، بجائزة، لكي لا تكون في حاجة إلى هذه الفورنتات القليلة من زميلك الصغير السن في منزلك. يمكنك الاستغناء عنه لأن مستأجرا وضيعا مثله يسيء إلى العلاقة الزوجية السليمة. أليس كذلك. أيها الرفيق؟

- طبعا، أيها السيد السكرتير الحزبي.

- خذ هذه الجرعة الأخيرة! ما أطيب الكونياك الفرنسي!

- أجل أيها السيد السكرتير الحزبي.

وهكذا مضى كورلانوس إلى البيت كأنه ذاهب إلى مشنقة. زميله في الشقة فتى بسن السادسة عشرة، خاطبه كورلانوس باكيا:

- لست أنا سوى براز. براز، براز، براز! لا أحتمل هذا. هؤلاء يكيدون لي يلفقون عني، ألا تفهم؟ وضب أغراضك، وعد إلى (سغد). هؤلاء ليسوا بشرا. هؤلاء أسوأ من كلب مسعور. عودي لين، مخاطي، لكني لا أريد أن أفطس. يا للعار. انقلع من هنا! احمل حقيبتك وغادر. ابتعد من هنا!

ثم صفق الباب، وظل حتى طلوع الفجر ينشج فوق نعش حب الرجال، ثم تخلف عن ثلاثة عروض مسرحية لقناعته بعدم جدوى العمل ما دام لين العود، ومخاطيا. ولتوافر السبب الذي يجعله لا يسامح نفسه أبدا. وفي مشفى (كوراني) أخاطو له أوعية معصمه الدموية، لكي يتمكن مجددا من القبض على السيف.

- هيـه! آن لـك أن تخـرج - قالـت السـاقية، وطرقـت البـاب، لأني في الداخـل منـذ نصـف سـاعة.

- لحظة - قلت، وغسلت وجهي على عجل بالماء البارد.

- لا تتحامق هنا - قالت - لا أريد قدوم الإسعاف، أو الشرطة.

- أشعر بسوء. شربت كثيرا.

- إذن لا تطلـب النبيـذ بالصـودا، اطلـب البـيرة - قالـت ووضعـت أمامـي قـدح بـيرة مـن نـوع (كوبـاني) - اشرب بتـؤدة. لديـك وقـت، أليـس كذلـك؟

- أجل - قلت وشربت على مهل.

كان قـد علـق عـلى المشـاجب تحـت الـدرج صـف مـن رزم المجـلات معـدة للنقـل بعربـات صغـيرة، مثلـما تعلـق المعاطـف في أماكـن أخـرى، لكــن مــن دون أن تعطــى الــرزم هنــا أرقامــا، لأن بإمــكان أي شــخص أن يميـز رزمتـه: صـوت الشـعب، مجلـة الإذاعـة والتلفزيـون، كل رزمـة مشـدودة جيـدا بقضيـب ثخـين، لأن القصبـان تـزن أكـثر مـن شرائـط الهليـون، وهـو أمـر يدركـه مـن سيشـتري هـذه الأوراق ويسـكت عنـه متغاضيـا عـن هـذه الديكاغرامـات الزائـدة. لكنـه لا يحتمـل أن تخبـئ الـرزم حجـارة أو مـا شـابه مـن الإضافـات الثقيلـة. يحـس بالحجـارة مـن دون الحاجـة إلى ميـزان لأن حساسـية ذراعيـة تفـوق حساسـية أي أداة قيـاس أخـرى. عليهـم إذن ألا يحاولـوا خداعـه بالحجـارة أو حتـى بصحـف أخـرى غـير صحـف الرزمـة، لأن الخـداع مسـألة شرف بالدرجـة الأولى.

- لا تظننـي معتوهـا يـا كارتـشي. في هـذه الرزمـة مـا لا يقـل عـن أربـع علـب مـن طـلاء الأحذيـة. دعنـا نفـك الرزمـة مـن فضلـك.

ويكـون مـن نتيجـة الأمـر حقـا أن علبـا أربعـا مليئـة بالرمـل الرطـب، محشـوة بـين أعـداد الثامـن مـن سـبتمبر، والتاسـع مـن

سبتمبر لجريدة حرية الشعب. يا للعار! وينفجر الواقفون غضبا: هذا كثير!

ومن نتيجة الأمر أيضا أن التفتيش سيشمل رزما أخرى، لعل بعضا من صفائح القرميد مندسة ضمنها، ألا يسيء هذا إلى صناعة الورق الاشتراكية ويؤدي إلى تعطيل الآلات إذا ما أنتجت ورقا من القرميد!

والحال هذه إذن، صار من غير المجدي أن يلجؤوا إلى محاولات الغش. وهكذا فقد اصطفت تحت الدرج رزم الصحف الخالصة، مثلما تعلق المعاطف مرقمة في ركن الأمانة للمطاعم والفنادق ذات الدرجة الفضلى. وهكذا أيضا يقوم من جاؤوا بها باجتراع النبيذ بالصودا بكل هدوء. وبكل هدوء أيضا تبدأ أيامهم. ومن المحتمل أن يشعر واحدهم للحظة في مثل هذا الوقت المبكر أن من الأفضل له لو لم ينهض من فراشه، وأن المكان الطبيعي لمثل هذه الحياة هو حاويات القمامة، كما أشار إلى ذلك رئيس قسم المجلس المحلي في رده على يوليكا. لكن ذلك لا يمنع محتويات القدح الأول من النبيذ بالصودا من أن تجترع بطريقة ما، على أخبار الرياضة من إذاعة (كوشوت) بعد أن تقوم يوليكا بتشغيل الراديو. اجتراع قدح من النبيذ يجعل رؤية الإنسان أكثر وضوحا، وأشد نقاء، فليس سيان عنده أن يصغي إلى المعلق الرياضي، أو إلى الدود في المقبرة الجماعية الجديدة. لعل الرفيق رئيس القسم قد أخطأ في هذا. بعد كأس نبيذ، وبعد أخبار الرياضة تتجلى الأمور: مباراة (فرادي)، ملغومة، ملعوب بها، مثلها مثل كل نهائيات الكؤوس، ومثل الخطة الخمسية. ماذا يعني إذن أن يعيقوا لاعب الهجوم (تروتشيك) ويوقعوه أرضا؟ أليس ذلك اتفاقا من أجل

الحصـول عـلى ضربـة جـزاء. أمـا نحـن فـلا نسـتطيع أن نلغـم رزم مجلـة (الرياضـة الشـعبية) بـأي شيء.

التفتـت السـاقية أخيرا إلى أنني منـذ سـاعات أجلـس في الركـن مـن دون أن أشرب كثـيرا. أحيانـا تبـدل منفضـة السـجائر، وأحيانـا أخـرى تجلـب شـيئا مـن الفسـتق المملـح.

- ما خطبك؟ هل طردتك زوجتك؟ - سألتني.

- لست متزوجا.

- تبـدو كمـن طردتـه زوجتـه. - قالـت وعـادت إلى وراء منضـدة المحـل.

حـين انتهـى برنامـج (أحـداث الظهـيرة) أخفضـت صـوت المذيـاع عـلى برنامـج (تسـلية وموسـيقى في عـشر دقائـق): السـائل هـو جـورج تسـيفان، والمجيـب هـو مـدام كالمـان يوهـاس مـن مدينـة كتشـكميت.

سأل جورج تسيفان وقد دارت الأسطوانة وصدحت الموسيقى:

- في مثـل هـذا اليـوم منـذ مئـة وثمانيـة عـشر عامـا، كان العـرض الأول لهـذه السـيمفونية الرومانسـية في دريسـدن. مـا هـي؟

سألتني شقيقتي يوديت:

- في أي يوم من الشهر نحن؟

- في السابع منه - قلت.

- سيمفونية دانتي إذن - قالت يوديت.

- لم لا تشـتركين في البرنامـج؟ يمكـن أن تربحـي كل يـوم قالـب جاتـو - قلـت.

- حين أشتهي الجاتو، أنزل إلى محل الحلويات.

- ليس من أجل الجاتو، بل من أجل الفوز.

- لكني فزت. فلم ذهابي إلى هناك؟

- عظيم. لنصفق لمدام كالمان يوهاس - قال جورج تسيغان.
- أرأيت! لست أنت من ربح.
- يبدو أن ما يقوله الراديو مهم جدا بالنسبة إليك.
- لا أطيق منك حين تتصرفين وكأن كل شيء عندك سواء.
- لا أسلك هذا السلوك، لكن الأمر سواء. ما الذي يصعب فهمه هنا؟
- مثلا، لم تعزفين على الكمان إذن؟ أو لم ليس فقط في البيت؟ إن كان الأمر سيان بالنسبة إليك، لم تصعدين إلى منصة المسرح؟
- هذا مختلف كليا - قالت يوديت.
- ليس مختلفا أبدا.
- انظر! عندما أعزف أنا على الكمان، يكون أمرا غير برنامج لعبة وموسيقى. مفهوم؟
- الفاتورة من فضلك - قلت للساقية.

منذ سنوات، كانت مقبرة كربشي المكان الوحيد في المدينة الذي منحني الثقة، فصدقت فيها خضرة الأعشاب، وحفيف التربة تحت قدمي. حيث أحسست أن للطبيعة فعلها. إن الصخور المقواة بالإسمنت في جبال (بودا)، وإطلالة جبل (يانوش) وهواءه النقي المنعش، وركوب الزوارق في غوطة المدينة، كلها كانت دائما لا تثيرني. الطبيعة كحديقة للتسلية والمرح لم تكن تهمني على الإطلاق.

قطع كورلانوس شريانه للمرة الثانية، لكن بمهارة فائقة هذه المرة. وحين سمعت أثناء دفنه: (نقف هنا خاشعين حائرين). إضافة إلى (قرارك المؤلم سيبقى سرا دفينا إلى الأبد)، قلت ليوديت: أفضل أن أتنزه قليلا.

تملصنا من الحشد بطريقة ما. ولما كان المرتلون الخمسة يطلقون الافتراءات بلا رادع في حضرة الميت، حاولت أن أبتعد أكثر ما بوسعي عن هذه المقطوعة الفنية.

- أراك غاضبا إلى حد، وكأنك لا تفتري أبدا - قالت يوديت.

- لا تقولي إنك لا تقرفين من هذا؟

- ولماذا؟ هل وضعت في حسبانك أنهم سيقفون عند القبر ويطلبون المعذرة لأنهم لا ينصحون بالشذوذ الجنسي في بلاد المجر؟

- رغم ذلك لا يجوز أن يفتروا على ميت في وجهه.

- أنت تحيا ما دمت تفتري على أي كان من دون أن تطرف عيناك، فإن لم تفعل، فلا بد من أن تمسك بشفرة جيليت وأنت مرتاح.

- حماقة.

- انظر! ليس في هذه المقبرة ميت واحد، إلا وعاش حياته كمرشح محتمل للانتحار، مصابا كان بالسرطان، أو بهزال الشيخوخة، أو معرضا للضغوط. لم يكن لديك الوقت ليطفح كيلك من الكذب الذي تتلقاه، وتقرف من ذاتك.

- أتدرين إذن؟ اذهبي إلى البيت، واقطعي شريانك. وما دامت المسألة مسألة وقت، فلماذا لا تحلين وتر الكمان وتقطعين معصمك.

- فكرة.

- أتغوط على مثل هذه الفكرة. ماذا تنتظرين؟ لم لا تذهبين؟ إن كنت تعرفين النهاية، فلم انتظارك؟ ألا تريدين أن تحتجي على قسمتك؟ أم ماذا؟

- لقد فعلت. لكن خوفي يردعني - قالت، وتركتني.

لحقت بها عند مجموعة المحاربين القدماء في الحرب العالمية الثانية.

- ماذا جرى لك؟ - سألتها.

- لا شيء.

- ليس صحيحا.

- حسنا إذن. على هذا الأساس إن بمقدوري أن أكذب وأفتري. من دون أن تطرف عيناي.

- كنت أظن أنك لا تكذبين علي.

- أكذب على أي كان، فلا تسألني.

- لم أعهدك متهكمة على الإطلاق، ولم أسمع منك من قبل هذا القدر من الحماقات.

- ما أقوله جاد. في مثل هذه الحالات يجعل الإنسان من رغبته قضية كبرى.

- تتكلمين الآن كأمنا بالضبط - قلت، فوقفت يوديت أمامي فجأة وأرادت أن تصفعني، لكن كفها علقت في الهواء.

- إياك بعد الآن أن تجرؤ وتشبهني بأمنا. أبدا... أتفهم؟

- أفهم - قلت.

انتحينا جانبا في حرش ما حين تفرق الحفل التأبيني، فلم نكن نرغب في لقاء أحد. كما يحصل عادة بعد عرض مسرحي أول، فقد التأمت هنا وهناك مجموعات صغيرة راحت تناقش كلمات الخطباء، فنال الفنان (ريتي) أعظم الاستحسان. وبدأت الكلمات تتناثر. إنه ما زال رجلا ساحرا! أنت لا تقول هذا جادا! طفله؟ لديه حفيدان بالفعل. هذا والله عدم مسؤولية. - ثم وصل شخص ما مع الفنان أويهاي. اقشعر منه المرء بشدة.

وفي أجمـل عمـر للرجـال بالضبـط. - لا! لا تقـول هـذا جـادا! إنـه كان شـاذا جنسـيا؟ هـذه خرافـة بالتأكيـد. لقـد نـشر هـو ذلـك ليكـون أكثر إثـارة للاهتـمام. يجـب عـدم تصديـق كل شيء. ثـم تطرقـوا إلى المتـوفى وأنـه كان معبـود النسـاء. انظـروا! لقـد حـضرت كليـة البنات كلهـا. كان أفضـل لـه أن يمـوت. وإن كان المديـر يتمتـع بجانـب مـن عقـل فعليـه أن يجتـذب الممثـل بويـار مـن مدينـة (كابـوش ڤـار).

وأخـيرا غـادر الحضـور المـكان، فبقيـت أنـا وشـقيقتي وحيديـن في أرجـاء المقـبرة.

- لا تغضبي مني أرجوك.

- لسـت غاضبـة. لكنـي لسـت راغبـة الآن في الـكلام - قالـت، ولفـت ذراعـي، وعبرنـا كل الـدروب الفرعيـة صامتين.

حـين غربـت الشـمس بهتـت النصـب تحـت أشـجار الحـور نصبـا بعـد آخـر. وكأنمـا سـنت التشريعـات منـذ مئـة عـام بحيـث تكـون منحوتـات فنيـة موحيـة بأبديـة الرغبـة، هـي التـي تقـوم بحراسـة قبـور العائـلات الموسرة، بـدلا مـن نصيـب المسـيح المعـذب. أفروديـت لأصحـاب الدخـل مـا فـوق الألـف كورونـا. المسـيح مـع الصليـب حتـى دخـل خمسـمئة كورونـا. الصليـب مـن دون المسـيح لباقـي العائـلات. لكـن كل الحجـارة كانـت محاطـة باللبـلاب الـذي تشـابكت سـيقانه فـوق القواعـد الرخاميـة، أمـا أشـجار الخـروب والزيزفـون فقـد أحاطـت بهيـاكل الآلهـة وشـققتها. ونمـت الجـذور عـلى أغطيـة السراديـب المشـقوقة. كل ذلـك كان أكثر وقعـا في نفـسي، مـن أن يقـوم السـيد المديـر باجتـذاب (بويـار) مـن كابـوش ڤـار.

ومنـذ ذلـك الوقـت، وأنـا أخـرج إلى مقـبرة كربـشي كل أسـبوع عـلى الأقـل لأنـه كان المـكان الوحيـد في المدينـة حيـث يشـعر المـرء بـأن الطبيعـة تمـضي بـه إلى شيء مـا.

- الفاتورة لو سمحت - قلت للساقية، ثم قصدت مطعما ذاتي الخدمة وتناولت وجبة فاصولياء خضراء، ثم سرحت أعدد الإمكانيات المحتملة لوجهتي. لم أجد واحدة. كل الاحتمالات كانت مضحكة، بدءا من منزل (كريمر) الريفي، حتى جميع العشيقات السائبات.

حين أنهيت وجبة الفاصولياء، بدا من البديهي أن أتوجه إلى مكان وحيد: أخرج إلى كربشي لأنظر كيف لنا من الآن فصاعدا، أن نتعايش معا. الرحيل خارج الوطن مع آلة الكمان الموسيقية، شيء، ومع محفظة ثياب داخلية فقط، شيء آخر.

يمكن للمرء، يا أمي، أن يغفر أي شيء لفلذة كبده، لكن شغاف القلب أشد حساسية من المعصم بكثير - فكرت. إذا ما اجتاحت النذالة شغاف القلب، صار احترام الذات هراء. هذا ما ينبغي عليك أن تدركيه. لأن الحضور الذين تقنعينهم بأدوارك باتوا قلة في صالة المسرح ولا يتجاوز معدلهم المئتين، بعد أن فقدت احترامك لذاتك - فكرت. لكن هذا الفقد لاحترامك للذات ليس فقط من الساعة السابعة حتى التاسعة، ثم تمسحينه كالمكياج بعد انتهاء الدور - فكرت. ليس هنالك من أساس تدهنين به نفسك لتعود بشرتك بشرة إنسانية من جديد. إنك في حقيقة الأمر لم تبني قبرا لابنتك. وإلا لما درت ثلاث مرات في أرجاء المقبرة، ولم أجد شيئا.

استقر تحت حجارة القبور موتى حقيقيون قضوا نحبهم برصاصة، أو بالسرطان، أو بهزال الشيخوخة. رفات من الموتى تصغي بسلام وهي تحت الثرى إلى أصوات الدرج والحجل، وضجيج صمامات مصنع المطاط، وإلى تنهدات فتيات الثانوية العاشقات، وقرقعة الدراجة الهوائية الصدئة لناظر المقبرة.

- اذهب إلى الجحيم! ماذا تظنان؟ هذه ليست ماخورا. هنا يرقد أدي أندره[16] ويوكاي مور[17]! اذهبا إلى المقبرة العامة الجديدة، ومارسا نزوتكما الحيوانية هناك.

وفيما كانت الفتاة تسوي ثيابها الداخلية، استنكر الشاب هذه اللهجة بضمير (أنتما) قائلا:

- على ما أذكر، لم نصل بعد إلى درجة رفع الكلفة في التخاطب. وعلى أية حال، كن مطمئنا أيها السيد الناظر لأن ممارستنا الحب هنا قد تزعج يوكاي، لكنها لن تزعج أدي أندره[18] على الإطلاق. ثم إن خيطا رفيعا يفصل بين ممارسة الحب، وممارسة النزوة الحيوانية، وما بالك بأنني ذات يوم سأدفن هنا في مكان ما، بين قبر أدي أندره ومصنع المطاط، لكنني في وصيتي الأخيرة سأحرص حتى على منع أمثالك من مطلقي الكلاب من الاقتراب من قبري. ظلت الفتاة تقهقه بلا حياء قائلة: من أين طلع مطلق الكلاب هذا؟ فما كان من الناظر إلا أن ألقى بدراجته أرضا، وانتزع صليبا مائلا، ولاحقهما عبر قبور (الجنود الحمر) حتى مخرج المقبرة.

استوقفني أحد حراس المقبرة الذي يقود دراجته بلباس الرياضة، معتمرا قبعة سويسرية، وحول عنقه منظار عسكري يساعده في مراقبة مخربي القبور، واللاأخلاقيين، والذين يقصدون المقبرة للنوم ريثما يخصص لهم المجلس المحلي غرفة غسيل يقيمون فيها.

(16) شاعر غنائي مجري اشتهر بقصائده في الحب - [المترجم].

(17) روائي وكاتب مجري شهير - [المترجم].

(18) في إشارة إلى أن الشاعر أدي أندره كان مهووسا بممارسة الحب - [المترجم].

قال لي:

- إن كنت لا تدري، فهذا مكان خشوع له حرمته، يا سيدي! هلا تكرمت وامتنعت عن التدخين.

- آسف - قلت له، وأطفأت السيجارة رغم علمي أنه رمى بالسيجارة لتوه.

- أبحث عن شخص - قلت.

- لن ترى أحدا هنا بعد هذا الوقت. سنغلق بعد عشر دقائق.

- يوديت ڤيير. دفنت قبل ظهر البارحة - قلت.

- تكرم وابحث عنها غدا. وتفضل الآن بمغادرة المقبرة.

- أختي.

- في الموقع الحادي عشر. في الخلف عند مصنع المطاط. لكن أسرع رجاء، لأننا سنطلق الكلاب عند الساعة الثامنة.

- أتيت إلى البيت، يا أمي - ناديتها من الباب، لكنها لم تجب.

كانت مستلقية كعادتها على السرير، مثلما تركتها منذ يوم، ولكن المنشفة كانت قد جفت وتجعدت على وجهها، ونحل كامل جسدها مع مرور الوقت.

خلال خمسة عشر عاما أوقعتها خيوط اللاشيء في شراكها، مثلما تتصيد شبكة العنكبوت حشرة الخنفساء، ومع ذلك ما يزال هيكلها البديع يتبدى على شبكة التجاعيد.

- أتيت إلى البيت، يا أمي - ناديتها مرة أخرى، ثم أزحت عنها المنشفة ظنا مني أنها نائمة، لكنها كانت مستيقظة لم تكن تنظر إلى أية وجهة. وحين رأيت وجهها الأجوف، وجدت من البديهي أن لا جدوى من حديثنا. خرجت إلى المطبخ لأغلي الشاي، ثم تبعتني، وكانت لا تقوى كثيرا على الوقوف على رجليها.

- أين كنت يا بني؟ - سألتني ربما للمرة الأولى في حياتي.

- لا يهم يا أمي.

- أنـا مرهـق - قلـت ونهضـت لأدخـل إلى غرفتـي لكنهـا قبضـت عـلى ذراعـي.

- إذن فأنت تصدق؟ تصدق تلك التفاهات؟

- لا يهم. سيان - قلت.

- ليس سيان. كذب وافتراء كل سطر في تلك الرسالة.

- أجل - قلت.

- أنا لم أرغمها أبدا على شيء!

- يمكن يا أمي - قلت.

- كانـت امـرأة ناضجـة، لم تفعـل إلا مـا رغبـت فيـه. كانـت تعـاشر مـن تريـد. وأنـا أيضـا أعـاشر مـن أريـد.

- أعلم - قلت.

- والتجريـف هـل كان افـتراء عاديـا! هـل كان فحصـا بسـيطا روتينيا أتفهم؟

- محتمل أن يكون كذلك - قلت.

- أغلـق فمـك! ليـس محتمـلا! كل فتـاة بعمـر ثلاثـة عـشر عامـا تعـرض عـلى الطبيـب. أفهمـت؟

- فهمت يا أمي - قلت.

- لا تفهـم شـيئا. أنـا علمتهـا كيـف تعيـش. عـلى المـرأة أن تعـرف كيـف تعيـش. مـا فعلتـه كان صوابـا.

- صار الأمر سيان يا أمي - قلت.

بـدا الأمـر في البدايـة أنهـا لا تغـادر البيـت بسـبب صـداع الشـقيقة. وكان أن اسـتمر ذلـك طـوال خمسـة عـشر عامـا. والآن، منـذ أسـبوعين،

ترى السماء للمرة الأولى حين حملت بتابوت مفتوح إلى الفناء.

- ألا تطبق عينيها؟ - سألني أحد ناقلي الجثث.

- لا - قلت.

- ولكن هكذا جرت العادة.

- أعلم.

- كانت لها عينان جميلتان.

- والآن كذلك - قلت.

- ووقف الجيران في الممشى الخارجي، وقد أخذتهم الدهشة من ظهور أمي، بعد أن كانوا قد نسوا أمرها تماما.

في الأشهر الاولى كانوا يطمئنون عنها بالسؤال: كيف حال الفنانة العزيزة، لم نرها منذ مدة، نأمل ألا يكون السبب هو المرض. فأخبرتهم بأنها ليست مريضة. ثم لم يسأل أحد عنها إلا عند ما يأتون بفواتير الكهرباء والغاز. وكانت الخادمة (كارتشي) تطمئنهم قائلة: لا، ليست مشلولة، لا شيء من كل هذا. الآن دخلت أمي وأغلقت الباب وراءها. وهي على أحسن ما يرام، ورائعة كما شاهدناها الإثنين الماضي في فيلمها القديم. لكنها اعتزلت. الممثلات الكبيرات اعتدن اعتزال الفن، وبعدها لا بد أن يجدن شيئا يفاجئ به الجمهور. الرفق بالحيوان، أو ما شابه.

رأيت حلما بعد دفن يوديت ببضعة أسابيع. كنت أسير صاعدا جبلا عند طلوع الفجر. في الأسفل كان الضباب يخيم أبيض صوفيا في عمق الوادي، أما هنا في الأعلى عند مضارب الغجر فكان بياض البيوت ثلجيا مبهرا. كنت أتسلل مرتعدا أمام الأبواب المغلقة، والنوافذ القاتمة بالحرائر السوداء، بعد أن روت لي إحدى عاملات التنظيف في المسرح أن الغجر يربطون الأطفال الغرباء في الحظيرة،

ويسقونهم دم الأحصنة، لكي تنبت لهؤلاء الأطفال أجنحة من دماء الأحصنة فيطيرون حاملين الموتى إلى السماء أو إلى جهنم للمنطقة التي ينتمي إليها الميت.

أقول إن السماء هنا كانت مبهرة، لكن أشجار الصنوبر الناهضة خلف البيوت كانت تتمايل بفعل الرياح. كان من المتعذر سماع تلاطم الأغصان، أو صرير الجذوع، وكأن لا صوت هنا لأي شيء، سوى هدير دقات قلبي. كنت قد بدأت أخلف ورائي هذه المقبرة ما قبل استيقاظي، وأمكنني أن ألمح الطريق النازل من الجبل، لكن فتاة غجرية كانت تقف هناك في فناء آخر البيوت. نقود ذهبية عجت بها جدائلها الطويلة حتى رد فيها، منديل مزهر لف خصرها. وعلى شفتيها حمرة التوت الخريفي. كنت أود أن أسرع خطوي على الأقل، لكن طلعتها شلتني. سرى رصاص في عروقي، وملأ القطران فمي بدلا من اللعاب. كان بيدها سوط، وإلى جانبها فوق خشب الصنوبر نامت بومة بحجم إنسان. نطقت الفتاة بلغة غير مفهومة شيئا ما لا يتعدى الكلمة الواحدة. ثم صفقت بالسوط صفقة واحدة، فبدأ طائر البوم يتململ، ثم رفرف بجناحيه الثقيلين، وطار إلى الداخل عبر النافذة المغطاة بالحرير الأسود.

في صباح اليوم التالي جاء رد يوديت على إعلان نعيها: أمي الموقرة، إن كنت ترغبين أن تريني، فاطلبي منهم ألا يغلقوا عينيك فيما بعد.

هذا ما كتبته يوديت على بطاقتها التي أرسلتها من كاراكاسن وكان عليها صورة فتاة غجرية بيدها سوط، ونقود ذهبية تعج بها جدائلها، ومنديل مزهر يلف خصرها، وكانت ترمقني بجمار

البغض المنبثة من طلعتها. أما أنا فقد ظللت واقفا عند صناديق البريد في بيت الدرج، لم أقو على الحراك لدقائق. وفي نهاية المطاف جعدت البطاقة البريدية، ودسستها في جيبي. كنت أدرك تماما أن هذه البطاقة لن تقع أبدا بين يدي أمي. وفي تلك الليلة نقبت طويلا في صناديق العدة المنزلية، حتى عثرت على مفتاح يقفل درج طاولة مكتبي. خبأت البطاقة، ورحت أبحث عن مخبأ أخفي فيه المفتاح. لم أقتنع بمكان آمن، فقررت أن أربطه بسلسلة وأعلقه حول عنقي. ظل معلقا معي لسنوات كتميمة صدئة، لكنها مؤثرة.

بعثت ليوديت ثلاث رسائل، وربما أربعا، لكن جميع الرسائل عادت إلي. كانت مجعدة بمغلف نايلوني، وطوابع مبللة، وكأن ساعي البريد قد أغرقها في المحيط، وهكذا لم أعمد بعد ذلك إلى إرسال بقية الرسائل. كتبت لها كل شيء إلا عن أحوالنا الشخصية، وكيف تجري حياتنا، لأنه لا يجوز أن نبوح بكل شيء لأي كان. ليس بمقدور الإنسان أن يقول إن أمه مجنونة، وإنها تشاهد التلفزيون حتى بعد انتهاء البث، وإنها تؤمن على إغلاق الباب بأكثر من سلسلة أمان، وإنها تنهض خلال الغداء لتحطم جهاز الهاتف بمدق اللحم، ثم ترجع إلى المائدة لتلتهم ما تبقى من مرقة رب البندورة.

إذن، لقد كتبت لها كل شيء، لكن ليس على هيئة رسالة مألوفة - فلا جدوى من ذلك - بل كأنني أكتب لمن سيحطمون علينا الباب لاحقا، وذات مرة نسيت أن أقفل درجي على رسالة تتضمن حادثة من هذا النوع، ففوجئت بأمي تحدق بي حين عدت إلى البيت مساء، بمثل تلك النظرة حين طبت علي وأنا أقرأ رسالة يوديت المخبأة.

ما هـذه التفاهـة يـا بنـي؟ سـألتني. لكنـي لزمـت الصمـت، إذ لم يخطـر لي شيء قـط.

وقفنـا في الصالـون، هـي تمسـك بيدهـا البطاقـة الورقيـة المجعـدة، وأنـا أنطـوي عـلى غضبـي، وخجـلي، حتـى نطقـت أنـا في النهايـة، قائـلا بـأن هـذه قصـة يـا أمـي. هـذا مـا خطـر لي أن أواجـه بـه أمـي لأننـي أدرك أنهـا الحالـة الوحيـدة التـي لا تتدخـل فيهـا. إن لـزم الأمـر أضـع عشريـن سلسـلة أمـان عـلى البـاب، وإن لـزم الأمـر أكـذب عـلى الجيران قائـلا لهـم شـكرا فنحـن بخـير، لكـن مـا أكتبـه أنـا عـلى الـورق، ليـس لأحـد الحـق في التدخـل بشـأنه. لا أحـد أبـدا في هـذا العـالم المثقـوب.

- حتى بادئات الأفعال المستخدمة في كتابتك بلا نكهة - قالت.

- ممكن يا أمي. لا تقرئيها إذن - قلت.

ومـن يومهـا صرت أدع كتابـاتي عـلى الطاولـة، ولم يطلـع عليهـا أحـد سـوى أمـي، إلى أن جـاءت أسـتر.

أول مـن قلـت لـه إننـي كاتـب كان شرطيـا. ومـن دون أن يحصـل معـي أي شيء خـاص يسـتدعي ذلـك، ومـن دون أن يكون يـوم الخامس عـشر مـن آذار، ولا يـوم الثالـث والعشريـن مـن أكتوبـر، بـل طلـب هويتـي في يـوم خريفـي باكـر عـلى نحـو روتينـي، وبـكل بسـاطة:

- مساء الخير، هويتك من فضلك.

أمسـك هويتـي، فأمليـت عليـه معطيـاتي: سـنة الـولادة، اسـم الأم، مـكان السـكن الدائـم، ثـم بحـث عـن مـكان عمـلي فتبـين لـه أننـي بـلا مـكان عمـل.

- عاطـل عـن العمـل إذن - قـال، وضـع الورقـة الناسـخة في دفـتر المحـضر ليسـجل أننـي متهـرب عـن العمـل يشـكل خطـورة اجتماعيـة، دون أن يخطـر لي أيـة محاولـة لثنيـه عـن كتابـة المحـضر، كـما حصـل

لي عندما سألتني أمي ونحن في الصالون: ما هذه التفاهة يا بني؟
وعندئذ قلت للشرطي:
- أنا كاتب.
فسألني:
- كيف تثبت ذلك. أي شخص يمكن أن يقولها. كفاك كلاما فارغا. هذا يقول إنه كاتب، والآخر رسام، والثالث فنان، وكلهم من دون إثباتات. أنتم تتعمدون الاصطدام بالقانون، لتأتي المعارضة وتتهم النظام بأنه نظام كذا وكذا. ما تفعلونه ليس بالأمر الحسن، أبدا ليس بالأمر الحسن. ماذا يا سيدي لو سجلت الآن هذا المحضر؟ سوف أغض النظر الآن، لكن في المرة القادمة، إن لم تلتزم بواجباتك الوطنية، ولم يكن في دفتر هويتك ختم بأنك تمارس عملا فكريا، فلن أتقبل الأمر بحسن نية.
أمي المحترمة، اليوم وصلت إلى روما - كتبت، وعنونت مظروف الرسالة على عجل، لكي أصل عند الساعة الثانية والنصف إلى فندق (غاليرت). يوديت لم تكتب منذ أربعة أشهر، والآن وجدت الشخص المسافر الذي سيبعث بالرسالة من خارج الحدود. امرأة تدعى (أنيتا)، تمارس التجارة الخارجية، وهي امرأة تربت على الأصالة، وتموت من أجل العلاقات العميقة، وهي على قناعة أن رجلا إذا ما أحب أن يتحدث عن الملك لير أكثر من شغفه أن يقول: أين يسكن، فهذه علاقة عميقة. قالت:
- يا للخسارة إنك لا تستطيع الذهاب معي إلى روما، حيث يمكن لك أن تعايش الكثير من الأمور المميزة، وتكتب عنها القصص. وفي الليل نزور الكولوسيوم حيث كان المسيحيون، والمجالدون. سيكون رائعا.

أما أنا فكنت مستلقيا على الفراش أرمق مطبوعات فان كوخ التي جاءت بها من هولندا، وأنتظر اللحظة السانحة لأغادر الفراش من دون أن أخدش مشاعرها. فما ذنبها، بعد ممارسة الحب، إن كان اللاشيء في ميدان الكولوسيوم الذي يضغط على صدري هو نفس اللاشيء الذي يضغط عليه هنا فوق الفراش المصنوع على طراز أبنية هوندرتفاسر[19] الموجودة في محيط شارع بيلا بارتوك. ليس ذنبها، ولا علاقة لها بذلك. كما ليس بيدها، ولا علاقة لها بالأمر، إذا ما أحببت الحديث عن الملك لير أكثر من أن أقول أين أسكن، وماذا فعلت البارحة بعد الظهر، وقد صار لدي علاقة عميقة.

- أين كنت يا بني؟
- تمشيت قليلا يا أمي.
- في مرات أخرى، اغتسل جيدا قبل أن تعود إلى البيت. أنت نتن من رائحة الكولونيا.
- آسف يا أمي.
- أظن أن كل من يستخدم مثل هذه الكولونيا، خرقة رخيصة.
- لا داعي لهذا، ولا معنى له يا أمي.
- لا تقل لي أنت ما الذي له معنى، بل أزل الرائحة الكريهة عنك قبل عودتك. هل فهمت؟
- فهمت يا أمي.

وعندئذ قلت لأنيتا هذه: أجل، فعلا من الرائع لو نكون في الكولوسيوم. وخرجت للاستحمام، وتدخين سيجارة في الحمام،

(19) فريدنسرايش هوندرتفاسر من أشهر الفنانين المعماريين في أواخر القرن العشرين. فنان له طابعه الخاص في الرسم والمعمار، من مواليد 15 ديسمبر 1928 وتوفي في 19 فبراير 2000 في النمسا. [المترجم].

لعدم إمكانية التدخين في الغرفة. والحقيقة، لو أنني كنت مضطرا للتدخين في الغرفة لفعلت، لكنني شعرت أن من تخوله العلاقة العميقة أن يستحم، عليه ألا يستغل مثل هذه الامتيازات. حتى إنني قمت بفتح نافذة التهوية فوق البانيو لطرد دخان السيجارة. وخلال استحمامي حاولت أن أعثر على سبب معقول يبرر رغبتي في إرسال رسالة إلى ريبيكا ڤير من روما إلى بودابست، ما دمت لم أزر روما طوال حياتي الكريهة. كان لزاما علي أن أجد المبرر، لأن يوديت لم تكتب منذ أربعة أشهر، وعندما أنهيت الاستحمام تحمست أنيتا قائلة: طبعا. سأرسلها في اليوم الأول. ستكون دعابة مثيرة بالنسبة للسيدة العجوز. كان موعد المؤتمر مساء الغد، لكنها أرادت أن تأخذ حمام ساونا في مسبح (غاليرت). قالت:

- ما رأيك أن نأخذ الساونا معا؟

لكن لحسن الحظ، خطر لها أنه ليس حماما مختلطا. وهكذا تواعدنا أن يكون لقاؤنا غدا أمام المسبح الساعة الثانية والنصف. وفي اليوم التالي أخرجت قلم حبر الباليكان وكتبت: أمي المحترمة؛ اليوم وصلت إلى روما. ثم لصقت الطابع البريدي. وانطلقت فيما بعد سيرا على الأقدام فوق جسر (سابد شاغ).

وقفت عند درابزين الجسر امرأة شابة مسبلة الشعر، ترتدي معطفا مطاطيا واقيا. وقفت تراقب ألواح الجليد الطافية فوق مياه الدانوب. التمعت الشمس أسفل الغيوم الراكدة، وصفعت الرياح النوارس، وكشجرة حور وقفت المرأة هناك بمعطفها الخفاق.

كنت قد تأخرت عن موعدي، ومع ذلك توقفت للحظة. لم أنظر إلى وجهها، بل لاحظت أولا يدها التي تقبض على الدرابزين الحديدي. ثم على نحو ما نسيت رسالة يوديت، وأمي، وأنيتا

الأصليـة التـي التقيتهـا ثـلاث مـرات، والتـي خرجـت مـن السـاونا وصـارت تنتظـرني هنالـك، في مـكان يبعـد عـن مدخـل فنـدق (غالـيرت) بضـع مئـات مـن الأمتـار. نسـيت وسـائل الديكـور المسرحيـة التـي نسـبت إلى تركـة - فـيبر، نسـيت سلاسـل الأمـان عـلى البـاب، والقـبر الخجـول في مقـبرة كربـشي، الـذي أبـت النباتـات أن تقـوم حولـه أو تعـرش عليـه، كأنمـا رشـت التربـة هنـاك بالملـح. رحـت أشـاهد هـذه المـرأة ذات المعطـف الرمـادي، ناسـيا تمامـا الفنانـة إيفـت بـيرو التـي ألهمـت أمـي، وزودتهـا الثقـة، خـلال أزمتـي وأنـا في الحاديـة عـشرة، والتـي بعـد العـرض الأول لمسرحيـة النـورس، وفي غرفـة ملابـس أحـد المطاعـم، مثلـت مشـهدا إباحيـا. ونسـيت الفنانـة مـازاي التـي كـم أحبـت أن أكـون أنـا مـن يسـاعدها في أزمتهـا وهـي في الثامنـة والأربعـين، لكـن المسـألة بـاءت بالفشـل والحمـد للـه. نسـيت المفتـاح المعلـق في عنقـي، والفتـاة الغجريـة حاملـة السـوط، ورزم الجرائـد في لؤلـؤة البلقـان، والخمسـة والعشريـن قفصـا وفيهـا خمسـة وعـشرون عصفـورا مهيـض الجناحـين، نسـيت الرفيـق فنيـو الـذي بصـق في وجـه أمـي، ونسـيت كليوباتـرا التـي ركضـت في شـوارع المدينـة بحمالـة الثديـين المرصعـة بالحبيبـات الزجاجيـة. وقفـت أشـاهد فقـط هـذه المـرأة ذات المعطـف الرمـادي التـي وقفـت كشـجرة الحـور في مواجهـة ريـاح آذار، وهـي تراقـب ألـواح الجليـد التـي يجرفهـا النهـر، ولم أعـرف مـا الـذي أقولـه لهـا، لأني لم أعتـد عـلى مخاطبـة أحـد في مـكان مفتـوح. وكـما تفعـل بنـات الهـوى الأكـثر خـبرة، أشرت بنظـرة منـي: هيـا. لكنـي انتظـرت، ولـو تطلـب الأمـر لانتظـرت أشـهرا بطولهـا. ولم أعـرف مـاذا سـأقول. والحقيقـة، أنـه لم يخالجنـي أي شـعور بالمواسـاة، ولا حتـى بالفضـول. لم أرغـب في معرفـة سـبب وقوفهـا هنـا، ولا لمـاذا لا تلقـي

بنفسـها في المـاء. كنـت أشـعر بالافتتـان ولا شيء آخـر.

- هيا لنذهب - قلت وقد كففت عما أنا عليه من افتتان.

- حسنا - قالت بعد أن نظرت في عيني.

كان ينبغـي أن أمـضي وأتـرك أسـتر في المقهـى مـع أقـداح الكونيـاك التـي اكتظـت بهـا الطاولـة، ومـع الإحالـة الطبيـة لاختبـار النسـج.

- هل أرمي بهذه؟ - سألتني النادلة، فأجبتها:

لا ترمي بها.

وأخذت الإحالة كأنها تخصني.

بعـد أيـام كانـت النتيجـة تقـول إن رحـم أسـتر فيـه ورم حميـد. وإنـه، بعـد إجـراء عمليـة جراحيـة روتينيـة سـوف يسـتحيل إلى رحـم طبيعـي لامـرأة في الثامنـة والعشريـن مـن العمـر. وسـيكون صالحـا للحمـل والـولادة إذا كانـت العلاقـة الزوجيـة سـليمة.

انتظـرت في الممـشى، وفي جيبـي علبتـا تبـغ، لأننـي لم أكـن أدري كـم مـن الوقـت يسـتغرق اسـتئصال ورم حميـد. لكنـي، بعـد السـيجارة الأولى أردت أن أقتحـم غرفـة العمليـات، ليمتنعـوا عـن إجـراء العمليـة. وفي النهايـة فتـح البـاب وخـرج الدكتـور ڤيـداك يطمئننـي. خـلال شـهر. مفهـوم؟

- مفهوم.

وبعـد يومـين أخرجـت أسـتر مـن المشـفى إلى شـقتها المسـتأجرة في الطابـق الثالـث بمسـاحة اثنـين وثلاثـين مـترا مربعـا في الحـي التاسـع، حيـث صعـدت بهـا كزوجـة بعـد الـولادة، عـلى الـدرج الـذي أنتنتـه مخلفـات الهـررة. كانـت المـرة الأولى التـي زرتهـا فيهـا.

- أين تذهب يا بني؟

- سأجلب خبزا يا أمي.

- لدينا خبز. أمس أيضا أتيت الساعة العاشرة.
- كنت مشغولا يا أمي.
- أنا لا أطيق الحياة إن كنت تتسكع هنا وهناك.
- حسنا، سأبذل جهدي لكي أعود في وقت أبكر يا أمي.

وذات مساء تدبرت أمر سلسلتي الأمان بحيث أستطيع أن أعلقهما من الخارج. وحين خلدت أمي إلى النوم هربت من المنزل وكأنه معهد للتربية، لأنني لم أكن راغبا في أن تسألني أين تذهب يا بني؟

نمت عند أستر على فراش إسفنجي حتى الفجر، كان هدوء الشقة في شارع (ناب)، أشبه بهدوء الأديرة. وكم كنت ممتنا للدكتور ڤيداك.

وبدلا من أن أقوم بالتحليل العميق للملك لير، رحت أحكي لها ما لم أحكه لأحد منذ عقد. حدثتها عن المياه التي تغور من جوانب الشوارع دون أن تطلب الحديث، أو تسألني. ضمتني إليها بقوة جعلت عظم بطنها يترك أثرا مزرقا في بطني.

- أود لو أرى غرفتك - قالت أستر.
- غير ممكن. على أية حال، ليس فيها شيء مميز. طاولة مكتب من إحدى المسرحيات الروسية. سرير ممتاز من إحدى المسرحيات كذلك. إضافة إلى بعض الكتب لم أقرأ خمسها.
- سجادة؟
- من مسرحية تاجر البندقية.
- ثريا؟
- من كوميديا تشيكوسلوڤاكية، لا أذكر عنوانها.
- وإطلالتها؟

- حديقة المتحف، أو مصاريع النوافذ.

- أرغب في ممارسة الحب.

- غير ممكن، مازلت مريضة - كنت أكذب عليها منذ أيام، لأنني خشيت بعد الممارسة أن أترقب اللحظة المناسبة لأهرب، كما فعلت في غرفة ملابس مطعم كارباتيا، أو في منطقة (كيش بشت)، أو مع أنيتا. كم كنت أود أن تكون وصية الدكتور ڤيداك صالحة العمر كله، وأن أظل مستلقيا على الإسفنجة أحكي لها، وأحكي حتى لا تعود تسمع صوتي. لم أتشوق لشيء سوى أن تظل تشد يدي إليها، وأحس بحرارة حضنها من تحت روب النوم. وحين بدأت شفتاها ترتعشان، أدركت أنها منذ لحظات ما عادت تسمع شيئا. عندئذ لزمت الصمت، ورحت أرمق الجسد المتشنج القانط. ألاحظ تشنج عمودها الفقري كما يحصل عادة لأولئك الذين يحاولون تعريضهم لصدمات التيار الكهربائي. كوتر الكمان الذي سينقطع من اللمسة التالية. كانت روعتها مخيفة، مثلها حين وقفت وسط الرياح تشاهد من عل ألواح الجليد المبهرة فوق الدانوب. ألاحظ وجهها المشوش تحت الشعر الأسود. خفقان صدرها الوئيد. ولاحظت كيف تستعيد نفسها، وتعود إلى وعيها. ثم، قبل أن تمد يدها إلى حضني، قبضت على معصمها، وكذبت عليها قائلا إن علي الرحيل، الآن أمي توشك أن تستيقظ. ثم قالت لي اذهب إذن، وقبلت عيني.

- أود أن أرى أمك - قالت.

- غير ممكن. على أية حال، ليس هنالك من شيء مميز فيها. إن لم تكن يوليا أو لورا لينباخ، فهي إذن مثلي تماما.

- أعلم ذلك.

- من أين؟
- قصدت اليوم المكتبة، وبحثت عن بعض صور الأغلفة.
- لكن ليس حسنا أن تخرجي.
- لست أمك.
- علم.
- قبلني إذن - قالت.
- مازلت مريضة - قلت.
- أنت تكذب - قالت، وحلت حزام الروب، وكانت المرة الأولى التي رأيتها فيها عارية، حين انزلق الحرير الأبيض والأسود عن كتفيها. تملكتني رغبة في الهروب، لكنها جلست على مثل أنقاض نينوى. حدقنا في بعض، فيما كانت تفك أزرار قميصي.
- لا - قلت.
- اسكت – قالت.
- لا - قلت مجددا، لكنها رفضت. فبدأت أستسلم شيئا فشيئا ناسيا كل شيء، كما سبق لي أن نسيت كل شيء على جسر (سان شاغ)، لكن الآن ليس فقط درجي ومفتاحه، ورسائل يوديت التي زورتها بيدي اليسرى، وكليوباترا بحمالة الثديين المرصعة بحبيبات زجاجية، بل نسيت أيضا في أي فترة من النهار نحن، فجرا، أم عند العصر. نسيت أيضا كيف أستنشق الهواء، وأن عمودي الفقري قد تشنج.
- أحبك - قالت.

بات من المتعذر تنظيم الأصوات بكلمات. صار كل صوت على حدة، يهرب متملصا من شبكة الوعي المنهار.

صار ينبغي علي أنا أيضا أن أفكر بساعة أمي في غرفة ملابس

المسرح، لأنني أردت ألا تتوقف. أردت أن أظل هنا إلى نهاية الزمن، عالقا في شبكة الوعي المنهار، لكنهم لم يسمحوا لي. ألف يد ويد قبضت على ذراعي، وضغطت شحمة أصابعي على جمرة المهر، إلى أن شعرت أن العضلات المتشنجة علي قد بدأت بالخفقان، وراحت أستر تقبض باكية على أضلعي، ولعلي كنت مازلت أشعر بها وهي تنهار علي.

علي الآن أن أضرب جذورا - فكرت.

كالسنديان - فكرت.

كالأرز، هذا طويل الأمد – فكرت.

أحبك – فكرت.

اسكتي – فكرت.

فكرت فقط – فكرت.

سيقضي عليك الأمر – فكرت.

لا يهم – فكرت.

لا يمكن الحياة هكذا – فكرت.

هكذا أريد – فكرت.

اسكتي – فكرت.

لن أسكت – فكرت.

أقبل بممرضة إلى جانبها – فكرت.

عندها ستراني للمرة الأخيرة – فكرت.

أعرف، ظننت ذلك - فكرت.

حين تكون مستلقيا إلى جانبي، إياك أن تجرؤ على أن تفكر بمثل هذا.

لا تغضبي – فكرت.

لست غاضبة – فكرت.

عانقيني إذن – فكرت.

أنا أعانقك أصلا - فكرت.

أرغب في البقاء هنا – فكرت.

أعلم – فكرت.

في مكان واحد كالسنديان – فكرت.

أو كالأرز - هذا يدوم طويلا – فكرت.

بجذور تضرب فيك – فكرت.

اضرب في إذن – فكرت.

ألا يكفيك ازرقاق وركيك – فكرت.

لا يهم – فكرت.

أحبك - فكرت.

هكذا سنعيش بعد - فكرت.

لا يمكن العيش هكذا - فكرت.

لا يمكن إلا هكذا - فكرت.

أقلق عليك - فكرت.

لم يعد هنالك ما يقلقك بشأني - فكرت.

أعتقد ذلك - فكرت.

طلع الفجر - فكرت.

عليك أن تذهب - فكرت.

أنت تخافين أكثر مني - فكرت.

ليس صحيحا ما تقول – فكرت.

بل صحيح – فكرت.

عليك الذهاب فعلا، توشك أن تستيقظ - فكرت.

أعلم - فكرت.

اذهب إذن - فكرت، ومسحت بقبلة منها العرق المتلألئ على جبيني.

- أين كنت يا بني؟
- كنت مشغولا، يا أمي.
- لكني أشعر بألم في منطقة القلب.
- آسف يا أمي.
- لن تكون في البيت حتى عندما أفطس.
- سأستدعي طبيبا يا أمي.
- لا تستدع أحدا. تناولت دواء.
- حسنا يا أمي - قلت، وكنت أعلم تمام العلم أنه خلافا للفيتامينات والفاليريان، ليس هنالك من دواء في البيت، حتى الأسبرين قد نفد. وكان يمكنني أن أقول إنني لا أصدق صحة حتى وجود الألم في منطقة القلب.

رغم أني في سن العاشرة كنت أجرؤ على الدخول ليلا إلى غرفتها وأقول: آن لكما أن تنهيا البروفة، وآن لإفنباخ هذا أن ينصرف، لأني سأستيقظ في الساعة السابعة، أنا ويوديت.

- أنت لست ممثلا أصلا، وما أنت سوى صحافي تافه - قلت لإفنباخ، ولا أفهم حتى اليوم لم كان علي أن أعتذر له يا أمي، وهو لم يكن سوى صحافي تافه. كاتب زوايا مبتذل متملق كان يكتب بتوصيات حكومية. (عمل عميق إنسانيا). لا أنسى هذه العبارة يا أمي. مسرحية التعساء كعمل عميق إنسانيا أثرت في نفسي وبقيت معي أكثر من جدول الضرب، لهذا السبب، عند إقامة حفل ما بعد العرض ذهبت إلى ذلك التافه لأعتذر منه وفقا لرغبتك.

- أعتذر عما حصل أخيرا - قلت.

- آآآ. لقد نسيت الأمر - قال.

- أنا لم أنس - قلت.

- انظر، أنت صبي شاب، وغدا رجل. صار عليك أن تدرك أنني لا أمس أمكما بأذى.

- طبعا - قلت.

- نحن.. هناك في البيت.. كيف أعبر لك.. هل تريد حساء التفاح؟

- لا أريد - قلت.

- آنذاك، هي لا تصرخ لأن أحدا يؤذيها، بل لأنها في غاية المسرة. أنت أيضا تصرخ حين يجلب لك بابا نويل شيئا جميلا.

- آها! - قلت.

- أرى أنك تفهم. السيدات الجميلات كأمك، يصرخن على نحو أشد كلما اشتدت سعادتهن.

- أجل - قلت.

- طبعا، أنت محق في أنني لست ممثلا، لكن يحدث ألا يحب المرء أن يقول لما هو سعيد، لأنه يعتقد أن الآخر لا يفهمه، ولذلك يقول أشياء ليست دقيقة بالكامل.. أكيد أنك لا ترغب في حساء التفاح؟

- أكيد - قلت - ما من مشكلة، أمي أيضا تحب أكثر أن نظن أنها تتمرن.

- من أي شيء أكثر؟

- على سبيل المثال، أكثر من أدخل عليكما وأقول توقفا.

- يا إلهي. ما هذا الولد! يمكن التحدث معك رجلا لرجل.

- فلنتحدث إذن - قلت - لا أريد لأمي أن تنام معك.

- هذا لا يبدو طلب اعتذار.

- أنت قلت لنتحدث رجلا لرجل.

- ألست متغطرسا وقحا بعض الشيء؟

- لا. لكنـي لا أحـب البلـداء مـن أمثالـك. مـن يجلبـون معهـم حلـوى اللوزينـا حـين يأتـون. أكـره اللوزينـا كثـيرا.

- عد إلى أمك في الحال، قبل أن أصفعك – قال.

وكان يمكننـي أن أتابـع معـه، وأجـرؤ عـلى قتلـه، لكـن الرفيـق المخـرج شـاروشي جـاء يـشرب نخـب الرفيـق الناقـد إفنبـاخ، وجذبتنـي يوديـت بعيـدا.

وعـلى أيـة حـال، لم يكـن لطلـب الاعتـذار هـذا أي معنـى، فبعـد ثلاثـة أيـام حـل ضيفـا علينـا المخـرج جـيرزي بوكوفسـكي الـذي.. (اجترع القـودكا) متحدثـا بالروسـية قبـل المضاجعـة، لكنـه بعدهـا راح يتكلـم باللغـة البولونيـة، وود، بدافـع الرومانسـية، لـو نكـون معـا عـلى الـدوام كعائلـة كبـيرة. وعانقنـا عنـد بـاب الحـمام، وفـاح مـن قميصـه الداخـلي ذلـك المزيـج المقـرف مـن روائـح القـودكا الروسـية، وخمـرة الوجـه المجريـة، والتعـرق البولـوني، لكنـه حـين قالـت لـه يوديـت: أنـت قـذر يـا جـيرزي، أبـدى سروره، لأنـه لم يفهـم حرفـا واحـدا مـما سـمعه منهـا. وسرتـه أيضـا شـقرتنا جميعـا نحـن الأربعـة. أسرة حقيقية. ونحـن كذلك كنـا سـعداء. أعجبتنـي هـذه الكاثوليكيـة الرائـدة المتحـررة، حـين ربـت عـلى قفـاك يطالـب بفطـور نظامـي مـع الوالديـن، قبـل الذهـاب إلى الزمـلاء حتـى لـو حصـل تأخـر نصـف سـاعة. أعجبتنـي رائحـة الجـبن التـي تفـوح مجـددا، وأنـه، ريثـما يسـلق البيـض، نـزل إلى المتجـر مـن أجـل بعـض أصابـع النقانـق، وزجاجتـين مـن القـودكا. واقـع الحـال

أننا تأثرنا لأنه بعد شهر من الآن سيعود إلى وارسو، ليكون مع زوجته وأطفاله، وكلهم أيضا شقر، كما تدل صورتهم المعلقة على ثلاجة مطبخنا، لكي يتأملهم جيرزي بعد العشاء، ويصل إلى حالة من الحزن الملهم، ويقول كم من المؤسف أنهم بعيدون، في حين كم نحب نحن بعضنا. يا لها من أسرة كبيرة، كبيرة جدا يمكن أن نشكلها معا. ابنته تعزف على البيانو، وابنتك على الكمان، أما الشابان فلا يفعلان شيئا. هذه أيضا تمريرة.

أجل يا أمي، يحزنني أن جيرزي ينبغي عليه أن يعود، لأن بانتظاره أمورا شتى؛ أفكارا خبيثة، كاثوليكية متحررة رائدة، مسرحا رائدا، أسرة رائدة. لا أزعم أنني أحببته، لكنه على الأقل لم يقل لي إن أمك يسرها بابا نويل في الليل. وهذا أمر يؤخذ في الاعتبار.

- برأيك، ما الذي سيحصل إن ذهبنا إلى منزلكم؟ - سألتني أستر.

- لا أدري - قلت - منذ أكثر من عشر سنوات لم يطأ أحد منزلنا. الجباة فقط.

- لم يقرع أحد الجرس أبدا؟

- كيف لا. ثلاثة على الأقل. هم الوحيدون الذين لم يصلهم النبأ بأن لا فائدة ترجى من قرع الجرس على الفنانة ريبيكا ڤير. مشكلة قاذورات، إن لم يكن لدى المرء سوى العشاق، والمعارف.

- لا تتلفظ بكلام بذيء.

- مشكلة قاذورات فعلا. أشدد على ذلك. في الأسابيع الأولى. قرعت علينا ثلاث نساء يجهلن أمرها. لكن أمي عرفت، بدقة الجراح ما الذي تقول لكل واقفة على الباب لكي تكف إلى الأبد

عن أية زيارة أخرى. أثنت على زوج الأولى، وبعثت بتحياتها إلى عشيق الثانية، واكتفت بأن تشتم حلاق الثالثة. الحقيقة أن الإنسان ليس حيوانا معقدا إلى ذلك الحد. يعرف جيدا كيف ينطق بعبارات مؤثرة. وحده طبيب الحي من دخل حتى الغرفة، وظنت أمي أنني من دعوته، لأغلق عليها في مشفى المجانين. ولكنه جاء من أجل توقيع للفنانة ڤير كان منسيا منذ بضعة أشهر.

- ثم؟

- لا شيء. كانت أمي سعيدة بالزيارة غير المنتظرة، وشكت من أوجاع الظهر مجددا، وأشارت إلى موضع الألم، فاستحقت امتنانا جزيلا من الدكتور. وأرسلتني إلى المتجر من أجل زجاجة حليب وكعك محلى، فيما قدمت اعتذارها على هذه الفوضى في تقديم الطعام، لكن حياة الفنانين هكذا على الدوام. مجرد ركض واستعجال. ثم أثنت على جاكيت التويد التي يرتيدها الدكتور. ومنحته توقيعها على دفتر الوصفات.

- أظن أنه وصف لها كريم ريتشتوفيت.

- أجل. ثم قفلت علي أمي باب المرحاض، وارتدت قفازات جلي الأطباق. وعن طريق كابل المكواة أوصلت التيار الكهربائي إلى قفل باب المدخل، لكي يفطس كل من أريد أنا أن يأتي ليأخذها إلى مشفى المجانين. ومن حسن الحظ كان موصولا على نقطة الصفر.

- شيء رهيب.

- يمكن الاعتياد عليه. حمدا لله، دائما حين تشعل الإنارة، لم تكن تنسى قفازات الجلي. كانت شديدة الحساسية للخطر. ولو

كان التلفزيـون، ومجفـف الشـعر يعمـلان بدعاسـة، لبقيـت جالسـا في المرحـاض إلى اليـوم.

- أنـت مجنـون. كيـف لـك أن تضحـك؟ - سـألت ثـم راحـت تضحك بدورها.

- فقـط حـين أعـرف أن أسـتر فهـير سـتعانقني في الحـال - قلـت، وعندئـذ عانقتنـي.

- أنت مجنون. في المطعم غير مسموح - قالت.

لكنـي سـمعت ضربـات قلبهـا، وتـردد صـدى طرقـات صـمام القلـب في كافـة أرجـاء الوحـدة الصناعيـة للمطاعـم، حيـث لحسـن الحـظ لم تطأهـا قـدم طيلـة فـترة قبـل الظهـر.

- أكـثر! - زعقـت لاهثـة في مأوانـا عنـد الطاولـة الركنيـة في القاعـة ذات الحجـم الإسـطبلي فيـما كانـت إصبعـي تطبـق عـلى فمهـا تجنبـا لتجمهـر العاملـين هنـاك إثـر زعيقهـا. النـدلاء، عامـلات النظافـة وغسـل الأطبـاق، فلـم يعـد لنـا حتـى بمجيئهـم، خـط للرجعـة. كنـت أعـرف ذلـك، وكنـت أعـرف أن كتيبـة شرطـة بكاملهـا لـن تسـتطيع إيقافنـا. حركـة واحـدة أخـرى، وتصـاب باليرقـان كافـة آبـار النفـط الكويتيـة، وجميـع ينابيـع الميـاه الحـارة الأيسـلاندية. وعـلى حـين غـرة، تفتحـت الـورود الاصطناعيـة التـي تعرشـت عـلى الراديتـور، وتموجـت الأرضيـة المشـمعة ذات النمـط الرخامـي، ومعهـا السـقف التكعيبـي، وتعطلـت الإنـارة، ورفرفـت سـتائر النايلـون كأنمـا أوصلـوا التيـار الكهربـائي بكابـل المكـواة الكهربائيـة، إلى مطعـم روز مارينـغ بغـرض التصفيـة. ثـم اهتـزت الجـدران، واهتـزت معهـا الواقعيـة الاشـتراكية بكامـل أسسـها، مـع إبريقـين مـن الجعـة، ومنفضـة سـجائر مليئـة. ثـم هـوت أسـتر عـلى الطاولـة، وكنـت سـأهوي أنـا أيضـا عـلى كتفيهـا.

- هل ترغبان في تناول المزيد؟ - سأل النادل.

فقلت:

- لا أدري، بل طبعا، اجلب لنا اثنين من هذا.

- أكثر - همست أستر، وكانت ما تزال تدفن وجهها بأحد ذراعيها خشية أن تفضح ملامحها كل شيء، وتخدش الحياء العام. وشعرت في أثناء ذلك أنها كانت بيدها الأخرى تحاول أن ترتب تحت الطاولة.

- سنة ونصف قد علقت - قلت حين صرنا وحدنا.

- فقط؟ بالنسبة لي عشر سنوات سجن - قالت وتبسمت ومررت إصبعها الزلقة على شفتي، قبل أن تقبلني، في حين كان يمكنني أن أقول: بالنسبة لي سجن مؤبد إذن.

- لم ترغبين في رؤيتها؟ سألتها وقد صرنا في الشارع.

- لا أدري في الواقع - قالت - تكرهك دون أن تراك.

- أعتقد ذلك. هل حدثتها عني؟

- لا. تعرفك من رائحتك.

- كم أمقت ذاك الذي لا أعرفه إلا من خلال رائحته.

- أنت لست أمي.

- أظنني أحب أن أراها، ليس لشخصها بالذات، بل من باب الفضول فقط. هكذا يتفوق الإنسان على نفسه. الخوف أسوأ.

- لا سبب يدعوك للخوف منها.

- أظنني لا أخاف منها، بل من ابنها. من أنك توصد عليها الباب وكأنها في سجن.

- لنذهب إذن - قلت، وأمسكت يدها، وكنت أدرك أن أمي، بدقة جراح القلب، سوف تجد تلك العبارة التي تستأصل بها

مـن شـغاف القلـب السـتائر النايلونيـة التـي نبضـت بالحيـاة في معظـم روزماوينـغ، وتموجـات السـقف التكعيبـي، ومشـمع الأرضيـة الـذي تبلـل.

اضطربـت معـدتي، لكنـي تركـت أسـتر تبتـاع الزهـور مـن نفـق الشـارع الدائـري. وحـين بلغنـا عتبـة البيـت، اكتفـت أمـي بـأن قاسـت أسـتر بنظراتهـا دون أن يدفعهـا الفضـول لمعرفـة اسـمها.

- لا أطيـق أن تقدمنـي لمومسـاتك. خذهـا إلى فنـدق رخيـص، كالأخريـات - قالـت، وصفقـت البـاب، وعندئـذ لمحـت الدمـوع التـي تمحـو آخـر مسـحات الألـق في عينـي أسـتر. (كالأخريـات)، كلمـة كانـت أشـد إيلامـا مـن أن تبصـق في وجهـي، أو تصفعنـي.

أرض محروثـة محاطـة بأسـلاك شـائكة. بـرج مراقبـة في البعيـد. حفـر مسـتطيلة الأشـكال، مظلمـة الفتحـات، عـلى مـد البـصر. أمـام كل حفـرة لوحـة صغـيرة عليهـا تاريـخ الـزرع. طبيـب بلبـاس رسـمي قـودني، شـارحا لي مـا عـلي فعلـه، قبـل أن أتسـلم نوبتـي. يقـف عنـد إحـدى الحفـر، ويشـير إلى عمقهـا.

- ينبغي أن تولي انتباها خاصا لها. ننتظر منها الكثير - قال.

في الأسفل امرأة عجوز عمياء تلوح بعصا بيضاء.

- استيقظ، عليك الذهاب - قالت أستر.

- لن أذهب.

- بل ستذهب.

- منذ عشر سنوات، كان علي ألا أذهب إلى البيت.

- ممكن. أما الآن فعليك الذهاب.

- أكرهها.

- لا تحاول أن تكرهها بدلا مني - قالت.

- أين كنت يا بني؟
- لا تجرئي أن تسأليني بعد الآن يا أمي.
- لا تجرؤ أنت أن تأتي بعشيقاتك إلي. لا أريد أحدا. أستر، يا أمي! أستر فهير! احفظي هذا الاسم، أكثر من اسمك.
- هذا بيتي. وأدعوها بأي اسم أشاء.
- تخطئين يا أمي!
- مومس! مومس، أفهمت؟ المومس الأخيرة. هذه لا تصلح إلا للترويح عن نفسك.
- أرجوك يا أمي، اسكتي.
- تتواقح وتحشر أنفها هنا. وتأتي بعدها بباقة صغيرة من الورد!
- قلت لك أن تسكتي.
- أعلم أنك تلتقي مع هذه الخرقة منذ أشهر! لا تظن أنني لا أعرف. استركا البلعوصة تريد أن تدمرني.
- لا يمكن تدميرك بعد الآن يا أمي.
- قبل أن تلتصق هذه العلقة بذيلك، لم تكن تجرؤ أن تكلمني على هذا النحو.
- أخطأت يا أمي! أخطأ الكل حين لم يجرؤوا أن يكلموني على هذا النحو. كل حياة المسرح الهنغاري أخطأت. وحده الرفيق فنيو كان استثناء.
- اخرس!
- حتى يوديت لم تجرؤ إلا في رسالة! لم تجرؤ إلا وهي في نهاية العالم أن تقول..
- أطبق فمك!

- سيان، إن أطبقته أم لا. فلا شيء جديد أقوله إلا ويبعث على جنونك.

- انصرف إلى غرفتك.

- من لا يخرج إلى نور الشمس خلال عشر سنوات، هذا معتوه يا أمي. أتفهمين. آن لك أن تموتي، أن تفطسي.

صرخت في وجهها، وصفقت الباب، وتمددت على السرير وأنا أرتعش، مترقبا أن تنفجر شراييني، وأموت بعد أن تلفظت بما لا يجري على لسان إنسان.

وبعد عشر دقائق قرعت بابي. وقفت هناك بعباءتها المرتبة، وشعرها المسرح، وأحمر الشفاه على فمها، وسألتني:

- أين كنت يا بني؟ وكأنها نسيت ما حصل قبل قليل. أجهشت أنا بالبكاء.

- كان لدي شغل يا أمي - قلت.

- طهوت حساء البندورة.

ثم سكبت المرقة المخففة، وأكلنا معا. معا رنت ملعقتانا في الصحن، ومعا اقتطعنا خبزا، ثم معا في نفس اللحظة ابتلعنا لقمتينا. وكنت على يقين أنها لا تمثل الدور، بل لم تكن تتذكر شيئا مما قلته. ولن تتذكر شيئا منه بعد الآن. فكان علينا، إذن، أن نعيش بنظام يختلف عن النظام المتبع حتى الآن.

- أحضر لي غدا شيئا من الفاكهة - قالت.

- حسنا، سأشتري تفاحا.

- بل عنبا. أشتهي العنب.

ذات يوم جمعة حصلت أستر من المكتبة على آلة كاتبة (رمنغتون)، واشترت خمسمئة ورقة من ماركة النورس، وورقا

ناسخا، وبعض أنواع البسكويت، ثم وضعت على الطاولة إبريقين من الشاي المثلج.

- لا أريد أن أراك - قالت، ووضعت الكرسيين على نحو متعاكس، فلا نرى بعضنا.

- على هذا النحو كأنني أقرأ للجدار - قلت.

- طبعا - قالت - ورحت أنا أقرأ قصتي مواجها الجدار الأبيض.

عرفت من نقرات الآلة الكاتبة أين يتغير ترتيب الكلمات، أو تنقص علامة من علامات الترقيم، فشعرت حينها أن هذه العلاقة أو تلك لا مكان لها هناك، وتابعت إملاء قصة (الحالم الأجير) وقصة (الحمولة) وقصة (سارق الكمان)، وما إن بهت لون الجدار وصار رماديا بعد الظهر، حتى تحتم علي أحيانا أن أغمض عيني بعد أن تشابكت السطور أمامهما، واستحالت الكلمات إلى ديدان خيطية متضورة، حين قرأت قصة طب الأطفال، فتملكني عندها اليأس وقد فطنت إلى أنني أستطيع القراءة بعينين مغمضتين كذلك، وأنني أتذكر العبارات التي كتبتها قبل سنوات مثلما أتذوق الآن نكهة البسكويت المغمس بالشاي. فطلبت من أستر أن ندع هذا العمل، فلا معنى له. ليس هنالك ما يثير الشفقة أكثر من أن يربط المرء إنتاجه بالحرية. لم تجب. أخرجت ورقتين ووضعت بينهما ورقة ناسخة، وسمعت صوت أحرف الأوراق وقد نقرتها على الطاولة، ثم ثبتتها بالآلة الكاتبة، وانتظرت. ارتشفت جرعة من الشاي وتابعت قراءة قصة المسرح. وحين أنهيناها، لم تعد أستر تحتمل الاستمرار. لفت منديل جيب حول معصمها، وتيبست أصابعها من الضرب على الآلة. أحضرت كريم النيڤيا من الحمام ودهنت كفيها، ثم كامل ذراعيها. ثم استدارت على بطنها لأصل إلى كتفيها وظهرها.

- إلى الأسفل قليلا. تؤلمني بالضبط الفقرة المفضلة لديك - قالت.

وطوت الوسادة تحت بطنها - ينبغي أن أحصل على كرسي صحي. ما إن يجهز كتابك حتى أصير أنا في المشفى.

- لا أريد كتابا - قلت.

- لا تتفوه بتفاهات. أفضل لك أن تدهن كل مكان - قالت، ورحت أدهن كل أنحاء جسدها، بدءا من عنقها، مرورا بردفيها حتى أصابع قدميها، لكني حاذرت ألا أمس شيئا من حوضها.

- كل مكان - قالت من تحت شعرها المنفرش، لكني مازلت لا أصل إلا بأنفاسي، لأني حتى الآن أردت أن أستمتع بمجرد شعوري بالرغبة. تلمست هي علبة الكريم، ودهنت - هنا أيضا - همست.

- يا إلهي، أشعر بألم - أنت. كان بودي حقا أن أتراجع لأن أحدا في زاوية بعيدة من دماغي ردعني.

استلقت على الفراش ضاغطة حضنها بالوسادة، أشبه بالمغمى عليها، وكادت الدموع تجف على وجهها. انعكست الشمس من نافذة المنزل المجاور، فأضفت على الغرفة لونها الأحمر، لكنها أظلمت بمرور غيمة، أو بانفتاح النافذة من قبل أحدهم هناك.

استلقيت على ظهري مسندا رقبتي على وركها، ورحت أراقب بقع الماء ذات اللون البيج على السقف.

- كنت معها أليس كذلك؟ - سألتني، ومرت لحظات دون أن أفهم عما تتحدث. ثم كذبت عليها قائلا لا.

وكان عليها في ذلك الوقت أن تصرخ في وجهي: أنت كاذب. أجل، في تلك الأثناء كان علي لو أنني أقول: حين ركضت كليوباترا في زي راقصة من الدرجة الثالثة، وعبرت شوارع المدينة، ومسح عنها أنطونيو الأوساخ والعرق الممزوج بعطر اللوز، عندها لم

تسارع الفنانة ڤير الملفوظة إلى دخول الحمام إلا متأخرة بعض الشيء. متأخرة بخطوات قليلة بمقدار ما يناسب تراجيكوميديا من النموذج التشيكوسلوڤاكي، لكن هذه الخطوات القليلة كانت كافية جدا لنظل بعدها لأسابيع، لا نستطيع النظر في عيون بعضنا، ولا ترغب هي في صباح اليوم التالي خلال الفطور أن تسرد أول دور ثانوي لها في حياتها، بل حملت كأس الشاي بالنعناع إلى غرفتها لتكرعها وراء باب موصد. في الواقع، يا أمي، إننا، ونحن في أسوأ أيامنا وأقلها إنسانية، قد تصرفنا بأفضل ما يكون من الإنسانية، حين، لمجرد تلامسنا، قد جف الخبز، وصار الماء ينسكب عكرا من الصنابير. حتى وصلتنا أخيرا رسالة من يوديت، فنجحنا على نحو ما في العثور على عبارات عنت لنا أمانا:

في نهاية المطاف، الميترو بوليتان ليس مكانا رديئا. لكن المرعب أنك، يا بني، مازلت لا تجيد القراءة بسلاسة. ليس غريبا أنك رسبت في امتحان الثانوية.

رسبوني في مادة الجبر يا أمي.

لكن كان بوسعك أن تتقدم للامتحان التكميلي.

العام القادم سأتقدم يا أمي - لكن لم يكن هناك من سبب يجعلني أتقدم. لا حاجة لشهادة الثانوية في منزل ترقى إلى مدفن لشخصين. أجل يا أمي، ما كان عليك في الواقع أن تدفني يوديت مرة أخرى، في موقع آخر. واقع الحال أنك قد أشرت إلى موقع سلسلتي الأمان، حين قدت يد أنطونيو من فوق بطنك إلى داخل كليوباترا.

- لا تسأل. كل ما أرجوه منك ألا تسأل - قالت أستر، وأنا في السنوات الأخيرة كنت قد تعلمت جيدا، ألا أتوجه بأي سؤال إلى

جانب يوديت. قطعنا مسافة كيلومترات سائرين على أقدامنا، من أحد أرصفة (بست) حتى إحدى إطلالات (بودا) دون أن أطرح أي سؤال. وسرحت أراقب ليلا من النافذة السيارات ذات الأرقام الأجنبية، ولم أسأل شيئا في الصباح. وجلبت لها من صندوق البريد رسائل بلا مرسل، وبلا طوابع، ولم أسأل شيئا. مرة وحيدة لا غير، قبل مهرجان بلغراد، سألتها لم تبكين؟ في الليل تمرنت في المسرح لأن صوتيات قاعتها أفضل من الصوتيات في قاعات الأكاديمية الموسيقية. بعد التصفيق الحار، التغير هدم روما. فيما بعد ذهبت إلى البيت، وبقينا هناك وحدنا نحن الاثنان. هي على خشبة المسرح، على ضوء مصباح باهت، وأنا في الصالة، وإلى جانبي صندوق كمان قديم حفظت فيه خاصياتي: حاملة السوط، موسى ذا الرجلين اليسريين، أما في موقع (لا تقتل) الذي بقي خاليا، فقد ثقبت الورقة لكثرة ما كتبت هناك (لكن) ومحتها، ومع مرور الوقت أصبحت الورقة لا تحتمل هذا التقلب.

في الثالثة عشرة من عمرها كان عليها أن تمحو للمرة الأولى، حين اصطحبتها أمي إلى المعاينة الطبية الروتينية، وبعدها بقيت في البيت مدة أسبوع لا تذهب إلى المدرسة بسبب عملية استئصال اللوزتين. لاحقا محت علبتي منوم (أونكتين) ثم تقأيتهما من شدة خوفها. محت ثلاث سنوات من الهدوء، ثم راقصة باليه رملية. محت الفنان (ريتي) مع عائلته، ومحت باحثا في أمراض السرطان، وأحد أساتذة الثانوية، وطيارا مع طائرته المتفجرة أثناء قيامه بالتدريبات. ثم محت من جديد الفنان (ريتي)، لكن ليس مع عائلته هذه المرة، بل مع أمنا نحن، ومنذ تلك اللحظة كان عليها أن تمحو أمنا أربع مرات

تماما، وكانتا قد أصبحتا تتخاطبان كلاهما بضمير أنت، حين لا أسمعهما، وحين قالت الفنانة (ڤير) لابنتها إنها تحب ثلاثيا، عندها تمزقت الورقة، وانقضت النحاتة على يوديت فكان عليها أن تمحو بورتريه ريبيكا الناجز، عند رقاقة الكمان الخشبية، على الرغم من أن أمي كانت تشمئز دوما من النساء، لكنها استجمعت قواها هذه المرة، واستسلمت تماما. استسلمت لولع الرغبة (ولع المغامرة) - وبعد غسيل المعدة أدخلت قصائد سافو[20] لابنتها في المشفى - قصيدة المغزل لا يفتل يا أمي - وكنت أنا ما أزال أظن أننا خلال مهرجان (سوبرون) الموسيقي الذي استمر ثلاثة أيام، كأننا لا نعيش تحت سقف واحد. إلى أن وصلت إلى يدي رسالة يوديت، فأدركت عندها بدقة ما الذي عنته عبارة يوديت: إياك أن تجرؤ بعد الآن أن تشبهني بأمي.

قبل رحلة بلغراد كنت أفكر أن من الأفضل ألا أسألها شيئا، فلا تضطر إلى الكذب علي على الأقل. ثم اتخذت مكاني في الصف الثالث وشاهدتها كيف تقف على المسرح تحت ضوء المصباح الباهت، وأصغيت لها وهي تعزف كونشرتو الموموس لباغانيني، ثم كيف انهمرت دموعها فياضة.

- ستفوزين بالتأكيد - قلت.
- أعلم - قالت.
- ومع ذلك تخافين - قلت.
- جدا.
- ستعودين، أليس كذلك؟

(20) سافو: الشاعرة اليونانية القديمة المعروفة. [المترجم].

- اخرس - قالت، ووقفت على المسرح وحيدة وكأنه لم يخلق عالم حولها.

- أرجوك لا تسأل - قالت أستر، حين سألتها لم ترتعدين من الأطباء إلى كل هذا الحد؟ وكنت قد وضعت في جيبي الإحالة الطبية لاختبار النسج، قبل أن تقوم النادلة برميها، وقررت أن أنتظر. كان مفتاح الشقة قد صار في حوزتي منذ نصف عام تقريبا، لكنني عمليا لم أكن أعرف سوى أن العاملة لدى فرع الحي السادس لمكتبة أرفين سابو، لم يحدث معها ما يستحق الذكر، حتى قلت لها على جسر سابد شاع: هيا بنا.

في بادئ الأمر، كنت على يقين أن بوسعي أن أظل صامتا أصغي إلى السكون سنوات بطولها إن دعت الضرورة لذلك، لكن الخوف ملأ صدري، ثم اضطربت مخيلتي، شيئا فشيئا. من شغلت كل حياتها بالعمل في مكتبة الحي، لا تتقن ممارسة الحب بمثل هذا الشبق، فكرت. وخلال دقائق قليلة طفت بمخيلتي بدءا من الأب محب الأطفال، حتى الصخب الليلي في مقهى آنا، حيث تحتسي نساء الليل الكونياك مع الضيوف الميسورين. هذا أول ما يعرف المخ القذر أن يتصوره إذا ما خالجته الظنون، وكأنه ما من سبب آخر يجعل امرأة تركن إلى الصمت، سوى ماضيها. حين عرفت قبل ظهيرة أحد الأيام، أنها الآن في العمل، صعدت إلى الشقة، وأغلقت الستائر، وبدأت التفتيش. درجي على الأقل محشو بالخرائط المرسومة على قصاصات، والقلائد المقطوعة، فكرت، ورحت أشاهد الفواتير. في درجي على الأقل تجمعت رسائل أمي المعنونة إلى فنادق لا وجود لها، فكرت. وأنا لا أفتحها، فكرت. أجل، آلمني رأسي وبحثت عن دواء، فكرت. لم أجد سوى كواريلين. فكرت.

لكنـي لم أحـاول التفتيـش عـلى الإطـلاق، فكـرت. ولـن أسـأل أحـدا عـن أي شيء بعـد الآن، فكـرت. لم يكـن تفتيـشي مجديـا، فلـم أجـد سـوى بعـض مطبوعـات برامـج السـينما، والتقريـر النهـائي للمشـفى الـذي سـبق أن علمـت بـه، ثـم قلبـت كل الكتـب، والألبومـات، فلـم أعـثر حتـى عـلى زهـرة. فانعطفـت أفتـش خزانـة الملابـس رفـا رفـا: السراويـل الداخليـة، المناشـف، الجـوارب، قمصـان النـوم. ورحـت أشـاهد مـاركات الملابـس الصيفيـة، وأيـن أنتجـت، وفتشـت الحقائـب الثـلاث، وجيـوب المعطـف الشـتائي الوحيـد، ومـع اشـتداد غيظـي أفرغـت صناديـق خزانـة الجـدار في البهـو. كان في أحدهـا صبـغ أحذيـة وفرشـاة، وفي آخـر أدويـة، ووجـدت في صنـدوق خشـبي ثالـث بعـض العـدد: مطرقـة، كماشـة، مصباحـا، لكنـي لم أجـد في أي مـكان أيـة مـادة تشـير إلى أيـة واقعـة حصلـت معهـا عـبر ثلاثـين سـنة فائتـة، وكيـف سـارت حياتهـا قبـل أن ألتقيهـا عـلى الجـسر وأقـول لهـا: هيـا بنـا.

ثـم سـمعت اصطفـاق أحـد الأبـواب، فعـدت مسرعـا إلى الغرفـة، واسـتلقيت عـلى الفـراش، متظاهـرا بالنـوم. فيـما بعـد سـأقول لهـا إن أمـي، أجـل أمـي، عـوت طـوال الليـل، وإننـي أنـام هنـا منـذ الصبـاح، لأننـي مـا عـدت أسـتطيع النـوم في البيـت، هـذا مـا فكـرت أن أقولـه لهـا. ولكـن تبـين بعدئـذ أنـه كان بـاب أحـد الجـيران، لأن أسـتر لا تـأتي إلا عنـد السـاعة الثانيـة. أملـك إذن سـاعة أخـرى مـن الوقـت. عكفـت عـلى تفتيـش الحـمام، رغـم أني كنـت أعرفـه كحـمام بيتنـا، فتشـت حتى العلبـة التـي تحـوي معجـون الأسـنان، والفرشـاة، فتشـت كل شيء، دون أن أعـرف مـا أبحـث عنـه أساسـا، ودون أن أملـك مـا يسـعني أن أفعلـه فيـما لـو عـثرت حقـا عـلى شيء. وعـلى افـتراض أننـي وجـدت شـيئا، فـما الـذي سـيبدل في كونهـا متشـبثة بي أشـد التشـبث، وفي أن نقـرات

الآلة الكاتبة تدوم حتى الفجر، وفي حقيقة أنني قد أمسكت بقبضة باب غرفة العمليات، لأقتحمها وأجعلهم يدعونها وشأنها لأنني أعرف تماما أنها ترتعد، وأمنعهم من الوصول بقفازاتهم إلى رحمها، ليقتطعوا منه أي شيء بحسن أو سوء نية، لا فرق، فكرت.. لكن خطر لي أنني لم أفتش إحدى حقائبها ذلك التفتيش الدقيق، فرجعت إلى الغرفة الصغيرة، وأفرغت الحقيبة السوداء، وفيما كنت أنثر المناديل الورقية المجعدة، وبطاقات الباص، شعرت أن شيئا حارقا يلهب حنجرتي، وكدت أختنق من شدة خجلي.

- أتيت من أجلها - قالت، وتناولت مخطوطة كتابي عن الطاولة

- حين تنتهي أغلق الحقيبة.

أوصدت الباب، ورميت بالمفتاح في صندوق البريد، وكنت على يقين أنني لن أجرؤ بعد الآن على المثول أمامها. لكنني بمرور ثلاثة أيام، لم أحتمل الأمر. انتظرتها مساء أمام المكتبة. وبدلا من الزهور، كان في جيبي زوج من القفازات الجلدية الموسومين بالحرفين أ. ف. الذي لم يكن بشكل استثنائي من لوازم المسرح، ولكن مع ثلاث ملاعق فضية ومشهد رومانسي وبعض الصور الفوتوغرافية الباهتة بقيت من المجر العظمى لأسرة فير، إلى جانب الكمان. لم يكن لدي أي فكرة عمن يمكن أن يكون أ. ف. لم أكن أدري إذن ماذا يعني هذان الحرفان: أ. ف. كل ما عرفته أنني أبيع بلاد المجر العظمى مقابل أن أحظى بعفو من أستر ڤير. حين خرجت من الباب، استدرت لأمضي في طريقي، ليس بدافع من حنق أو شفقة، بل بكل ما هنالك من اللامبالاة. أقسى ما هنالك من اللامبالاة التي لا ترحم، التي لا يجدي معها البيض المقلي المحروق حتى التفحم ولا يدي القابضة على مقبض غرفة العمليات. كنت قد

بلغت الشارع الدائري حين قبضت على ذراعي وجذبتني كدمية لأستدير نحوها.

- هذا ما نسيته هناك - قالت وضغطت المفتاح في كفي، وتركتني وسط الشارع أتابعها بنظراتي وهي تعبر شارة الشارع الحمراء مسرعة حتى تلحق بالترام الذي وصل للتو.

للمرة الأولى منذ هجرة شقيقتي يوديت، وقفت عند ناصية شارعي الجمهورية، والشارع الدائري، وبكيت، وبيدي المفتاح الذي بالمقارنة به يعد مفتاح بيتر زيف لا قيمة له، مفتاح قبو عديم الجدوى.

- لن ترى شيئا في دروجي. لا شيء، أتفهم؟

- أفهم، لكنني...

- واحد مثلك هو ما تظنه في. أنا أمقت الكذب، فلا تدفعني لأكذب. أبي لم يغتصبني، ولم أكن عاهرة، وليس لدي عشاق. أظنك هذا ما تفتش عنه.

- أردت فقط أن أعرف...

- أنا تماما كما تعرفني، وأنا موجودة منذ أن عرفتك - قالت، ثم لبست قفازيها الجلديين الموسومين بالحرفين أ. ف، وراحت تزرر قميصي.

باعتمادها على أوراق من الأرشيف، حاولت تجميع شجرة عائلة ڤير، لأتمكن حتى عيد الميلاد، أن أقدم لأمي ما يبهجها، بغض النظر عن أن الروح المعتوهة لا يمنحها أي شيء تلك البهجة الحقيقية. فضلا عن أن يوديت، منذ مدة طويلة، كانت تعرف ما يرضي أمنا.

- أعطها رسومك - قالت، لأني أحيانا، كنت أرسم صورا بمقياس ورق الرسائل وألونها بما يقع بين يدي، حتى بأحمر شفاه،

أو كريم أظافر أمي. وكنت أحيانا أكثر من الطلاء فوق الورقة حتى بدت اللوحة نافرة. طبعا لم أقصد ذلك، ولكن بما أنني لم أكن أتقن الرسم، فقد كنت أعيد التلوين مرة بعد أخرى، حتى يتكدس الطلاء وتبدو اللوحة كما تصورتها، فأعمد على تثبيتها بمثبت الشعر. أحب الصور أيضا، لكن العناوين كانت أكثر أهمية عندي: حيوان الشعار الهارب، معالج التجربة الشاب، ما لزومي أنا؟ الرجل الذي يحمل حيوانه.

- فيما بعد ستشتري لنفسها العطر. أعطها رسومك.

- قد أفسد عيد الميلاد.

- أنت مخطئ. إنها تعبدها.

- لا يكفي أن تنال الرسوم إعجابك. هذا أمر آخر تماما.

- مم تخاف؟

- لا أخاف. لكنها لمن تبتهج؟

- حان الوقت كي تفهم أمك. افعل من أجلي - قالت، وتناولت ألبوما، وقمنا معا بإبقاء الرسوم، وكان عنوانها: المسوخ، فلأنه حسب رأيها عنوان مناسب.

وكأن الغابة جاءت تتفرج على المدينة، انتصبت شجرات الميلاد في ساحة كالفين فوق الوحل. راح البائع يطلق الشتائم لأن أحدا لا يشتريها في وقت مبكر، فعليه أن يعود إلى البيت في (بيتشكا). انبرت امرأة عجوز قائلة: لأنها اليوم أرخص ثمنا. كان بوسعك أمس أن تبيع المتر بمئة فورنت، لتكون هذا اليوم في غنى عن قذف شتائمك، كالسائقين، عذرا أيها الشاب. لو أنك تعرف أنه في عام أربعة وأربعين، حين أمضينا عيد الميلاد في الملاجئ، ما طلب أحد لقاء شجرة صنوبر ما يعادل ثمن ثلاثة أكياس من البطاطا،

بـل قـال الفتـى فريتـسي: في العـام القـادم، إن بقينـا أحيـاء، فسـأخفض أكـثر في السـعر. فـرد البائـع قائـلا للعجـوز: لأنـه كان مخبـولا. انـصرفي إلى البيـت مـن فضلـك. ثـم وضـع الشـجرة التـي انتقيتهـا عـلى الميـزان.

- مئتان وسبعون - قال.

- متران ونصف - قلت.

- زائد ثمن شريط الربط.

- لا تربطها إذن - قلت.

وحـين وصلـت إلى البيـت كانـت إبـر الصنوبـر تـكاد تغطينـي. طلبـت مـن شـقيقتي يوديـت وهـي تنـزع الإبـر عـن شـعري أن تجـد حـلا حتـى المسـاء لأن أمـي سـتعتريها نوبـة مـن الغضـب إذا مـا شـاهدت رسـومي. لا أريـد لأمـي في هـذه الأمسـية القدسـية، وبسـبب مـن تلفيقـات مخيلتـي القـذرة، أن ترتـدي معطفهـا وتخـرج مـن البيـت، لكـن يوديـت قالـت لي:

- أنت فعلا لا تعرف أمنا.

ثـم أمسـكت بالبلطـة الصغـيرة وقمـت بنحـت جـذع الصنوبـرة بمـا يناسـب فتحـة حمالتهـا. وحـين أشـعلنا الشـموع، وتناولـت أمـي هديتي لهـا، دهمنـي شـعور بالإقيـاء كمـن أكل لحومـا فاسـدة، وتمنيـت أن أقـوم بقلـب شـجرة الميـلاد، وأخفـي رسـومي، وأبصـق في وجـه أمـي.

- لوحـات سـاحرة. وهـذه العناويـن مذهلـة، يـا بنـي. فيـما بعـد سـأتدبر أمـر قبولـك في معهـد الفـن التشـكيلي - قالـت.

لكنـي، بـدلا مـن أن أهـدئ مـن روعـي، وأعـود إلى طبيعتـي، شـعرت فجـأة بـأن عـلي أن أخنقهـا بيـدي، وأقـوم بتجعيـد لوحـاتي، ودسـها واحـدة واحـدة في حلقهـا، مـع أقـلام الرصـاص، وأقـلام التلويـن، وعبـوات الطـلاء، وأن أرش دواة الحـبر في وجههـا، وأدفـع بعبـوة مثبـت

الشعر عبر فمها لتصل إلى قلبها. ارتعشت الشوكة بيدي، وأنا آكل السمك.

- سرني، أنها أعجبتك يا أمي - قلت، فعلقت حسكة في بلعومي، سارعت إلى الحمام محاولا أن أتقيأ. تبعتني يوديت، ودقت على ظهري، وحين أفلحت بقذف اللقمة من فمي، نظرت في عيني راضية.

- كنت محقة، أليس كذلك؟ - قالت.

عانينا الكثير من أجل الحفلة الموسيقية لعازف الكمان الصيني المبدع الذي أتحفنا بتقنياته الشرقية، وحضوره الآسر كل من أصغى إليه في المناطق الممتدة من خط العرض ثلاثين، حتى أربعين، والذي أدمع كل عين من بكين إلى باريس (أسوق هنا بدقة شديدة محتوى منشورات الدعاية، وما ذكرته أخبار التلفزيون الثقافية). وللحق، كان مثار دهشة الأكاديمية الموسيقية كلها، وشعورها بالحياء. ومن ضمن ما رأيته، ولمسته من تأثيرات العازف أيضا، أنه أبكى حتى النساء اللواتي بلغن سن اليأس، اللواتي لا يروي عشرة آلاف ناي ظمأ أرواحهن، وأنه لم يكتف بالعزف على أربعة أوتار، فعمد بخبث إلى قطع أحدها. لأن الأوتار الثلاثة أكثر من الأربعة لبلوغ مصافحة الشيطان. هنا صفقت النساء. وحين كان عليه أن يبدل القوس، وانتظر ردة الفعل، وانهمر التصفيق، كان بودي أن أخرج، لكني اعتدت ألا أنهض واقفا في حفلات الموسيقى، والمسرح. ولكي أكون أكثر دقة، فقط في حفلات الموسيقى، لأنني لم أحضر مسرحية منذ ما يزيد على عشر سنوات، حتى إن أحدهم علق قائلا بأنه سلوك ينم عن غرور، فأجبته أجل، ولدي أسبابي. عودا على بدء، أنا وأستر عانينا كثيرا من الحفلة الصينية ومن الوقوف

بالـدور مـن أجـل تسـليم المعاطـف قبـل الدخـول. وبعـد خروجنـا مـن الحفـل في تلـك الأمسـية مـن شـهر ديسـمبر، سرنـا في الشـوارع الموحلـة قاصديـن شـارع الجمهوريـة بحثـا عـن مـكان ذي وجـه إنسـاني يقـدم البـيرة. وحـين وجدنـا أنفسـنا نسـير في شـارع أنـدراشي حثثنـا الخطـى، خوفـا عـلى أنفسـنا، فـما دام السـوفييت لم ينتهـوا مـن لم الأرضيـات في الثكنـات، ولم ينتهـوا مـن حشـو صحـون الألغـام بفلفـل منطقـة سـغد، ومـن تزويـد التلاميـذ بالذخـيرة، فـكل شيء وارد.

- يوديــت في ســن العــاشرة كانــت تعــرف الكثــير في الموســيقى - قلــت.

- أعرف - قالت أستر.

- من أين لك هذه المعرفة، وأنت لم تسمعيها قط؟

- من كونها شقيقتك الكبرى.

- هذه محاباة منك.

- أجل.

- وإلى أي حد؟ - سألتها.

- إلى حد كبير.

- وغدا أيضا؟

- لك أن تأمل، لكن فقط إن أحصل على هدية.

- لـن تحصـلي. مؤكـد لـن تحصـلي. عـلى فكـرة، صـار البـدر محجوبا. السـماء غائمـة لـكي لا تفطنـي له.

- لا أريده بدرا.

- لماذا؟

- لأنه ينفد.

- دعي ذلك علي.

- ومـع ذلـك لا أريـده. يشـغل كامـل الغرفـة، ونحـن يمكننـا أن ننتقـل إلى الغرفـة الصغـيرة. أنـا يناسـبني مـا تسـع لـه الغرفـة الصغـيرة.

- لا تحلمي بمثل هذا. لا شيء تتسع له الغرفة الصغيرة.

- بل هنالك ما تتسع له.

- اذكري واحدا.

- طفل. رضيع.

أشـعلت سـيجارة، ثـم رحـت أعبـث بعلبـة الكبريـت كي لا أضطـر إلى النظـر بعينيهـا.

- من غير اللائق التكلم مسبقا عن هدية - قلت.

- أريد طفلا منك.

- تعلمين أنه غير ممكن في هذه الفترة.

- كيف لا. لا أعاني خطبا صحيا منذ مدة.

- رأي الطبيب أن ننتظر.

- مضى ما يقارب السنتين على كلامه هذا.

- صحيح. لكن مدة سنتين ليست بالزمن الطويل.

- لم لا تقول إنك تخشى من الطفل.

- ليس صحيحا.

- إذن؟

- بل أخشى عليك. لا أحب أن أراك في المشفى.

- دع علبة الثقاب.

- وأنت لا تخشين شيئا أكثر من خشيتك المشفى.

- بل هنالك ما أخشاه. الآن مثلا، منك.

- حقـا. ولكنـي لم أقـل سـوى أننـي أخـشى عليـك. مجـرد اختبـار روتينـي جعلـك لأيـام شـاحبة كالجـدار.

- تشبيهاتك أفضل في العادة.
- لم أنت متهكمة الآن؟ أين المشكلة إذا كنت أخشى عليك؟
- لم أكـن متهكمـة في يـوم. كل مـا قلتـه أن لـك في العـادة تشـبيهات أفضـل من (شـاحبة كالجـدار).
- لم نكلم بعضا بمثل ما نفعل الآن - قلت.
- لأنك لم تكذب علي من قبل.

لزمت الصمت.

- لا تغضب! - قالت - ألن تطلب لي البيرة أيضا؟
- أجل. لكن لنكف عن المشاجرة. هذا رهيب.
- ما أشد شوقي لطفل.
- أنا لا - قلت.
- أنت الآن صادق على الأقل. هل هناك صعوبة؟
- أجل.
- ليس من الضروري أن يتغير أي شيء. بل لن يتغير أي شيء.
- أمر غير وارد. كل شيء سوف يتغير.
- رغبتي في الطفل. لا أطلب منك أن تنتقل إلى منزلي.
- أعلم.
- مم ترتعد إذن؟
- لا أريد مزيدا من نسل (ڤيير) - قلت.
- هـذه حماقـة. لـن يكـون مـن نسـل ڤيـير فقـط. أنـت نفسـك لسـت ڤيـير نقيـا. - قالـت، وتجمـد الدخـان في رئتـي.
- انسي المسألة. لا أريد مزيدا من ڤيير، وكفى!
- فهمت. لا تصرخ.
- لـن تفهمـي! لا أريـد أبـدا، مـن أي امـرأة كانـت. لا نقيـا، ولا عكـرا.. أتفهمـين؟

- أجل فهمت - قالت بخفوت.

وفي اليوم التالي حظيت بالبدر، وسرت به. فتشنا عما يسميه المجريون بالفوهات البركانية، وأين هبطت المركبة أبولو، وأين كانت نقطة سكينتها. ثم تدحرجت كرة القمر على بطنها، ولاحقا على فخذيها المطبقين، وعرجت على الثياب الملقاة على السجادة، والقدحين، وطبق الجاتو، وأبعدت من طريقها حبة من اليوسفي، وتملصت من أمام رقعة الشطرنج ذات المئتي عام، والتي حصلت عليها بدلا من البيبي، ثم تدحرجت بين الأوراق المجعدة ذات الحفيف، إلى أسفل النجوم الشمعية المعلقة على شجرة الميلاد. لكننا لم نصل، لا أنا ولا هي، إلى حالة انعدام الوزن. امتلأ قاع (بحر مار ترانكيليتاتيس)[21] بعرق الأرض، ثم صمتنا.

- علي أن أذهب - قلت.

- اذهب إذن - قالت، وقبلت عيني، وكان وجهها أبيض كالجدار، رغم أني أحيانا أمتلك تشبيهات أفضل من ذلك.

ثم تهاديت إلى المنزل عبر أوحال الليلة الديسمبرية. كانت الغرف الشعبية على أضواء الشموع، أو أضواء شجرة الميلاد، وفي أماكن أخرى أضيئت الشموع وشاشات التلفزيون، ولم ينتهك حظر التجول إلا عازف غجري، وامرأة عجوز مع كلبها.

أين كنت يا بني؟

كان لدي شغل يا أمي.

في مثل هذا الوقت يلتزم الجميع بالجلوس مع أسرهم في البيت. هذه هي العادة.

---

(21) أو بحر الهدوء، ربما تكون أكثر السمات شهرة على سطح القمر، لأنه كان موقع الهبوط لأبولو 11، عندما أصبح نيل أرمسترونغ وباز ألدرين أول رجلين يحطان على سطح القمر. [المترجم].

أعلم، لذلك أسرعت في العودة يا أمي - ثم قمت بتزيين شجرة الميلاد المثبتة في الأصيص، بالكريات الزجاجية الثلاث، وأقراص سكرية جافة؛ مثلما أحضرها الفتى فريتسي في عام أربعة وأربعين.

جاءتك رسالة من يوديت يا أمي. أرسلتها باليد مع أحد معارفي.

ولكنها لم ترسل من قبل أية رسالة باليد، يا بني.

هذا ما حصل. التقت به في نيزا.

من هذا، يا بني؟

قلت: لا تعرفينه، يا أمي، ثم أخرجت خريطة العالم، وقلم ألوان فلوماستر، وبينما كانت تبحث عن موقع نيزا لتشير عليه بحرف إكس، قمت أنا بإشعال الشموع، وأحضرت شجرة عائلة ڤير التي رسمتها وفقا للمعلومات التي جاءتني بها أستر من الأرشيف، وكنا قد اتفقنا أن هدية كهذه، هي أفضل ما تسعد له الروح المجنونة. لكن سرعان ما أربد وجه أمي، وعندها أدركت أن الحقيقة جحيم المجانين. لن تغفر لي أبدا أننا لسنا سوى فروع ثانوية في شجرة العائلة، وأننا من أبناء العمومة من الدرجة السادسة في بلاد المجر العظمى.

حتى عيد الميلاد ليس مقدسا بالنسبة لك؟ لن أدع نفسي للنهب، ضع ذلك في حسبانك! أعلم أنك وعشيقتك أردتما أن تجرداني من كل شيء، وتنهباني. تقدم لي هذه التفاهة - صرخت، وقذفت بلوحة شجرة العائلة في وجهي، كحفنة من البراز. للحق، لم أشعر بأي شيء. كل ما فعلته أنني أحضرت المكنسة الصغيرة، واللقاطة لأزيل نثرات الزجاج العالقة على جبيني، وأخلد بعدها إلى النوم.

لن تفلحا في ذلك - قالت.

لا أحد ينوي أن ينهبك، يا أمي.

ضباع! لا تأمل أن أسمح بذلك!

لا آمل يا أمي.

سأشكوك للسلطات.

اكتبيها، وسأضعها في البريد، يا أمي.

لن أكتب شيئا. سأشكوك للأمين العام للحزب (يانوش كادار) بذات نفسه، وهو من سيتدبر أمري معك.

لكن (كادار) مات يا أمي.

حقا؟! سنرى ماذا نفعل - قالت، وبدأت تقذف ثيابها من الخزانة حتى عثرت على طقمها الحريري الأسود. ارتدته، فشبكت خيوطه الشفافة جسدها كما تشبك العنكبوت حشرة الخنفساء، لكن على نحو لا يجعل الركاب يطالبون السائق ألا يسبق الباص رقم سبعة كليوباترا، ولا يجعل الأمهات الخارجات من متجر (أوتورو) يحجبن عيون أولادهن، ويجعل الزوجات الممثلات يضغطن وجوه أزواجهن على نافذة الفرن، لكي يشاهدوا حتى في أحلامهم كيف تتفحم عشيقتهم ذات الطقم الحريري الأسود.

ماذا تفعلين يا أمي؟

قرفتني، أليس كذلك؟ أما أنا فسأرميك في السجن. سأسجنك أنت وعشيقتك هذه بقضية تلفيق وثائق - قالت، وانتزعت اللوحة من إطارها، ودستها في جيبها، كيلا أقوم بإخفاء الدليل. وحين ارتدت المعطف الفارسي، ارتعشت لقاطة الكناسة بيدي، وشعرت أنني في اللحظة التالية سوف أقوم بخنقها، وأقحم في حنجرتها ثلاث عشرة سنة، مع شجرة عائلة ڤير، وكسرات الزجاج.

أبـدا! أبـدا، أيهـا المومـس! صرخـت، وأمسـكت بذراعهـا، وألقيتهـا عـلى السريـر.

- أبـدا، أتفهمـين؟! قلـت لاهثـا، وبينـما كنـت أخلـع عنهـا المعطـف، كانـت تقهقـه في وجهـي.

كبيضـة محطمـة ازدرد جنينهـا وحـش، هكـذا انتـشر نثـار الكـرة القمريـة المحطمـة فـوق الفـراش. وقفـت وسـط الغرفـة الفارغـة لا أدري مـاذا أفعـل، وعندهـا أدركـت ذاهـلا، لم طلبـت طفـلا لا قمـرا بـدرا.

اتصلـت بالمستشـفيات واحـدة واحـدة، حتـى عرفـت أنهـا في مشـفى (كـوت ڤلجـي). وحـين وصلـت قالـت لي الممرضـة إنهـا نقلـت مـن قسـم النسـائية إلى قسـم الأمـراض العقليـة - العصبيـة، ولا يمكـن زيارتهـا إلا في الغـد.

- زوجتـي! - صرخـت في وجـه الممرضـة في الممـشى - سـأطردك إن لم تسـمحي لي بالدخـول! أنـا كاتـب، وأسـتطيع أن أفصلـك مـن العمـل، أيتهـا الحمقـاء!

كانـت مسـتلقية في الغرفـة رقـم أربعـة عـشر، بجانـب النافـذة ذات الشـباك، وقـد كبلـت أطرافهـا. نظـرت إلي كأنمـا تنظـر إلى زجـاج عاتـم.

تعلمـت مـن أمـي أن أمـورا كثـيرة يمكـن تدبرهـا بالكونيـاك والتبـغ مـن الماركات الشـهيرة، فأفلحـت في نقلهـا إلى غرفـة خاليـة، وتحريرهـا مـن الحبـال، لكنهـا لم تقـو عـلى الحـراك مـدة ثلاثـة أيـام.

- اثنـان - هـذا مـا اسـتطعت أن أقـرأ، عـلى شـفتيها، ولكنهـا لم تكـن تتوجـه إلي بمـا قالتـه إلى أن اسـتفاقت عـلى نحـو مـا، بعدمـا كانـت نائمـة بتأثـير المهدئـات. وفي اليـوم الأول مـن السـنة الجديـدة أزالـوا عنهـا حقـن السـيروم، وصرنـا نتمـشى في الغرفـة.

- اجلسي - قلت، لأن رجليها ارتعشتا!

- ليس الآن، هذا حسن - قالت.

دورة أخرى، خمس خطوات حتى الباب، خمس خطوات حتى النافذة، ثم حضنتها، وأعدتها لتستلقي على السرير.

- لا تدعهم يصدموك - قالت.

- وكيف أسمح لهم - قلت.

أزالت بإصبعها قشرة دهان عن الحائط. اجتزأت منها كسرة، ووضعتها في فمها، ثم بصقتها.

- نسيت - قالت - تعلم أنني نسيت، لا أكثر.

- وماذا نسيت؟ - سألتها.

- الدواء. نسيت أن أتناول الدواء - قالت، ثم راحت تبكي.

وقفنا بمعاطفنا الشتوية الطويلة في منطقة مستنقعية على شاطئ الدانوب. سبح قارب على متنه طفل في حوالي السابعة أو الثامنة من العمر، وكان معصوب العينين، بمعطف شتوي طويل هو الآخر. حين اقترب منا، أزال الصبي المنديل الأسود عن عينيه، وأخذ يقيسنا. لم ينم محياه عن ملامح احتقار أو تقدير، بل نظر لمجرد النظر، ثم عصب عينيه ثانية، ومضى بقاربه حتى غاب في الضباب، وقد أدهشني أنه الوحيد الذي يجدف في مثل هذا الوقت، وأن النهر قد توقف أمامنا منذ فترة.

كثيرا ما كان أن أروي لها ما أراه في أحلامي، وهي مستلقية إلى جانبي. فإذا ما رآنا أحد ظن أننا في منتهى الرومانسية، إلا أن الحالة أبعد ما تكون عن الرومانسية، وهي أشبه بتلك الحالة عندما يحدث الرجل أحدث عشيقاته عن العشيقات اللواتي كن قبلها، وذلك لكسب الثقة، ولأنها تريد أن تعرف كل شيء، فيمضي

الرجل في روايته. فإذا ما نسي بعض التفاصيل الصغيرة، قادته إلى ذكرها، إلى أن يكتشف في لحظة، أن المرأة قامت بعض شفتيه حتى أدمتهما، وسحقت عقب السيجارة في المنفضة. أجل هذا ما تشبهه حالتنا، غير أنها لم تسألني يوما عن عشيقاتي السابقات، لكنها أصرت على أحلامي، ولسنوات طويلة ظننت أنها غيورة على أحلامي بسبب أمي. ثم تبين لي أنها تريد أن تسمعها لأنها منذ سنين لا تذكر حلما واحدا من أحلامها، فجردت بذلك من نصف حياتها.

- أما عني أنا فلا تكاد تحلم - قالت.

- لأنني خصصت فيها، فلم أذكر سوى الأحلام المرعبة - قلت.

ولم أحدثها عن حلمي الذي رأيته عن المجدف في الدانوب، لأنها لم تتشوق لسماع مثل هذا.

- متى كان الأول؟ - سألتها.

- لا تسأل - قالت.

- الوضع الآن مختلف. صار علي أن أعرف.

- ليس مختلفا على الإطلاق. الأمر نفسه، أتفهم؟ الأمر نفسه.

- بحق الله، أكاد أجن - قلت.

- اهدأ، فلن تجن أنت من أي شيء - قالت.

- آلمني هذا أكثر الآن، وكأنك قمت بصفعي.

- وأنا كذلك لن أجن من أي شيء. أيرضيك هذا؟

- لا. أفضل أن تصفعيني، ولا تظلي صامتة هكذا كالقبر.

- تشبيهاتك تسوء أكثر فأكثر. ارحل الآن رجاء.

- لن أغادر إلى أي مكان. لم يسبق أن تكلمت معي هكذا.

- عليك الآن أن تألف ذلك، وترحل حالا.

خرجـت مـن البـاب دون تحيـة وداع، لكنـي لم أتجـاوز مدخـل البنايـة.

للتـو كان أحدهـم يحمـل شـجرة الميـلاد مـن الطابـق الثـاني، فتتناثـر إبـر الصنوبـر الجافـة في الوحـل. وحـين بلغـت الشـجرة الأرض، كانـت امـرأة تنتظـر عـلى الرصيـف تراقـب إذا كان مـا يـزال عـلى الشـجرة بعـض قطـع السـكاكر. قطـع الرجـل شريطهـا بمقـص أظافـر، ثـم رمـى بالشـجرة بـين سـيارتين مركونتـين.

- أرسل الصبي بالمكنسة - نادى للرجل المطل من النافذة.

- دعها لجهنم - أجاب الرجل.

- لـن أدعهـا. لا تنقصنـي شـتائم السـيدة دوراك إذا مـا خلفـت ورائي القذارات.

- سأرمي بالمكنسة إذن.

- لا ترمها كي لا تسقط على السيارة.

وحـين انعطفـت كان صبـي قـد نـزل عـلى الـدرج، وبـين رجليـه مكنسـة، معتمـرا قبعـة كوبـوي مصنوعـة مـن المشـمع، وتناهـى إلى سـمعي حـين قالـت لـه الأم: خـذ، ووضعـت بيـده قطعـة السـكاكر.

استلقت أستر على الفراش، وكل جسدها يرتعش من البكاء.

- لـن أفعلهـا مجـددا وأخـرج مـن هـذا البـاب - قلـت، واسـتلقيت إلى جانبهـا. التفـت بمعطفـي، لكنهـا ظلـت هنـاك وحيـدة.

عظيـم، عظيـم، لكـن قليـلا مـن الإثـارة بعـد، وتصلـين إلى باغانينـي - قـال المعلـم ڤاغفولجـي.

- (جولـة الضفـاف) معزوفـة باغانينـي، والكـمان كـماني - قالـت يوديـت، لكـن المعلـم رجاهـا أن تحتفـظ بتعليقاتهـا البارعـة إلى وقـت

لاحق للصحافيين، فكان من يوديت أن وضعت الكمان على الكرسي، وهي تقول:

- تفضل واعزفها مثلي، وعندها قم بتهريجاتك. كلي آذان صاغية.

وحين لاحظت أن الدم قد تجمد في عروق الجميع، خرجت من الغرفة، لكنهم لم يجرؤوا على طردها، وهي التي ستمثلهم في بلغراد. وفي الشهر الأخير لم تطأ قدماها الأكاديمية، لأنها كانت تتمرن اثنتي عشرة ساعة يوميا. كانت النوتة الموسيقية بالنسبة إليها كتجويف بحجم إنسان في قاع الحمم البركانية، وينبغي عليها أن تملأه بذات نفسها، لهذا السبب كتبت معزوفة جولة الضفاف، ورسمتها حتى اكتظت بالرموز والملحوظات: مثل: (في المقطع الثاني، أمي في سكرة الموت، التوبة). لقد ملأت النوتة بمثل هذه الكتابات والرموز قبل أسابيع من تمرينها على الكمان.

- كفاك الآن. سيقضي عليك الأمر - قلت.

- مازلت بعيدة عن مثل هذا - قالت، وغمست قطعة بسكويت في فنجان حليب مملح، ووضعته على لسانها، ثم شمعت قوس الكمان مجددا، وبدأت تعزف. الغريب أنه لم يخطر لها قط أن تكون خبيثة وتقوم بقطع أحد الأوتار، وترى ما يولد ذلك من تأثير، وتفاعل. من رآها تعزف لدقائق فقط، وجدها مملة، تقف على خشبة المسرح كقطعة من الجليد، حتى ليتمنى المرء أن تستسلم وتكف. اقصموا ظهرها، اقضوا عليها بالبلطة، لكي لا تقف هكذا برجلين مضمومتين، وعينين مغمضتين، لأن المشهد مريع.

كلما اشتد غضب أمي وهي تسألني ما هذا، ما ذاك، شق أكثر على أستر إيجاد الحروف على الآلة الكاتبة، وأدركت أنا بدقة أكبر أن قصصي جيدة، أو على الأقل وجدتها مناسبة ليسمع الجميع هدوءه

الخاص في تلك النقطة، أو الفاصلة. وأدركت أيضا أن علي ألا أتريث أكثر، وبخاصة أني أسمع هدوئي الخاص في الوقفات. ورغم ذلك فقد ارتعدت من الكتاب لأنني تصورته كجثة مجوفة يقحم بها المرء ما يشاء. لم يكن تمرير عبارة ما بالأمر اليسير. وحين وصلتني رسالة الناشر أن من المتعذر إصدار الكتاب في الربيع بسبب التعديلات في التكلفة، لكن من المحتم أنه سيصدر في الخريف وبخاصة أن قراءه المكلفين من قبل الدار قد قدموا تقارير تشيد أيما إشادة بالكتاب.. وتمنت لي المحررة مزيدا من النجاح؛ شعرت حينها أنهم يماطلون في دفني حيا. أما أستر، فقد تملكها الغضب، وعزمت على الذهاب إلى دار النشر تسألهم هناك كيف يتخيلون الأمور، لكني ردعتها بمشقة.

- أنت عصبية قليلا - قلت.

- أنت مخطئ. لكنه أمر مغيظ، أن يقوم أحد متعاطي الكحول بالخربشة، ويعدل في التكلفة. مازالت الأمور تسير على هذا النحو.

- يمكن أن يكون متعاطيا، لكنها بالتأكيد ليست خربشة.

- بل هي كذلك.

- بل ليست كذلك.

- اخرس أنت. كم أمقت في هذا البلد كثرة الكتاب الذين يخطئون في الإملاء، ولا يجيدون الكتابة السليمة.

- أنا نفسي أخطئ في بعض الأمور الدقيقة.

- دعك من هذا. سأكون ممتنة لو أنك تعانقني أخيرا.

- وإلى أي حد ممتنة؟

- بما يكفي للإمكانيات - قالت، وعانقتني، ولففتها بالمعطف. وهناك في جزيرة مارغيت قبضت بكفها على بعض الفروع وانتزعت عنها كل براعمها.

- شاهدت لوحة عند العجوز روزنبرغ - قلت.
- آها - قالت.
- وصلت نقود يوديت. غدا سأتسلمها.
- ليست يوديت بتلك المجنونة - قالت.
- ماذا تقولين؟
- لا شيء. بذكاء شديد ترسل النقود اللازمة للقفل.
- اكرهي أمي، لكن دعي أختي وشأنها.
- لا تغضب. على أية حال، حتى أمك لا أكرهها.
- تعرفين جيدا أن يوديت...
- طبعا. قلت لك لا تغضب. أية لوحة شاهدت؟
- لا يهم. لوحة طبيعية. أعجبتني.
- أرنيها قبل أن توصلني إلى البيت.
- هذا ما كنت أريده.
- تخليت عن هذه العادة.
- أية عادة؟
- اللوحات.
- ومتى تخليت عنها؟
- لا يهم! - قالت.

طبعا - قلت، وصرت الآن واثقا أن نسرا رماديا قد انقض عليها حين كانت طفلة: رسام بديل، قام بافتضاضها بآخر ما تبقى لديه من قوة الرجولة، ثم تركها في المشفى مشدودة بالحبال ليتمكنوا من القيام بعملية الجرف والصدمة الكهربائية.

سأبحث عنه وأقتله - فكرت. سأظل أدور حتى أمسك به - فكرت. إنني أجرؤ على قتله - فكرت. وإن اضطررت فسأنتزعه من

تحـت الأرض، وأحطـم عظامـه - فكـرت. بالملـح سـأرش قـبره. أجـل سأرشـه بالملـح وأبـول عليـه.

ليـس هنـاك أي شيء مميـز. أرض جـرداء عاريـة تحـت سـماء نتنـة، مثلـما هـي الحـال حـين يفرغ عـمال الديكـور خشـبة المسرح الفسـيحة. لا غربـان، لا غـروب، لا نبـات شـوكي، ولا حتـى نهايـة العـالم. زيـت، قماشـة لا تتعـدى أبعادهـا الأربعـين في سـتين مـع الإطـار الأسـود. عمـل لرسـام ريفـي صغـير قلـد لوحـة تعـود لـ(ميـل)، ووجـد صعوبة في رسـم الأشـكال الإنسـانية، فأهمـل الرجـل، والمـرأة، والعربـة اليدويـة بالتـالي، وكذلـك التابـوت الـذي لم يظهـر واضحـا حتـى في اللوحـة الأصليـة - باختصـار لقـد بقيـت خشـبة المـسرح، ووضـع في بالـه أن يعيـد تأسـيس القماشــة، لأن مـا تحتويـه الآن قليـل بالتأكيـد. غـير أن شـيئا مـا قـد حصـل.

- هــذه هــي اللوحــة، أليـس كذلـك؟ - سـألتني أسـتر وأخرجـت اللوحــة مــن وراء المكتــب.

- هي - قلت، ومن شدة ذهولي لم يخطر لي شيء آخر.

- أحضر إذن مسمارا، ومطرقة.

- كيف عرفت؟

- إمـا أن أكـون عـلى علاقـة جيـدة، مـع تجـار الخـردة، أو أننـي أعرفـك، وربمـا السـببان معـا. عـلى أيـة حـال لم يتطلـب الأمـر شـيطنة منـي كي أنتقيهـا مـن بـين لوحـات الفتيـات الغجريـات عازفـات المندولـين، ولوحـات الثـيران الهائجـة - قالـت، وعانقتنـي.

- شكرا - قلت.

- أين نضعها؟

- قبليني - قلت.

- أحضر أولا مطرقة.

- أريد الحب - قلت.

- لا. لا يمكن ذلك بعد، بكل تأكيد.

- تكذبين - قلت، ورحنا نحدق ببعض، فيما بدأت أفك حزام الروب، وكانت أول مرة أراها عارية منذ شهرين، إذا ما استثنينا مرات تبديل ملابسها في مشفى الأمراض العصبية، أو احتضانها في الحمام الذي تفوح منه رائحة مزيج الكلور والبراز، لكي تتبول هناك، بعد أن كظمت حاجتها حتى مجيئي، لكي لا تأتي الممرضة بالنونية القذرة وتضعها تحتها.

كان بودها أن تتهرب، لكنني أوقفتها كمن وضع في ذهنه أن يستجمع، حتى آخر فوهة بركانية، البدر المحطم عن طريق الخطأ.

- لا - قالت.

- اسكتي - قلت.

وبدأت هي شيئا فشيئا تنسى، أول ما نسيته هي أمي والفندق الرخيص، ثم شظايا بركان (بولاي)، وشظايا ماري ترانغيليتاتيس، وحينما باتت لا يخطر لها إن كانت عند وقت الفجر، أو العصر، وحينما نسيت أيضا كيف تستنشق الهواء، كانت يدي أيضا قد تراخت ونسيت ما لديها من قوة، فما عادت أستر تشعر بأصابعي وأظافري. لم تشعر بشيء آخر سوى ضربات القلب داخل القفص الصدري، إلى أن تلاشى الضوء والظلمة.

- أحبك - قلت، وعرفت أن فهير أستر الحقيقية قد ثارت الآن. تلك التي لن تنتزع مرة أخرى بقبضتها براعم الزهور عن فروع الشجر.

- هل تتألمين؟ - سألتها، لكنها كانت قد باتت عاجزة عن تنسيق الأصوات في كلمات. صارت الأصوات تهرب منفردة صوتا صوتا من شبكة الوعي المتعطلة.

ثم شعرت وكأن آلاف الأيادي قد تشبثت بي لتدفعني عنها، ولم أشعر إلا بلكمة على وجهي.

- أنت تافه، تافه، تافه! - صرخت، وتركتها تتابع ضربها لي، ثم مالت علي.

أين كنت يا بني؟

تعرفين جيدا يا أمي.

أرى أنكما تشاجرتما.

هاجموني في الشارع يا أمي.

لا تظن أنني مجنونة.

نحن لا نتشاجر، ولن نفعل ذلك مطلقا يا أمي، قلت لك إنهم هاجموني في الشارع يا أمي.

يعني أنها أرادت أن تفعلها في الشارع. أليس كذلك؟

أرجوك أن تسكتي يا أمي.

الكلبة. أما قلت لك؟

الأفضل ألا تقولي شيئا الآن يا أمي.

أمثالها يصلحن للترويح، مرة، عن نفسك.

منذ طفولتي وأنا أروح عن نفسي في بانيو الحمام يا أمي.

في تلك الأيام بدأت الحمائم تنفق. أول ما شاهدت جثثا لها كان في ساحة غوتنبرغ، حيث تمددت أربع أو خمس حمامات فوق الطريق وعلى طرف الرصيف، وكأن بريكات الماء قد نبتت لها أجنحة، فلم يكن لها أثر حقا، لكن الحمائم تموت حتى في

الربيع، وترتمي كالذباب. بطريقة ما، تسلم في الشتاء، ولكنها ما إن يأت موعد ذوبان الثلوج، حتى تبدأ بالتساقط من فوق أسطحة المنازل أو العتبات. حصل في مكان ما أن ملأت الجثث المدخنة، فاستيقظت الرضيعة آغيكا ذات النصف عام وحدها صباحا، لأن الجدة نسيت أن تدفئ غرفة الأطفال، وانقضى ثلاثة أسابيع دون أن يلاحظ أحد في مطعم (كيشبيبا)، أو في قسم السجاد في متجر لوتو، أو في نادي المتقاعدين (الحياة للمسنين)، أن عائلة بودنار بجميع أفرادها متغيبة دون مبرر. وما إن أبلغ السكان عن وقوع خطب ما ينبغي متابعته لأن عيد الفصح على الأبواب، حتى كانت آغيكا أيضا قد تفسخت شأنها شأن أفراد الأسرة. انتظر المعنيون بضعة أيام بعد رش المعقمات حتى خلعوا عليهم الباب وجاء نبأ عائلة بودنار على الصفحة الرئيسية لجريدة المساء، كمادة حية بين أنباء أحدث النتائج التي توصلت إليها أبحاث المريخ، وأنباء الحراثة في الربيع، لتعج بعد ذلك صفحة الجريدة بأنباء نتانة الجثث.

- تبا. الأفضل أن ترى ما كتب عن دورنمات، وحاول أن تقرأه بروية - قالت أمي.

- غريب، أنا أفهم جيدا ما حصل: مات أربعة، صحيح. ولكن أيا منهم لم يكن ممن حصلوا على جائزة كوشوت - قالت يوديت.

- يبدو أنني أفتقر إلى إحساس مرهف بالتراجيديا - قالت أمي.

- لا يوجد سوى خبر صغير عن العرض المسرحي.

- لا أحد يملك عناصر حسية كاملة. أنا مثلا أتمتع بقدرة سماع عالية، لكنني لأسابيع أعجز عن رؤية ما يدور حولي - قالت يوديت، ثم راحت تلم الصحون.

- على المرأة أن تتعلم كيف ترى في الظلمة أيضا - قالت أمي.

- إن كنت مستعجلة فسأقوم أنا بجلي الصحون فيما بعد - قلت ليوديت.

- شكرا. ليست فكرة سيئة على أية حال. لو أردت قتل أحد، فمن المؤكد أنني أتصرف هكذا - قالت يوديت.

- سأتصفح جريدة حرية الشعب - قلت، وبقيت لا أسمع شيئا.

- بضع حمامات ميتة في المدخنة، ومن المؤكد أنهم سيكتبون عنها في الجريدة اليومية - قالت يوديت.

- فكرة ذكية. هذا إذا كنت تجرئين على إمساك حمامة - قالت أمي.

- إذا كان الإلهام كبيرا، فسأفلح آجلا أم عاجلا. هذه المرة أيضا كانت كفتة اللحم طيبة. شكرا على الغداء - قالت يوديت، ثم أسرعت.

وحتى نهاية موسم التدفئة، جاؤوا ما لا يقل عن خمس إلى ست مرات ليراقبوا مدخنة غرفة أمي بذريعة شكاوى المجمع السكني.

إذن، لقد شاهدت للمرة الأولى بعضا من الحمامات النافقة في ساحة (غوتنبرغ)، ثم في (لوزان بلاها) حيث اكتظ بها الرصيف حتى غلفه السواد. تذمر الناس من المشهد، متسائلين أين المعنيون بالنظافة العامة في مثل هذه الأحوال؟ البعض ألقى المسؤولية على الشيوعيين، والبعض الآخر على اليمين المتطرف، ولكن الغالبية العظمى، أرجعت السبب إلى مفاعل باكش[22] الذري، وفي اليوم التالي ظهر أول التحليلات السياسية الذي تطلع إلى احتمال

(22) مدينة مجرية تاريخية مهمة تقع جنوب ما وراء نهر الدانوب، وبها المفاعل الذري الوحيد بالبلاد. [المترجم].

قيام تظاهرات حاشدة تلقي بتأثيرها في صناعة الطاقة في المجر. التلفزيون أرجع الأسباب إلى مصادر غير رسمية، أما الصحافيون الواقعيون فراحوا يعثرون على كل من يملك جدارة الإدلاء في الموضوع، وكان من بينهم من أوضحوا في البرنامج الرئيسي أنهم يتذكرون مثل هذه الحالة من نفوق الحمام. وحدها الخدمات الطبية ذكرت أنه على الرغم من العرض، فلا يمكن الحديث عن وباء، لكن ينبغي على الأهالي ألا يسمحوا لأولادهم أن يلعبوا بالحمام النافق. كنا نوشك أنا وأستر أن ندخل صالة السوق، حين لمحت في الساحة عجوزا تنثر الحبوب للحمام من كيس ورقي، وهي تكرر قولها: ريبيكا يأكل.

- إنها هي - قلت لأستر.

- من؟ - سألتني.

- تلك المرأة عند الأرجوحة. هي من تسمم الطيور.

- ماذا تقول!

- أعرفها - قلت - عندها شاهدت الأقفاص الخمسة والعشرين في خزانة الملابس.

- لم أتصورها هكذا. وعلى أية حال، من يعيش من طيور بائسة لا ينثر قمحا مسموما للحمام. هذا غباء.

- مخطئة - قلت، ثم قمنا بالتسوق.

حين تسلمت الرسالة بأن الموعد هو السادس من الشهر، بقيت ليومين أتقيأ حتى قهوة الصباح. توقعت كافة الأسئلة المحتملة، وضعت عليها أكثر الأجوبة موضوعية. في نهاية المطاف سأقول فيما بعد إنني أعتذر - فكرت. وبدلا من المصعد كنت أفضل أن أصعد الدرج لينقضي بعض الوقت، فلا أحب ركوب

المصاعد، ولكنهم حين نادوا علي: تفضل، لم ألاحظ شيئا إلا أن المزلاج من الألومنيوم.

- إيڤا يوردان - قدمت المرأة نفسها، حين تصافحنا، قاستني من أخمص قدمي في إحدى الكنبات، وفكرت بأنه لم تسنح الفرصة لتبديل الأريكة ذات الجلد الاصطناعي، ولا الآلة الكاتبة، فيما نادت المرأة إلى المكتب البعيد لإحضار اثنين من القهوة.

- أعجبني كتابك - قالت.

- شكرا.

ومنذ تلك اللحظة التي قاستني بها كسلعة نوعية، كان يسرني ألا يكون الكتاب قد أعجبها. طالما قرفت تلك النساء اللواتي يفلحن بتمرير عقد كامل من عمرهن الخمسيني، لكنهن يصافحنك مثل جندي. اللواتي يجدن تبديل عجلة سيارة (بولسكي فيات) خلال خمس دقائق، دون أن يقشر طلاء (جار غريت أستور) عن أظافرهن، واللواتي بعد ممارسة ممتعة، أو حتى بعد حكم الطلاق، يدركن جيدا معنى الحياة. حتى بحة صوتها من تغيير التبغ أزعجتني. قلت لنفسي:

- ليته لم يعجبك أنت بالذات.

وفيما كانت تخرج المصنف، رحت أنظر إلى الروزنامة المعلقة على جانب خزانة الملفات: مهب ثلوج ديسمبري في العراء، في حين كان ينبغي تقليب المفكرة للوصول إلى المياه الجوفية النيسانية.

- طبعا، هنالك عمل نوعي على الكتاب ينتظرنا. خربشت قليلا، آمل ألا يكون لديك أية مشكلة - قالت، بينما رحت أنا أقلب المخطوطة. كان هناك بعض الملحوظات المسجلة على أطراف الصفحات بالحبر الأسود، إضافة إلى بعض الخطوط

تحت العبارات، وبعض إشارات الاستفهام هنا وهناك، فانتابني إحساس بأن هذه المرأة طالت بخربشاتها كل ما نضدته أستر عبر أسابيع.

- لا بأس - قلت.

- أقترح أن تعود إلى المخطوطة بالكامل، وبعدها لنا حديث.

- حسنا - قلت.

- اتصل بي إلى البيت. نهاية الأسبوع إن أمكنك ذلك - قالت، وسجلت رقم هاتفها على الملف - أساسا يتعذر العمل هنا.

- حسنا.

- أي مشروب تحب؟

- الشاي - قلت، ووضعت المخطوطة، ثم نهضت واثقا مستعجلا الخروج من هنا. صافحنا بعضنا. لها يد بعمر خمسة آلاف سنة.

- كيف حال أمك؟ - سألتني، فصعقت، وتجمدت كحجر. كان سؤالا نسيت أن أضعه ضمن قائمة الأسئلة المحتملة. لم أتهيأ له بأي إجابة. كان بودي أن ألكم وجهها.

- ومن أين تعرفين أمي؟

- أجريت معها مقابلة، ذات مرة.

- أكيد أنك مخطئة - قلت.

- أكيد معك حق. تعجبني مصافحتك - قالت، ولاحظت الآن أنني ما زلت أقبض على كفها كالكلاب. وعلى الفور انهارت أصابعها العظيمة. وعبرت الباب دون تحية وداع، ودخلت المصعد، لكنني نسيت أن أغادره في الطابق الأرضي، ولم أعرف كيف يعمل، وحين بلغت طابق بيت الآلات المعتم، تشبثت بالمقبض حائرا يتملكني اليأس، وخفت أن أهوي منه، فتعصرني المسننات.

- بحق الله، ما الذي حصل معك؟ سألت أستر.
- أنا لا.. - قلت.
- لم يعيدوا لك المخطوط؟
- سأسترجعه.
- أتوسل إليك أن تقول ما الذي حصل؟
- لا أريده.
- ما الذي لا تريده؟
- هذه المسألة برمتها - قلت، ودفنت وجهي في صدرها، محتميا بعجزي عن تفصيل ما جرى في دار النشر، فاكتفيت بالقول إن المصعد هبط بي إلى القبو، وكاد أن يفرمني، وإنهم في دار النشر يعرفون كل شيء، حتى أمي أيضا ثم شعرت بيدها في حضني.
- اهدأ - قالت.
- حسنا - قلت، ورحت أبحث عن حضنها، لكنها أرجعت يدي إلى جيدها.
- لماذا؟ - سألتها.
- اسكت - قالت، وقامت بإغماض عيني كأحد الموتى، وأسندت رأسها على صدري.
- لا - قلت حين انزلقت أظافرها على العروق المتوترة، ولكنها لم تستجب. لفتني هناك بأصابعها، وكنت أعلم أنها مفتحة العينين. وشعرت أنها تشاهد حضني - وكاد أن يكون معصمها دون حركة.
- لا - قلت مجددا.
- استرخ - قالت، وطافت كفها تمسح بطني المبلل، كما تجفف العرق عن جبين مريض.
- والآن، ألست أحسن حالا؟ سألتني.

- أفتقد إلى قطراتك.
- هكذا أفضل لي الآن.
- ومع ذلك أفتقد إليها.
- الأفضل أن تروي لي ما حصل في دار النشر.
- أريد أن أسترجعه.
- حسنا. على أية حال أنا لا أفهمك.
- صدقيني، يكفي أن تقرئيه أنت. لا بد أن ينشر ذات يوم.
- تابع حديثك. يعجبني عندما تتحدث بمثل هذه الأمور. غباء، لكنني أحبه.
- إضافة إلى كل شيء، قامت هذه (الثقب) الثقافي بالخربشة على ما قمت أنت بتنضيده.
- أيضا! جاملها. تملق لها.
- ألا يهمك نوعية هذه (الثقب) الثقافي؟
- على ما أذكر، أنا من سلمتها المخطوطة، ولا أظن أنها (ثقب) ثقافي على الإطلاق، صحافية يهودية لا تعوزها الرشاقة.
- هذا عداء للسامية.
- أنا يحق لي.
- لماذا؟
- هكذا. المهم، أرى أنها جذابة. سأحاول جهدي أن تذهب إلى عشاء العمل وأنت متخم.
- مازلت أقرف من رائحتها، لن أذهب إلى عشاء عمل.
- سأجرك بالرسن.
- سأقوم بعض الجميع.
- وبخاصة تلك الثقب الثقافي؟

- لن أخصها. لن أميزها.

- ستكون لك كمامة على فمك. على كل حال كنت محقا - قالت.

- وفيم كنت محقا أيضا؟

- في هذه - قالت، وأخرجت الجريدة من حقيبتها، كان هناك، بين الأبناء الذين يتحدثون عن عشيقات معاون الوزير، والذكريات السرية الخاصة، نبأ بالخط العريض طمأن القراء: قاتلة الحمام قتلت نفسها أيضا. بعد متابعة أمنية حثيثة عثر على جثة ريبيكا. ف. (69) العاهرة السابقة التي كانت قضت على منشأة الحمام التابعة للحي الثامن عن طريق القمح المسموم، ثم سمحت لنفسها بتناول جرعة مميتة من سم الجرذان اليوغسلافي الصنع. وقف الخبراء في حيرة أمام الحالة، بعد أن تبين من إفادات الجيران ووفقا للبراهين المادية التي وجدت في المنزل أن المرتكبة كانت تحب الطيور.

- أين كنت يا بني؟

- في دار النشر يا أمي.

- لا أستطيع التدخل هنا.

- لا حاجة لتدخلك هنا يا أمي.

- جعلت منك وغدا هذه المومس.

- دعي أستر وشأنها، ودعيني أعمل، يا أمي.

- أنت لست كاتبا! أتدري ما أنت؟ جزار. هذا أنت! جزار.

- ممكن، يا أمي.

- أنت تكتب بدم الآخرين!

- بل أكتب بالحبر الأسود، يا أمي.

- هذا ليس حبرا، هذا دمي!
- إن كان دما، فهو دمي يا أمي.
- أنت تشوه سمعتي!
- لا أشوه سمعة أحد يا أمي.
- بل تشوه سمعتي بدمي بالذات.
- اسكتي يا أمي!
- لن أسكت! قاتل! قاتل أمك! تشوه سمعتي!
- أطبقي فمك. أطبقيه، واخرجي من غرفتي!

* * *

- أعد لك الشاي. آمل أنك تفضلها بالڤودكا.
- بالليمون - قلت، ورحت أنظر إلى الأثاث الأنتيكي، والسجاد الشرقي، واللوحات المعاصرة. سرداب يشبه سردابنا، لكنه مكتظ بغير الديكورات المسروقة، فكرت، وأفرغت للمخطوطة متسعا على الطاولة بين منفضة السجائر، وفنجان الشاي.
- أظن أن الموسيقى لا تزعجك - قالت.
- الموسيقى، لا.
- باخ؟
- حسن.
- غادرت مستاء في المرة الماضية.
- كان يومي عكرا.
- يسرني أنني لست من جرحك.
- لم تنطقي بما يسبب ذلك.
- الشاي تغلي. حقا لا تريد معها شيئا؟
- لا.

- على أية حال، أمر في محله، إن غضب الكاتب أحيانا.

- لا يقتصر الغضب على الكتاب - قلت، وشعرت أنني صرت أكثر زهوا من اللازم. في نهاية المطاف، لا حيلة لها إن كانت رائحتها تزعجني، فكرت. وأنا أيضا. لا بد أنني مبعث لإزعاج الكثيرين، فكرت. كم منهم صاروا يكرهون تحياتي، فكرت. أو مثلا حين أطلب كأسا من الصودا مع القهوة، فكرت.

- لا بأس. على المرء أن يغض النظر عن هفوات الموهوبين.

- لا أظن أن الموهبة تمنح أيا كان الحق في أي شيء.

- آمل أنك لا تعتقد ذلك جديا.

- بل أؤمن به بكامل الجدية.

- أنت إذن تبرع في قطع الطريق على نفسك.

- محقة تماما.

- يهودي؟

- على حد علمي، لا- قلت مندهشا، لأنهم نعتوني غير مرة بالصراخ في وجهي، لكن أحدا لم يسألني مثل هذا السؤال.

- أعرف. لكني أردت أن أرى كيف تكون حين تخرج من طورك - قالت، وناولتني منديلا كي أمسح الشاي عن سترتي.

- لي أحيانا ردود أفعالي الإنسانية - قلت، وكان بودي أن أنهض في الحال، لكنني شعرت أن الأمر سيكون من المضحك، فأضفت قطعتي سكر على ما تبقى من شاي في الفنجان.

- وهذا ما يجعل نثرك جيدا - قالت، ثم تناولت المخطوطة، واستعرضنا النص كاملا. أغاظني في البداية أنها لاحظت دزينة من الأخطاء التي سهوت عنها لعدم تركيزي، وإسهابي، لكن الأمور سارت بسلاسة بعد فترة من الوقت. عمل جراحي لا يحتاج إلى

كثير من نقاش الأطباء. كانت راغبة في إبعاد قصتين، وكانت محقة بذلك، وطلبت منها إضافة الفودكا لفنجان الشاي الثالث، وأبقيت على المصطلحات الألمانية التي رأيتها مهمة، فهنالك ما ليس له قيمة البتة بلا مصطلح ألماني، حتى لو خرج عن القواعد الأسلوبية، فتفقد العبارة توترها. لاحقا أعدت سندويشات ساخنة، قبل أن نناقش مسألة الغلاف. ثم نسيت هناك قلمي.

- ألم تعضها؟ - سألت أستر.

- أنت أرسلتني إليها. يمكن لك أن تخمني - قلت.

- أكيد؟

- أنت من سأعضه إن لم تنسي الموضوع.

- الأفضل ألا تفعل، يكفي ما أنا عليه من نزيف.

- وعدتني أنك تتخلصين منه بحلول هذا اليوم.

- خدعتك. النزف اليوم على أشده.

- سأحظر استخدام مفكرة جون. أريد أشهرا من ثلاثمئة وخمسة وستين يوما.

- يكفي أن تنتظر عشرين عاما، حتى أبلغ سن اليأس ويتوقف طمثي .

- أظن أنك الآن تخدعينني. أرني الغطاء المدمى - قلت، وسرعان ما ندمت على ما قلته. اربد وجهها، كمن قبض عليه متلبسا، ومن دون أن تنبس بكلمة خرجت إلى الحمام، وتناهى إلى سمعي أنها تفتح الصنبور. أشعلت سيجارة، ثم مججت سيجارة أخرى. كان يمكنها أن تصفق باب الغرفة حين خرجت، لكنها لم تفعل - فكرت.

- أيمكنني الدخول؟

- طبعـا - قالـت، وهـي متمـددة في المـاء البـارد مغمـورة بالرغـوة، وتعلـق الفقاعـات عـلى جسـدها. كانـت ترمـق جسـدها كـما ترمـق مـادة غريبـة. يجهـل المـرء مـدى صلاحيتهـا، لكنـه يتشـبث بهـا، ولا يتنـازل عنهـا.

- تعـالي - قلـت، وتركتنـي أحملهـا مـن الحـوض، ثـم قمت بتنشـيفها وأدخلتهـا إلى الغرفـة، وهـي ترتعـش تحـت الغطاء.

- أريـد سـيجارة - قالـت، فأشـعلت لهـا واحـدة لكنهـا انشـطرت بيدهـا نصفـين.

- أليس كذلك، أنت تعتقد أنه لم يعد مسموحا... - قالت.

- لا أعتقد - قلت.

- أحبك - قالت.

- أعلم - قلت.

- لمـاذا إذن يهـددني حظـي بهـذا؟ - قالـت وانفجـرت بالبـكاء وهـي تتشـبث بعنقـي - أليـس مـن الأجـدى أن يقتلنـي؟ فليقتلنـي أي أحـد! ليقتلني .

عنـد الطاولـة المجـاورة جلـس رجـل خمسـيني غـير مهنـدم، بحـذاء رياضـة، وسـترة ذات مربعـات، كان منـذ نصـف سـاعة يقـرأ كتابـا عـن فـترة مـا قبـل الحـرب، ثـم نـادى النادلـة يوليـكا قائـلا إن ذبابـة في إبريـق البـيرة، لكـن الكثيريـن رأوه وهـو يضعهـا في الإبريـق بعـد أن أخرجهـا مـن علبـة الثقـاب.

- هـذا مـا يفعلـه في مطعـم الخدمـة الذاتيـة. يرمـي ذبابـة في مطبـوخ اليقطـين - قالـت يوليـكا، وأصرت عـلى الرجـل أن يسـدد الحسـاب - إبريـق بـيرة (كوبانيـا). لا يهمنـي إن تنـاول كل مـا هنالـك مـن ذبـاب، لكنـه سـيدفع ثمـن البـيرة. هـذا مؤكـد.

قال أحدهم:

- ينبغي استدعاء الشرطة.

لكـن يوليـكا أعادتـه إلى مكانـه، فـلا ضرورة لدخـول الشرطـة هـذا المـكان، وبمقدورهـا أن تحـل المسـألة دون هـراوة، فقبضـت عـلى الإبريـق مـن أذنـه، ثـم ضربـت قاعدتـه بكفهـا اليـسرى، ضربـات عـدة وكأنهـا تقيـس وزنـه لـترى إن كان مـن الجـدوى أن تهاجـم بـه، وإلا فسـوف تتنـاول منفضـة السـجائر.

- أربعـة عـشر فورنتـا وخمسـون فيللـيرا[23] - قالـت، فـراح الرجـل يفتـش في جيبـه. وهـو يتوعـد بتقديـم شـكوى وإغـلاق المحـل القـذر.

- اغسـل يديـك قبـل الذهـاب إلى هنـاك - قالـت يوليـكا وهـي تلقي تسـع فورنتـات وخمسـين فيللـيرا في المحفظـة، لأنهـا كانـت تعـرف أن لا جدوى من استمرار الرجل بالبحث في جيوبه.

كان عليهـا أن تدعـه وشـأنه، فكـرت، رغـم أن يوليـكا كانـت محقـة تمامـا. وكان بوسـعه بتسـع فورنتـات أن يطلـب كأسـا مـن البـيرة، وليـس إبريقـا. اجترعـت مـا تبقـى، وأطفـأت سـيجارتي، ثـم سـددت الحسـاب وخرجـت لأسـتقل البـاص رقـم سـتة حتـى (أكتوغـن). ومـن هنـاك قطعـت المسـافة سـيرا عـلى الأقـدام حتـى منطقـة الأوبـرا. حـين رأيـت المصابيـح مضـاءة رجعـت. كان عـلي أن أتصـل، فكـرت. ثـم فكـرت أن أؤجـل ذلـك إلى الغـد، لكنـي شـعرت أن أحـدا يترقبنـي، ويشـاهد كيـف اتسـكع عـلى نحـو يدعـو للسـخرية. صعـدت الـدرج، وبعـد انتظـار نوعـي رننـت الجـرس رنتـين قصيرتـين.

- اعتقـدت أنـك تفضـل أن تحمـل قلـما جديـدا - قالـت وهـي تديـر المفتـاح - أتيـت في الوقـت المناسـب. لا بـد أنـك تعرف الفرنسـية.

(23) فورنت واحد يساوي مئة فيللير في العملة المجرية. [المترجم].

- لا.

- الإنجليزية؟

- قليلا.

- عليك أن تتعلمها - قالت، وقدمتني إلى ضيفيها - جاءا من قبل ناشر باريسي، وكنت لتوي أقترح لهم بعض الكتب وأنت من بين الذين اقترحتهم - أضافت، فجلست أنا على صوفة مغطاة بالموكيت، لأن الرجلين الفرنسيين جلسا على الأريكتين. حين خرجت هي إلى المطبخ انتظرنا صامتين فما من حديث مشترك بيننا، لكنها عادت خلال لحظات بإبريق شاي مثلج.

- الكاتب المجري الوحيد الذي يقتصر على شرب الشاي المثلج، ولكن ليس هذا هو السبب الذي يجعله جديرا بالنشر - قالت بالإنجليزية كي أفهم أنا أيضا ما تقوله. شعرت أنني بهيمة في قفص، يمكن أن يرمى لها البسكويت باطمئنان. ابتسم الرجلان، وصار الحديث يدور بالفرنسية، وتمنيت أن أسترجع قلمي وأرحل، لكنني شعرت أن ذلك غير ممكن الآن. ثم نهض الضيفان، كان بديهيا أنه لا يمكنني أن أنصرف معهما، فتصافحنا، وودعنا بعضا بكلمة (أورفوار) ثم تناهى إلى مسمعي أن المفتاح يدور.

- لقد نلت محبتهما، يمكن الاستفادة من هذا - قالت، وعادت لتجلس إلى جانبي على الصوفة.

- ربما من السابق لأوانه - قلت.

- دع الأمر علي. هل صار بوسعي الآن أن أسكب لك النبيذ؟

- شكرا، لا. أتيت من أجل قلمي فقط.

- لن تأتي لسبب كهذا طوال حياتك - قالت، وسكبت النبيذ الأحمر في فنجان الشاي. خطر لي أنها اللحظة المواتية لكي أخرج

ذبابة ميتة من علبة الثقاب، وألقي بها في فنجاني، ثم أقذف بالشاي في وجهها، وشعرت بالحشرات تنزلق مع النبيذ في حلقي.

- أنت محقة بالتأكيد - قلت، ثم نهضت واقفا، وبقيت هي جالسة، ولم يفصل بين وجهها ووسطي إلا السروال. بدأت الذبابات الميتة تزدحم في معدتي. وعج بها صدري، ودماغي، وشعرت أنها تلوكني، وتلتهمني في الداخل، وبدلا من قلبي شعرت أن نتوءا يتدلى عالقا في شرياني.

- لا تحشري نفسك وتتدخلي في حياتي، لا باللغة المجرية، ولا بالفرنسية - قلت من دون أن أعرف نبرة صوتي.

- ما الذي سيحدث؟ أتمارس معي آخر الأمر؟ - سألتني وقبضت على وسطي. جردتها من البلوزة كالجورب، ثم ألقيت بها على السرير، وفيما كانت يدي ترمي بحذائها، كانت هي تنزل سحاب سروالي دون أن تحل حزامي، فسحجت قطعته المعدنية بطنها حتى أدمته. كانت بشرة جلدها مرة، مرة وبرائحة اللوز كأغطية أمي.

- لا تحشري نفسك في حياتي أتفهمين؟ مطلقا! مطلقا بعد الآن، أيتها القذرة! - صرخت في وجهها - وضغطت بإحدى يدي على حنجرتها.

تركتها على السرير كخرقة بللت الغطاء المجعد، وتدلت إحدى رجليها فوق الأرضية، وقد سقط عنها الحذاء. مازالت عجيزتها متشنجة، لكنها كفت عن أنينها. أخرجت سيجارة من العلبة، وأشعلت الأنوار. ثم جاءت تاكسي، تحدث مع سائقها عن تغيير النظام. كان مغتاظا من الشيوعيين، وأن عليهم أن ينتحروا جميعا. لم أتفق معه بالرأي لأن من حق أي أحد أن يعترف بخطئه، ثم يوصد الباب على نفسه، ولا يظهر بعدها. فليعيشوا بسلام مع ما

يكتنفهم من عار - قلت للسائق، لكنه قال لي أن لا أمل في ذلك لأن الوغد لا يشعر لحظة واحدة بالغار مهما ارتكب من أفعال بشعة. تلمست سلسلتي الأمان فلم أفلح في حلهما، فعمدت أخيرا إلى رنتين خفيفتين، لأن أمي لا تفتح الباب إلا لي بهذه الإشارة.

بقيت حتى عصر اليوم التالي أعمل على نص غير منته، بدا لي أنه صار جاهزا، فقصدت أستر وحالتي الآن على غرار ما كنت عليه حين قصدتها في المرة السابقة: ما حصل لم يحصل معي.

- ألا تحممينني؟ - سألتها.

- هذا ما تنتظره؟

- هذا ما أنتظره - قلت. فملأت الحوض بالماء، وألقت به مكعبا أخضر اللون حول الحوض إلى مجرد رغوة، وجعل الحمام يفوح برائحة الصنوبر.

- هذه فعلة خنزير. لا أرى منك شيئا - قالت لأن الرغوة قد أحاطت بجسدي، فأغرقت حتى رأسي تحت الماء، حتى لا يظهر مني شيء. عددت حتى المئة والعشرين دون أن تحاول إخراجي.

- لو يعود الأمر لك، فسترضين أن أبقى هناك - قلت حين لم يعد بمقدوري الاستغناء عن الهواء.

- لا أخشى عليك. بوسعك أن تعيش كمحارة اللؤلؤ في قاع البحر.

- أشكرك على أنني لست كعلقة - قلت، ثم قامت بتجفيفي. وحين انتزعت سدادة الحوض فاضت الرغوة من فتحة مصرف الأرضية وانتشرت في الحمام. حاولت تجميعها بيدي والقذف بها في الحوض، ثم أخرجت نصف زجاجة النبيذ الأحمر، وقرأت القصة التي أنهيتها عصر اليوم.

- جيدة، لكن ما يسوؤها أنك شوشتها بمزجك الفحش بالصدق.

لم أتسكع أمام المدخل، ولم أنتبه إذا ما كان أحدهم يراني، ولم أرن رنتين قصيرتين كما كانت قد قالت للمرة الأولى على الهاتف. رننت رنة طويلة كما أفعل في كل مكان، وكان علي أن أنتظر فترة.

- رنتان قصيرتان - قالت حين أوصدت الباب.

- هكذا أفضل - قلت.

- في المرة القادمة أقفل الباب - قالت، ووضعت في يدي مفتاحا، فوضعته أنا على ساعة قياس الغاز.

- دعينا نتحدث برسمية - قلت.

- كما تشاء. شاي؟ فاترة حسب علمي.

- ولا حتى فاترة. جئت من أجل مخطوطتي.

- لا تكن مضحكا - قالت، وارتمت على كنبة جلدية كاحتة.

- أحتمل ذلك. إن كانت في دار النشر فأرسليها بالبريد.

- عند المنضد، بعد أسبوع سنبدأ بتنقيحها.

- لن أنقحها.

- يؤسفني أنك لن تحصل عليها. على أية حال، عملي مفصول تماما عن مسألة من أعاشر. كنت آمل أنه أمر محسوم حتى بالنسبة لك.

- هو فعلا أمر محسوم بالنسبة لي. لكن عملي غير مفصول عن مسألة من أعاشر - قلت.

- طبعا. لكن على المدى البعيد ليس من حسن الحظ أن يقف المرء أمام المرآة، ويرى كلبا مسعورا بدلا من العينين الجميلتين.

رغبت في إشعال سيجارة، فيما راحت هي تشاهد برضا كيف أكسر أعواد الثقاب واحدا بعد آخر.

- على أية حال، صديقتك لطيفة جدا.

- ليست صديقتي.

- آسفة: حبيبتك. لم أتقصد أن أبخس في علاقتكما. كل ما أردت أن أقوله كم سيسوء الفتاة المسكينة حين تكتشف أنك خارج المنزل لست سوى وحش من الدرجة الأولى.

- لا تحاولي ذلك، وإلا فسأقوم بخنقك. دعي أستر خارج الموضوع - قلت، ونهضت واقفا.

- أسأت فهمي - قالت، وسكبت - لست أنا من ينبغي عليه أن يدعها وشأنها، بل حضرتك. النساء على العموم يحتملن مقاسمة امرأة أخرى في العلاقة مع رجل، ما دام بوسعهن أن يتصرفن وكأنهن لا يعرفن شيئا عن الأمر.

- هي لا تقاسم أحدا - قلت، وتناولت الكأس المقدمة لي، وما إن ألهبت (البالينكا)[24] حنجرتي، حتى فارقني كل أثر للبغيضة. قستها حتى آخرها كما أعاين تمثالا مرمما أعيد تشكيله لكن تكتكات خنفساء اللحاء ما تزال تنبعث منه. لم يعد الشعر الأحمر النحاسي يثير في إزعاجا. ولا حتى رائحة اللوز الفائحة من بشرتها، ولا الأظافر الحمراء في نهاية الأصابع بعمر خمسة آلاف عام. شعرت أنني أخرج من هذا المبغى الترفي أكثر نقاء مني حين قدمت إلى العالم.

- كل امرأة تقاسم. أمك مثلا قاسمتني أباك.

جاءتها الضربة على ذقنها. هوت في الكنبة. جررتها بشعرها على الأرض، وبركلة واحدة قلبتها على بطنها.

- كأبيك - نطقت غاضبة.

(24) بالينكا: مشروب كحولي مجري. [المترجم].

- إيـاك والحديـث عـن أبي. لا أريـد أن أسـمع حتـى اسـمه. أتفهمـين؟ - صرخـت، وباعـدت رجليهـا مسـتعينا بركبتـي ومـددت يـدي إلى حوضهـا.

- خذني.

- أبدا.

- خذني.

- أبـدا، لـن تقاسـمي أحـدا - لهثـت ومارسـت عنفـي معهـا حتـى أطلقـت أنينهـا. وعـصرت السـجادة بـين رجليهـا. أمـا أنـا فأخرجـت سـيجارة، وصفقـت البـاب ورائي.

في المطبـخ قـشرت أمـي تفاحتهـا الصباحيـة، فتلولبـت قشرتهـا الحمـراء كـدودة مسـطحة.

- من تكون إيڤا يوردان؟ - سألتها.

تجمـدت السـكين بيدهـا، وحدقـت في قميـصي المفتـوح وبنطـالي الممـزق، وظننـت أنهـا لـن تجيـب عـلى سـؤالي.

- ابـن حـرام! اذهـب إلى غرفتـك أيهـا الحيـوان! - صرخـت وقذفـت بالتفاحـة نصـف المقشـورة فانفجـرت فـوق عضـادة البـاب الخشـبية كحمـض البكريـك.

- حسـنا - قلـت، ودخلـت. عـلي أن أنظـف أسـناني عـلى الأقـل، فكـرت حـين تهالكـت عـلى سريـري. كان فمـي بطعـم السـمك النيـئ، وآلمنـي معصمـي، لكنـي سرعـان مـا غفـوت.

حـين اسـتيقظت كانـت الظلمـة تلـف كل شيء. أشـعلت المصبـاح، ونظـرت إلى السـاعة، وقـد تذكـرت أن أسـتر تنتظـرني عنـد السـاعة السادسـة أمـام المكتبـة. فكـرت أن أقـول لهـا إن حمـى أصابتنـي. ورحـت أفتـش بعصبيـة في أحـد الـدروج. رأيـت بـين أقـلام الرصـاص

قطعة طباشير قديمة، لكنني لم أستطع أن آكل إلا نصفها. ووصلت إلى يدي علبة من خراطيش دم، فخطر لي عندها أن الضرب أفضل. أجل سفلوني باليهودي وضربوني - ومضغت جميع الكبسولات لتتفتت ثم دهنتها حول فمي، لكنني اكتشفت بعدها أن لا معنى لكل هذا، لأنها انتظرتني عند الساعة السادسة، والساعة الآن العاشرة، والآن ضربوني، فأين كنت إذن عند السادسة، فوجدت أن من الأولى أن آكل النصف المتبقي من الطباشيرة رغم أني رجعت أتقيأ كلسا قاني اللون، وسال الماء علي.

كان هذا أفضل بنطال عندي، فكرت. والآن لا يهم، فكرت. غدا سأرتدي واحدا أكثر سماكة، فكرت. لا بأس في الحقيقة، أن أعرف بعض الأمور عن أبي، فكرت. على الأقل كيف كانت هيئته، قلت. غدا سأسأل تلك المومس، فكرت. وما الذي سينتج من ذلك؟ لا شيء. فكرت. لكنني أولا سأقص أظافرها، فكرت. بل لا ضرورة لهذا، فأظافرها جيدة، فكرت. ليس هنالك أفضل من قرن ثور أستخدمه لأنني لن أدعها تمد يدها إلى جسدي. فكرت. وهناك كتاب بما فيه الكفاية سوف... بانتظام، فكرت، أما معي أنا فلن تمسني، عقابا لها لكي لا تجرؤ على ذكر أبي، وإلا فسأقطع... وبه أديرها كجهاز التلفزيون الملون، فكرت. على أية حال ليس من الرداءة أن تضرب امرأة، فكرت. لم يكن أبي مجنونا إلى ذلك الحد، فكرت، لكن يا للخسارة ما كان عليه أن يتقيأ في سرير الأطفال، ليس أمرا حسنا من أب، فكرت. ولا أن يقوم بضرب الأم الحامل. لا تظن يا أبي أنني لا أتذكر. رأيتك تشذ مع أمي. الإنسان ليس مخبولا في سن ستة أشهر، فكرت، لكنه لا يستطيع استخدام سكين المطبخ، فكرت. لكن لا تظن أنني لا أعرفك مثل كفي، أنت (...) محبط، فكرت. من

المحتمل أنه جاء من طبقة شعبية متدنية، فكرت. لقد احتمل زواجه غير الموفق، لكن الأم الحامل كانت سيئة السمعة، ولا بد أنها كانت تعاشر الرجال بالجملة، فكرت. ليس عارا، فأنا أيضا أفعلها على الأقل مع ثلاث، فكرت. هذه الكلبة، يمكن أحيانا أن تزور أمي حقا، وتزور أستر كذلك، فكرت، وإن أمكنها أن تزور كل واحدة على انفراد، فليس مستحيلا أن تزورهما مجتمعتين، فكرت. لا، أستر لا، فكرت، لست حيوانا في نهاية المطاف. وأستر حساسة بما يكفي، ليست مثلنا، فكرت. هناك إذن يوديت التي تغلق على قلبها في صندوق، وتتمرن اثنتي عشرة ساعة في اليوم، إضافة إلى أوقات الحفلات، فكرت. واحدة مثلها ليس لديها وقت للممارسة الثلاثية. وهي منذ سنوات لم تجد وقتا لكتابة رسالة، فكرت. تكتبين لي وتوصينني بألا أطبق لاحقا عيني أمنا، فكرت. لكنني سأطبقهما بالمطرقة، ثم سأقذف من هذا السرداب بكل الأغراض. وتبقى هناك غرفة الأطفال، فكرت، ولن أتقيأ في سريرك الصغير، ويمكن لأمي أن تفطس بسلام، فكرت، ملابسها تناسب أستر تماما، فكرت. هذا ليس فحشا يا عزيزتي، وأنا، قط، لم أخلط الفحش بالصدق، فكرت، أنت من تخلطين العلقة بمحارة اللؤلؤ، فكرت. الملابس جيدة عليك، شرط أن يقص شيء منها عند الصدر. على الأقل سيكون لديك بعض المعاطف الفارسية التي أكلها العث، تلبسينها حين تذهبين إلى الإجهاض، فكرت. أما كان من اللائق أن تخبريني قائلة لي: عفوا، أنا ذاهبة إلى المشفى من أجل الكورتاج، فكرت. أليس ما سيخرجونه من رحمك هو قطعة مني. أليس من اللائق أن يراه أبوه، فكرت. وجريا للعادة، أنت تضطجعين، ونحن ندخن، والأب يروي السبب الذي جعل ابنته معاقة، فكرت.

لا تلعبي معي بعد الآن لعبة: لا تسألني، لا تستجوبني لن يكون لك ذلك، وإلا فسيتلقفك الجدار. لا تظني أنني لا أجرؤ على ضربك. سأسحق سجل ماضيك الفاسد، فكرت. وبدمك سأكتب، وأنت ستنضدينه على الآلة الكاتبة، وتبحثين عن دار لنشر ما كتبته. أنت من أراد مني كاتبا، أجل، وأنت من أرسلتني إلى هناك، إلى تلك الفاسقة. لن أجعل من الكلس فطوري بعد الآن، فكرت. آمل ألا تلاحظ يوديت أنني أكلت قطعة طباشيرها، غدا سأسرق لها واحدة. فكرت. إياك أن تفتش في دروجي مرة أخرى، قالت. فعلا أنا أختلس وأكتب وظيفة اللغة المجرية أيضا، قلت. لا يهمني ماذا تكتب، قالت. عفوا، قلت. طوال الوقت لم تكن أنت سوى دودة، قالت. ليس صحيحا، قلت. نكرة تافه، قالت. لست نكرة، قلت. أين وضعت آلة كماني، سألتني. لم أمد يدي عليه، قلت. أحضره على الفور، قالت. لن أحضره، قلت. قطاري يوشك أن ينطلق، قالت. لن أبقى هنا وحدي، قلت. تعلم إذن العزف على الكمان، قالت. لن تذهبي إلى أي مكان، قلت. لا وقت لدي لأضيعه الآن، قالت. الكمان في غرفة الرمم. قلت. أنت بائس، قالت، أنت عاجزة عن الحب، قلت. نحن متشابهان في هذا، قالت. أجل كان من الضروري إخفاؤه، فكرت، وحشره بين الأغراض التي لا لزوم لها، فكرت. هناك لن تعثر عليه أبدا، سأفتش عنه بين مناديل الجيب الملطخة بقذارتك، قالت. لا علاقة لها بها، قلت. هذا صحيح، كل امرئ سيكون سعيدا وفق الطريقة التي يعرفها، قالت. أنا على الأقل، لا يخونني عشيقي مع أمي، قلت. الحالة العكس تراها أنت أفضل، قالت. اخرسي، قلت. على نحو شاذ كأبينا، قالت. أغلقي فمك، وإلا قتلتك، قلت. أنت لديك الجرأة

لتقتل الجميع، قالت. انصرفي من هنا، قلت. لا تخف، سأغلق عينيك، قالت. دعيني أيتها الأفعى، عيناي لا، عيناي أبدا.

حين فتحت مصراعي النافذة لم أكن أدري كم يوما أمضيت مضطربا في الغرفة التي تفوح برائحة التقيؤ والحمى. كانت أستر تقف في الخارج على الرصيف المقابل. كان بودي أن أعود وأغلق المصراعين، لكنها كانت قد لاحظتني. لوحت لها أن تنتظر، فارتديت ثيابي على عجل، وأوشكت أن أنطلق، حين خطر لي، ماذا لو تصعد هي. لا، يستحيل ذلك، لن تأتي أبدا، فكرت، وإلا لكانت قد صعدت. نصف دقيقة كانت كافية للحياة، حين لملمت ثيابي الممزقة وشرشفي الملطخ بالتقيؤ، ودسستها مجعدة تحت السرير، وخطر لي عندها أن وجهي مدهون بالدم الاصطناعي الزائف ومن المحتمل أنها رأته. أجل لقد رأتني على حالتي تلك، وكيف عبرت إلى الحمام لأغسل الطلاء عني - وأمي جلست أمام المرآة كتمثال. ومنذ ذلك الحين مازالت جالسة هناك، فكرت، لا بد أن حالتها الآن مزرية، فكرت، كان من الخطأ السؤال من هي تلك المرأة، فكرت. لقد نفد خبزها منذ أيام، فكرت - وناديتها من الصالون أنني ذاهب إلى أستر، يا أمي، لأني أردت أن تعرف أنني لست ذاهبا إلى تلك المرأة، وقلت لها إنني سأحضر لها الخبز أولا.

- منذ متى أنت هنا؟ - سألتها.

- من الساعة الثانية - قالت وهي تذرف الدموع وتبتلعها.

- كم الساعة الآن؟ - سألتها.

- الخامسة والنصف - قالت دون أن تكون قد أجهشت بعد بالبكاء.

- تعالي، ينبغي أن أحضر الخبز لأمي - قلت ولففتها بذراعي، وسرنا صامتين إلى المتجر. كان شعرها ملفوفا كالكعكة كما تفعل النساء الأرامل. عيناها غائرتان، حتى إني فكرت أنه كان بوسعي النزول بثيابي الممزقة، ما دمت سأصارحها بكل ما حصل. سأتسوق، ثم أرافقها إلى البيت وأحكي لها كل شيء. أجل سأروي ما حدث، كما اعتدت أن أروي لها حلما من أحلامي، مع فارق أن هذا حدث قبل النوم، فكرت. وحين رأيت لتلك المرأة آثار أسنانها المزرقة على معصمي، امتلأت السلة بالمعلبات غير الصالحة للأكل، ومساحيق الحساء التي لا حاجة لها. سحبت كم سترتي بسرعة، وصرت أعرف أنني أقول دوما أي كذبة لأستر، إذا ما لزم الأمر.

- لا أسمع منك كلمة - قالت حين وصلنا المنزل.

- أصبت بالحمى.

- كنت عرفت ما خطبك على الأقل. كنت سأموت قبالة النافذة.

- قلت لك أصبت بالحمى. تناولت طباشيرة شقيقتي.

- لكن لماذا؟

- اشتهيتها. أردت أن ترتفع حرارتي، وأفلحت بذلك. هذا كل شيء.

- حتى إني ذهبت إلى دار النشر، لعلهم يعرفون عنك أي شيء - قالت، وأصابني مغص في بطني.

- إياك أن تقصدي ذلك المكان ثانية! مفهوم؟! لست في حاجة إلى وصاية أحد. بوسعي تدبر ما يخصني من قضايا - صرخت، وكان منها أن نظرت إلي متجمدة - كفاني! كفاني أسئلة

أمي أين كنت وأين تذهب، أتفهمين؟ وفري علي هذا. كنت محموما! التهمت طباشيرة وأصابتني حمى، مثلما يحدث حين أتغيب عن المدرسة! أريد أن أتغيب! ليس لدي متطلبات فارهة، بكل بساطة أريد أن أتهرب أتفهمين؟ لا تسأليني، ولا تتسكعي تحت النافذة. وأنا لن أسألك شيئا. سألتزم ولا أسألك كيف أمضيت حياتك قبل أن ترتادي المصحة. أنا لن أدخل إلى المصحة، مفهوم؟ حياتي شفافة بحيث أستطيع أن أقصها لك بكل اطمئنان. مفهوم؟ لا تتسكعي تحت النافذة حتى أعرف من يكون أبوك! حتى أتمكن من معرفة من اغتصبك كي تصلي إلى الجنون - صرخت.

- لا تأت إلى هنا بعد الآن - قالت بهدوء، وكدت أن أقبض على عنقها، لكني قمت بركل المكتب، فطار في الهواء، وسقط أرضا بكل ما عليه من أوراق، وقذفته بمفتاح المنزل. وكنت صرت في الصالون حين تحطم صندوق الآلة الكاتبة الخشبي على رقبتي من الخلف. حين عدت إلى وعيي كانت تجلس علي وتلكم وجهي.

- لم يغتصبني أحد لأصل إلى الجنون. مفهوم؟ دعني وشأني أيها التافه. إياك أن تدعوني بالمجنونة. اخرج من بيتي! اخرج من حياتي بلا رجعة، أيها الكاتب! - صرخت وانقضت علي تريد أن تمزق بأظافرها قلبي، وتلفه على بلعومي.

- انصرف، يا ابن الحرام - زعقت حين ثبت يدها على الإسمنت.

- سأقتلك! - صرخت حين مزقت عنها ملابسها.

- سأقتلك، وأقتل أمك! لا تلمسني - قالت باكية، وبصقت في وجهي، لكنها سرعان ما عادت إليّ.

من المحتمل أن المجيء كان من بوخارست، لكن من المؤكد على طريق ترانسفاغراش. من المحتمل أن تكون رقابة طرقية، لكن من المؤكد أن قائد الدورية لم يكن صاحب الزي الرسمي. ومن المحتمل في الليل، لكن من الممكن أن يكون في النهار.

لم يطلب صاحب الزي الرسمي سوى النشرة، لكن الرجلين المدنيين لم يصل بهما الأمر حتى إلى هذا. كان رأيهما أن من الخسارة الرجوع بحماس إلى الحقوق الدستورية، أي أن الرفيق الوزير لم يكن راضيا بعد جمهرة يوم أمس. وهكذا فمن المحتمل أن النائب العام لم يعد حيا حين أعيد زجه في السيارة، لكن من المؤكد أن سيارة الداسيا البيضاء ذات الألف ومئة سنتمتر مكعب، قد سارت مسرعة مسافة ثمانين مترا، وكان محركها متوقفا.

في بداية الأمر، لم تتشبث أديل فهير إلا بفتح التابوت، لكنها تاليا أصرت على تشريح الجثة، حتى عمدت أخيرا إلى ذكر الأمم المتحدة، والحقوق الدستورية، واتخذت إجراءات وقائية لكي لا يزجوا بها في دار المجانين. على سبيل المثال، كتبت إلى معارفها في الداخل والخارج كثيرا من الرسائل التي وصلت جميعها في النهاية إلى نفس العنوان، وأجرت أيضا العديد من الاتصالات الهاتفية، وكان دوما على الخط ثلاثة، أحدهم كان يصغي حتى النهاية. وباختصار، حين بات زجها في بيت المجانين محفوفا بالمخاطر، أعانها رجلان يرتديان الزي المدني لأن تلقي بنفسها أمام القطار بدافع حزنها على زوجها.

بعد ذلك حصل خطأ في الآلية، لأن السلطات لم تأت من أجل الطفلة إلا بعد أيام، رغم أنهم مسبقا كانوا قد أبلغوا دار الأيتام في ماروش ڤيتشي، أن يتيمة جديدة بعمر ست سنوات ستلتحق بالدار.

وبعد مضي نصف عام قامت المديرة، رغم تعليمات الجهات العليا، بتسليم أستر فهير إلى ذلك السيد العجوز الذي كان يمثل أمامها كل أسبوع بقميصه المنشى، وعصاه.

كان (مور فهير) الشيخ المسن واثقا من امتلاكه الحق، لكنه لم يلجأ إلى الرجوع إليه عبر أربعين عاما، بل أراد، بالرجوع إلى أسباب عاطفية، أن يحصل على حفيدته التي، لأسباب عاطفية أيضا، رآها للمرة الأولى في مأتم مور فهير الابن. وهذا يعني أننا أنصاف مجريين، ونصفنا الآخر ذهب أدراج الدخان، لكننا لا نجلب امرأة نصف رومانية حتى لو كانت إصلاحية (رفورم)، يا بني.

وهكذا بعد مضي نصف عام، قررت الرفيقة بورومب أنه إذا ما لزم الأمر، فإن أشد القضايا حساسية يمكن حلها بجرة قلم، بعمل ورقي بسيط، في ميتم، بالنهاية، سيان ما اسم هذا اليتيم أو ذاك، الترتيب أهم بكثير، وهكذا حصلت بنت غجرية خرساء، وصلت الميتم لتوها على اسم أستر فهير، أما البنت الحقيقية فكان بوسعها أن تغادر. ولقد قوى من صحة قرارها طبقان فضيان للفاكهة، أدوات طعام (ميسينية) لاثني عشر شخصا، وثلاث لوحات لمدنيسكي، ولم يخطر لها إلا مؤخرا أنه كان يمكنها أن تحصل على أكثر من هذا بكثير.

جلس السيد العجوز مع الطفلة - أستر الحقيقية، في الخلف، وقاد عربة البوبيدا ذات المئة عام، رجل تفوح منه رائحة الأحصنة. كانوا يبدلون الماء البارد كلما قطعوا مسافة كيلو متر واحد. ثم انحرفوا عن الطريق المعبد، إلى الطرق الترابية، وإلى مياه الترع، ولكن الفجر قد طلع عليهم حين وصلوا إلى مكان بعيد.

- أريد أن أتبول - قالت أستر أمام المنزل المشاد على ضفة البحيرة، وكان هذا أمرا بحد ذاته جيدا لأنها تنطق للمرة الأولى منذ نصف عام.

ومنذ ذلك الحين لم يقع أي خطأ طوال اثني عشر عاما، لأنه طلع من أنصاف الفلاسفة أنصاف الأرستقراطيين أنصاف المجريين، مصورون ريفيون، وطلعت قرى منسية على الخارطة، خاصة أن غابات الصنوبر، لا عيب فيها حقيقة.

ثم انزلق خطأ ما إلى ما لا عيب فيه، وبدأت الأنسجة تتسرطن، وصار بلوغ يوم غد من الأمور غير المرجوة، فطلب العجوز من أستر أن تأتي إليه بالطبيب (ومن هناك غير الطبيب البيطري) الذي اعتادا أن يلعبا معه الورق، والشطرنج أحيانا، لكنه عجز عن فعل الشيء الكثير. عمل ما عليه. ثم ساعدها على التخلص من البيت. ولم يطلب مقابل ذلك سوى بعض الكتب من مجمل عشرة آلاف كتاب، حتى إنه سعى لمعرفة أفضل من يتوجهون إليه في مكتب الهجرة.

إذا كان الرفيق فنيو المقياس، فإن الرفيق فولتور يوشك أن يكون إنسانا. أخرج من أحد الدروج جواز سفر، ووضع ثمنه في درج آخر. لكن ذلك قليل - قال، وأوصد الباب المبطن بالمفتاح، لأنه كان من البديهي أن من يعطي ثمن نصف المجمع السكني مقابل جواز سفر يمكن لأي كان أن يفعل أي شيء معه. لم يطرح كثيرا من الأسئلة، كان افتضاض البكارة نقطة ضعفه، وكان أكثر ما يفضله أن يلكم على وجهه خلال ذلك، وقد ترك هذه تفعلها مباشرة. لكن الحق يقال إن ما نواه ولعابه يسيل، قد فعله بكفاءة. أي: لا تخافي، ففي حال حصول أي خطب سيعتني الأطباء الهورتيون[25] بثقبك اليهودي.

- بعد ذلك، وصلت إلى محطة (نيوغات) بحقيبة، وأحد عشر ألف وثلاثمئة فورنت، وحينما أمضيت يوما آخر جالسة على مقعد

(25) يقصد هنا ميكلوش هورتي (1868 - 1957) وصي عرش المملكة المجرية من 1920 حتى 1944. كان ميكلوش ضابطا في البحرية النمساوية المجرية، شارك في الحرب العالمية الأولى. [المترجم].

قرب الخط الخامس، قادوني إلى غرفة الحرس، ثم إلى مشفى (لاسلو). آمل أن تكون الآن على أحسن حال.

تمددنا على ضفة البحيرة قرب المنجم. كان الظلام قد حل، وصار محل الفطائر، وبيع البيرة قد أغلق منذ مدة، ولم يبق في المكان إلا بعضهم جالسين تحت أشجار قزمة من الأكاسيا. قام أحد الآباء بإلقاء نفسه في الماء ليرى أفراد العائلة كيف تكون الغطسة الرأسية الصحيحة. ثم ما لبث هؤلاء يلملمون أغراضهم. أطفأ الرجال النار، وطوت النساء الكراسي، والطاولة، وأفرغ الأولاد الفرش من الهواء، ووضبوا كل شيء في سيارتي (زاستافا). أما نحن فبقينا هناك. استلقينا على ظهرينا. رحت أفتش في السماء عن الأقمار الاصطناعية، فلم أشاهد إلا أضواء الطائرة. يحتمل أنني سأخاف، فكرت. على الأقل طالما لا نصل إلى ما فوق الغيوم، فكرت. حيث من المؤكد أن المرء هنالك يتصور أنه قريب من السماء. ثم فكرت بأن من هم الآن في الأعلى لم يبق لهم فعلا سوى الله، حتى ولا غيمة واحدة بهيئة حمل.

- أرغب أن تنتقل إلى بيتي - قالت.

- تعرفين جيدا أن ذلك غير ممكن.

- بل ممكن. لا أقصد أن تفعل ذلك على الفور، أو أن تتخلى عن أمك. كل ما أرغب به أن نمارس حياتنا كبشر. ليس فقط نحن، بل هي أيضا.

- حتى كريستو لم يستطع أن يشفي إلا جثة طازجة.

- لا أتكلم عن جثث طازجة، بل عن أمك. لن تخرج أبدا ما دام هنالك من يوصد عليها الباب، ويشتري لها ما تحتاج، ويكتب لها رسائل زائفة. ثم إنها، برأيي، تعرف أنك أنت من يكتب الرسائل.

- لو كانت تعرف لعرفت أنها تعرف.

- ممكن. لا بأس. أريد منك أن تدعو يوديت إلى الوطن. هي الوحيدة القادرة على مساعدتها.

بدأت الرياح تهب. لففت نفسي بالغطاء، وأخذني الصمت.

- في تلك الفترة، سألت عنها هنا وهناك، لكن أحدا لم يسمع عنها شيئا. من المؤكد أنها بدلت اسمها - قلت.

- لا بد أن البنك في زيوريخ يعرف اسم الشخص الذي يرسل النقود.

- غير وارد.

- أعرف أحدا في الصليب الأحمر. سيجدونها أينما كانت.

- يمكن أن يجدوها، لكن لا يمكنهم أن يرسلوا عنوانها إن هي لم توافق.

- لم لا تريد أن تجدها؟ - سألت.

- في الحقيقة أريد.

- هذا الآن يساوي مئة لا.

- لا. أريد.

- مم تخاف؟

- لا أدري.

- على كل حال أنا أقول لك.

- طبعا. لكن لن أعرف حتى لو قلت.

- أرأيته؟

- ماذا؟

- الشهاب.

- لا.

- ابحث عنها، واذهب أنت لأجلها. لا تكتب لها بل اذهب إليها حيثما تكون.

- حسنا - قلت، ونهضت، ثم خضت في الماء إلى أن شعرت بالطمي تحت قدمي.

جاءت إحدى نشرات الأخبار المسائية بنبأ مفاده أن تعويضات سوف تمنح، دون أن يعرف متى، ولا عدد خطوط الإنتاج التي سيسترجعها كل من حفيد مانفريد ڤايس، ومدام غيدون زيختر، فقط سيبيريا وستة وخمسون يستحقون نقطة إضافية، أو إذا ما كان (داخو) أيضا ضمن قائمة المستفيدين، لكن شيئا ما سوف يحصل، كونوا على ثقة من ذلك مشاهدينا الأعزاء. وما يمثل أهمية بحد ذاته هو أن بوسعنا متابعة هذا الموضوع في فترة برامجنا الرئيسية، وما الذي نبتغيه أكثر من ذلك؟ أي أن هنالك الكثير من الأراضي، الكثير من الغابات، الكثير من القصور التي أصبحت مراكن للتراكتورات مثل القشر، وكلها بانتظار أصحابها القدامى، فما عليكم إلا أن تتكرموا وتخرجوا سندات الملكية وعقود الشراء من الأدوار العلوية، والخزائن، - وما إن أنهوا إذاعة النبأ حتى استحضرت أمي معجم ريڤاي، والمقاطعات المجرية، والأطالس، وكتب شعارات النبالة، وراحت تكتب ما لها من ملكيات، دون أن يكل لها أي اضطراب على وجه الخصوص إذا ما كانت إطلالة أحد القصور على ثلوج رادناي، وعلى مجمعات بوجوني، غير مبالية بالحدود، ولا بمعاهدات السلام، وأزاحت المتاحف، وهدمت بيوت الحرمات، وسجلت كل ما تصورت أن ملكيته تعود إلى عائلة (ڤير)، فنظمت قائمة بالشوارع التي أعيد بناؤها منذ مدة طويلة، والمصانع، والمناجم التي سبق أن دمرت بالقصف وانهارت.

ناولني الآلة الحاسبة، يا بني.

- تفضلي يا أمي. وجهيها نحو المصباح لأنها لا تعمل إلا هكذا. وراحت تحسب كم من القمح ينتجه خمسون ألف هكتار، وكم من الأمتار المكعبة خشبا يعطي نصف ماترا، وربع باكوني، ولم يكن ليجدي نفعا إن قلت لها إن ملكيتنا هي هذه الثمانون مترا مربعا، يا أمي. وحتى أم جدتي، لم يكن ما تملكه يفوق ذلك بكثير، أما جدتي فلم تكن تملك حتى هذا المقدار. وإن أحد القصور صار يتبع للخارج، والقصر الآخر دار للأيتام. حصلت على الاستمارات اللازمة وساعدت أمي في ملئها، وكانت هويتها الشخصية قد فقدت صلاحيتها منذ مدة ثم وضعت كل الأوراق في مغلف، فبدت بحجم رواية بطولية، وألصقت عليها طابعا قديما، وقمت أنا بوضعها في الدرج وأقفلت عليها.

ثم جاءني مغلف بنفس هذا الحجم، وبدلا من اسم المرسل كتبت عليه عبارة: برد الشاي. في البداية أردت أن أعيده دون فض، لكني اكتشفت أن ذلك سيكون مضحكا، فقمت بغلي إبريق شاي بالنعناع، وجهزت بعض البسكويت إلى هناك، ثم انصرفت إلى عمل التدقيق. كان من الأفضل بكثير لو تساعدني أستر، لكني لم أرغب في أن تكون مجددا على مقربة من تلك المرأة. حتى إني لم أذكر أن المسودة قد وصلت، فرحت أقرأ كتابي كلمة كلمة مثل تلاميذ المدارس الابتدائية. استغرق التصحيح ثلاثة أيام لأن المنضدة لم تفهم مثلا أن (أينكنتيابني) أردتها أن تكون كلمة واحدة، وأن كلمة (الله) عند التجديف أردت أن أكتبها بأحرف كبيرة، امتثالا للآداب. وحين أنهيت عملي، وضعت كل شيء في مغلف، ثم أرسلته بالبريد. لكنه عاد إلي بعد بضعة أيام لأنني عنونته إلى مكتب التعويضات

بـدلا مـن دار النـشر، فقـرر المكتـب أنـه لا يقبـل طلبـي للتعويـض دون إرفـاق الاسـتمارة الضروريـة، فحملـت المغلـف وقصـدت شـارع (أنـدراشي) لأضعـه في صنـدوق البريـد.

- جيد - قالت حين فتحت الباب.

- لم يتسـع لـه صنـدوق البريـد ـ قلـت، ولم ترتجـف عينـاي لأننـي انتظـرت في الخـارج إلى أن غادرتنـي نوبـة الاختنـاق، وعندهـا فقـط ضغطـت عـلى زر الجـرس.

لا بـد أنهـا خرجـت مسرعـة مـن تحـت الـدوش. التصـق المعطـف الأبيـض هنـا وهنـاك عـلى الجلـد الأسـمر (عمـدا)، ومـن تحـت عمامـة رأسـها تدحرجـت قطـرات المـاء عـلى عنقهـا، لكـن نفـس رائحـة اللـوز الحامضيـة، حتـى بعـد الاسـتحمام، كانـت تفـوح مـن مسـامها، كرائحـة مناديـل أمـي الورقيـة في سـلة المهمـلات، كأنهـما كلتيهـما تتعرقـان السـيانيد. كـما لـو أن غددهـما أكيـاس مـن السـم. أمـا أنـا، فكأننـي في البيـت، أو عنـد أسـتر، أخرجـت زجاجـة نبيـذ مـن الثلاجـة، وأحـضرت قدحـين مـن المطبـخ.

- عنـد السـاعة السـابعة ذاهبـة إلى المـسرح، أتـأتي معـي؟ - سـألت، وهـزت الزجاجـة رافعـة إحـدى رجليهـا عـلى الكنبـة، ثـم أخـذت تلمـع أظافـر رجليهـا.

- لا أرتاد المسرح حتى وحدي - قلت.

- آآآ، عفـوا. غفلـت عـن إصاباتـك النفسـية، عـلى أيـة حـال، في مـرات أخـرى اتصـل بتلـك الفتـاة المسـكينة، حـين تغيـب عنهـا لأيـام. أمـر محـرج بمـا فيـه الكفايـة أن تبحـث عنـك في دار النـشر. قـد يـزل لسـاني في نهايـة المطـاف.

- إياك أن تجرؤي - قلت.

- أما عن الجرأة، فأنا أجرؤ. لكن ألا تلاحظ أنك ترفع الكلفة حين تخاطبني؟ أوشك أن أكون أمك.

- الأفضل أن تبتعدي عن التشبيه - قلت.

- المهم ألا نتعامل بالصفع. وكل ما تبقى على ما يرام. ذلك ما لا أحبه.

- في أقرب وقت إذن، قدمي نفسك على نحو لائق، قبل أن تباعدي قدميك.

- لا أدري لم ينبغي تضخيم هذه المسألة. أنت لست الوحيد الذي يعاشر عشيقة والده. حان الوقت كي تتعاطى بذكاء أكبر مع مثل هذه الأمور. هذا لا يقل أهمية عن اللغة الإنجليزية.

- يبدو أنني مازلت أحتفظ ببعض الميزات الإنسانية - قلت.

- كأنني سمعت من قبل مثل هذا القول. على أية حال، مقابل ما تتمتع به من ميزات إنسانية، فإنك تجيد الضرب إجادة كافية. خطر لي: أمس أرسلت إلى باريس الترجمة التجريبية. في رأيي، أنت تهمهم. وجود هذا الكم من البراءة المؤثرة في كتاب، يعد من النادر هذه الأيام.

- لا يهم - قلت.

- كيف لا.

- من الأفضل أن أرحل.

- ولم أتيت أساسا.

- يحتمل لكي أنام معك.

- كما ترى، يا صغيري، هذا مثلا ميزة إنسانية. ليس هناك ذكر يقول لكلبة مثل ذلك بصراحة.

- أظنك أحببت أبي لهذا السبب - قلت.

- لا تضحكني. قطتي هي من أحببت، رغم صعوبة معاشرتها، وأحببتِ أمك أيضا إلى أن قامت بطحن القطة. على أية حال كانت تستخدم مطحنة اللحم نفسها لتحضير طعام الأطفال لكما. أبوك نظف الجزر، أنا طبخته، وأمك طحنته. هكذا قسمنا العمل.

- فعلا، من الأفضل أن أرحل - قلت ونهضت.

- كما تشاء يا صغيري. من المفيد أحيانا أن يعرف المرء بدقة كم يحتمل من الحقيقة. على كل حال، حتى أنا لا أتمتع بمزاج للحنين إلى الماضي.

- بل أحتمل المزيد من الحقيقة - قلت.

- يمكنك الجلوس إذن. لا أملك ذاكرة وقادة للبعيد، كذاكرتك، لكنني غسلت حفاضاتك.

- قد تكونين عرفت أمي، وعاشرت أبي، لكنني لا أظن أنك في يوم، قمت بغسيل حفاضات.

- أقمت عندكم لسنة وبضعة أشهر، واثني عشر يوما يا حياتي، لم تكن فترة رخاء وطمأنينة، لكنها انقضت على نحو ما.

- غريب، لكني مازلت أتذكر حتى غرفة الأهل.

- لا بد أنك تتذكر إذن أنه حين كانت أمك تغني الأناشيد العمالية في المراكز الثقافية الريفية، وكان أبوك يضرب على الآلة الكاتبة في الداخلية إفادات الشهود المزورة ومحاضر الاستجواب، كان هنالك أحد يعتني بنظافتكما.

- كان أبي ناقدا - قلت.

- طبعا يا صغيري: هذا تصريح جيد، هذا تصريح غير جيد. لا تبتئس، لم يكن هو من يقرر ذلك. كان مجرد رجل أمن هادئ. هنالك حقق ذاته، وإن كان الأمر يطمئنك، فإن الرفيق يوردان هو

من جاء به إلى وزارة الداخلية كدودة ملفات، فقط من أجل بنته. كي تحصل صديقتي (وهي من طبقة أخرى) على مسكن.

- وعندئذ، أظن أنك من جعل من أمي ممثلة.

- لا، يا حياتي. بل بعد بضع سنوات، وبسبب أمك، طردوني من المسارح، ولم يكن أمرا مهما على أية حال، فلم أكن على معرفة حقيقية بالدراما. لا عليك من هذا. لكن ما لا أنفيه أنني فوجئت بلذة العلاقة معك.

- أنت مضحكة.

- أرى أننا بلغنا سريعا حد التقبل - قالت.

- مهما قالت، لن أبدي حركة - فكرت.

- هذا مثلا، سمة من سمات أمك - قالت، ورجت الزجاجة مجددا.

مهما قالت، لن أبدي حركة - فكرت.

- بالنسبة لها أيضا كانت الحقيقة تشكل عبئا ثقيلا. أظن أن هذا ما دفعها إلى الجنون - قالت، ورفعت إحدى ساقيها على الطاولة الصغيرة.

ما دمت حيا، لن أقدم ثانية على ضرب امرأة - فكرت.

- هلا ناولتني حقيبتي؟ - سألتني، فناولتها. فتشت بها قليلا وألقت في حضني بطارية صغيرة - تجد في الحمام شيئا سيليكونيا، ضع المدخرة فيه - قالت.

لم أفهم في البداية ما هذا الشيء السيليكوني، حتى قالت لي: اصطناعي.

حين خرجت فجرا إلى شارع أندراتي الذي يغمره المطر، كان ما يزال يتملكني فزع أشبه بفزع البهائم في الغابة عند انكسار

غصن، أو حين تذرو الرياح التربة في دغل، لكني سرعان ما استحال فزعي إلى يقين بأنها تريد قتلي. أجل ببساطة، تريد القضاء علي. تضع شيئا في فنجان شايي. هناك أنواع من المركبات الكيماوية، لا يكشف عنها في المخابر، ويكون تأثيرها متأخرا كسم الجرذان الذي لا يقتل جرذا إلا بعد بضعة أيام تفاديا لشك الجرذان الأخرى - فكرت. وكم أشرب شايي في مرات قريبة. ثم فكرت بأنها امرأة مريضة. أجل. مريضة دم. مثل هؤلاء النساء يعانين جميعا من أمراض الدم. وتسكت عن مرضها، لأنها بذلك تستطيع قتل أستر أيضا. إنها تكره أستر قدر ما تكره أمي على الأقل، فكرت، ولوقاحتها الفائقة، لم تتعقبها حتى الآن. إنها تضمر القتل، فكرت. وحين لم أستطع النوم منذ ست وستين ساعة، فقد ذهبت وأجريت تحليلا للدم، رغم أني لم أدع طبيبا يمد يده علي بعد آخر مرة كانت في طفولتي.

وفي كل مرة كنت أخرج فيها من ذلك المنزل، كنت أتخذ قراري أنها المرة الأخيرة. لكنني لم أكن أحتمل حين يمر أسبوع. وكما يجيد مدمن المورفين استخدام الحقنة، أخذت أنا استخدام شفرة الحلاقة لتعديل خموش الأظافر على عنقي، لكي تبدو وكأنها جروح حصلت خلال حلاقة ذقني. وصرت أبرر تأخري بلقاء معارف لا نراهم، أو بتوقف المترو في النفق إثر صفارات الإنذار. وكنت أغتسل في حانة بلقان، وأستخدم معجون التنظيف العابق برائحة الكلور لإزالة رائحة اللوز الحامضية.

- فظيع، تفوح منك رائحة الكلور - قالت أستر.

- حمميني إذن - قلت، وخلال العاشرة وصل صراخها إلى حد جعل الجيران يظنون أنني أضغط سكينا في حلقها، رغم أني لم أفعل

بعد. وحين عرفت أن أبي قد كف عن الزيارات ليس بسبب موته التراجيدي المفاجئ الذي ليس هنالك المزيد من الحديث عنه، بل لأنه نسي أن يعود من بوسطن كمرافق لوفد صحافي، وهو المؤتمن على عودة الجميع، وحين عرفت أنه، من قبل، ومن الأموال التي حصل عليها ثمنا للمستندات المسروقة من خزانة الرفيق يوردان، قد أسس مذهبا يدر عليه ربحا وفيرا نسبيا، ثم صار شريكا في مصنع الأسطوانات، وأن الرفيق يوردان - وفقا لقواعد اللعبة - قد انتحر برصاصة أطلقها في رأسه بمسدس الخدمة، أقول: حين عرفت ذلك سألتني أستر: ما خطبك بحق الله، تبدو مجددا كمن أكل طباشير.

الحياة مستحيلة هكذا، حتى الحيوانات لا تحتمل، فكرت. الآن حالا سأحكي هذا الكابوس كله، فكرت، ولكن حين خرجت من المدخل، رأيت أستر تجلس قبالته في تراس مقهى الفنانين. لم تنظر إلي، بل نهضت ووضعت النقود على الطاولة ومضت مسرعة، وكان علي أن أجري وراءها. شعرت بدوار لحظي أشبه بما ينتاب المرء حين يقف فجأة. ثم انطفأت مصابيح الشارع، وأضواء الواجهات، وسكتت أصوات الحافلات، واختفى الرصيف من أمامي. سقطت في دوامة الظلمة، وبتعبير أدق، سقط شيء ما، ليس في دوامة الظلمة، فهذه تشف عن شيء ما. في هذه الأثناء خرج الناس من دار الأوبرا. قال أحدهم: دعه، سكير، لكن الآخر انحنى وجس نبض عنقي.

- ينبغي استدعاء الإسعاف - قال.

- لا أملك فكة للهاتف - قال الآخر، ثم سمعت صوت امرأة تقول إنها تملك الفكة، وفيما كانت تخرجها من الحقيبة، كانت

عيناي تريان، صحيح أن كل شيء كان ما يزال أسود - أصفر، كما حين يوجهون الفلاش في عيني المرء.

- لا - قلت، وحاولت الاستناد.

- ابق على حالك، سأدعو طبيبا على الفور - قالت المرأة.

- لا ضرورة - قلت، وباعتمادي على ذراع أحدهم نجحت في الوقوف على قدمي.

- لا يمكنه الذهاب إلى أي مكان وهو على هذه الحال - قال الرجل.

- دعني! - قلت، وحررت معصمي من قبضته.

- أمر فظيع - سمعت صوت المرأة، لكني كنت قد أسرعت. وحين أيقنت أن أحدا لا يتبعني وقفت عند أحد المداخل لأستعيد رشدي.

سرت على قدمي حتى شارع (ناب)، وكأنها نصف ساعة مسير ذات أهمية، وكأن شيئا مهما يمكن أن يحصل خلالها. كان علي أن أدعهم يستدعون الإسعاف، فكرت. من المؤكد أنها ستزورني في المشفى، فكرت. عندما يعلقون السيرومات سيبطل مفعول كل شيء آخر، ويحصل الصفح. ثم ناداني أحد من العربة قائلا: ألا ترى؟ هل أنت أعمى؟ ماذا لو أخذوا يطلقون النار؟ فكرت. ماذا لو أمطر الروس بودابست بالرصاص. فكرت. حين يلعلع الرصاص، سيغدو كل شيء سيان عندها من ارتكبت معها علاقة، فكرت. لا أهمية عندئذ إلا من نسحب معنا إلى الملجأ.

استلقت على الفراش وكأنها نائمة.

- أنا أشمئز من تلك المرأة - قلت، لكنها لم تجب. أضاءت مصابيح الشارع، وكان من الأفضل ألا أرى شيئا - أكرهها، أتفهمين؟ لكني لا أستطيع أن أتخلى عنها - قلت. فتحت عينيها.

- مـا الـذي تريـد أن تتخـلى عنـه. - سـألت ناعسـة، ثـم فتحـت ذراعيها لتعانقنـي - ظننـت أنـك لـن تـأتي هـذا اليـوم - قالـت، وفاجأني أنهـا لا ترتـدي ثوبـا رماديـا فاتحـا.

قبـل أن أصعـد آخـر مـرة إلى يـوردان، خططـت كل شيء عـلى ورقـة ميلليمتريـة بالمسـطرة والمنقلـة. بدقـة مهنـدس حـددت مـكان كل كلمـة وحركـة، صممـت العبـارات مسـبقا، ثـم حفظتهـا عـن ظهـر قلـب. أمـام البـاب اسـتظهرت مـا حفظتـه، ثـم قرعـت الجـرس، وتركـت كل شيء يحصـل كـما في زيـاراتي السـابقة كلهـا.

كانـت لتوهـا تسـتعد لحفـل اسـتقبال في إحـدى السـفارات، حيـث يمكننـي حقـا أن أرافقهـا، دون لفـت الأنظـار إلى علاقتنـا. تحدثـت بأمـور شـتى، ثـم سـحبت مـن أحـد الـدروج رصاصـة المسـدس التـي ثقبـت الحائـط بعـد اختراقهـا جمجمـة الرفيـق يـوردان. تـدرك جيـدا أن الرصاصـة تعنينـي، بالقـدر الـذي يعنيهـا عـلى الأقـل، لكنهـا لسـبب مـا زالـت تتشـبث بالتـذكارات الماديـة. حتـى إنهـا قـد تقلدتهـا في فـترة سـابقة حـين انجذبـت للفضـة، لأنهـا لا تحـب الذهـب، عندمـا كانـت تخـشى المـوت ومالـت إلى الحساسـية والكآبـة.

- ربما، فيما بعد، إن صرت تستحقها - قالت.

- أنـت عـلى يقـين أننـي سرعـان مـا أسـتحقها - قلـت، وقبضـت على صدرهـا الغجـري، وفيـما كنـت أنتـزع عنهـا كل خروقهـا، اسـتظهرت لنفـسي مـا حفظتـه، ثـم نهضـت واقفـا.

- الحقيقـة أننـي أقرفـك - قلـت، ومسـحت لزوجـة يـدي - أظنـك كنـت تأملـين حيوانـا أليفـا، فاصطـدت ضبعـا بـدلا مـن كلـب.

- خاب أملك - قلت ورفعت سحاب بنطالي.

هل أستدعي لك أحدا من الشارع. لديك ما يكفي من الوقت للالتحاق بالحفلة - قلت، وارتديت سترتي.

- أنت تحاول أن تقرف نفسك، يا صغيري، لكن ليس من السهل عليك ذلك، عليك أن تعمل قليلا بعد. أنت لا تتصور كم بوسع المرء أن يصفح لذيله - قالت، وكنت على الدرج أسمع قهقهاتها العالية.

أين كنت يا بني؟

في الحقيقة، كنت عندك يا أمي.

من المحتمل ألا يكون أحد من الحي قد رآها، لكن الجميع قد سمع عنها من هنا وهناك. بدأت الوشوشة بأن هذه الفتاة هي السلاح العجائبي الجديد الأكثر خطورة من النابالم، وحيث يغرسونها لن تكف ماكينات صناديق المحاسبة عن العمل، يشترون الملابس الداخلية كما كانوا يشترون اللحم المقدد الهتلري سنة أربع وأربعين - وراحت النساء يقترن في مصروف المطبخ، فيتسوقن نقانق الخنزير بدلا من الدجاج الطازج، ويقتصدن يوم الأحد في شراء السجق المحشو بالكبد، أملا في توفير ثمن ذلك الدريسكومبي: رباط عند الصدر، مفتوح من الأسفل، دريكسومبي لترقيع حالة الزواج التي باتت مزرية. وفعلا، في صباح يوم الإثنين كانت الملصقات تتصدر واجهات سلسلة متاجر (أرانبوك) (العنكبوت الذهبية). واحتشدت الخليقة تنتظر أمام (ناعومي) بالحجم الطبيعي، بدءا من المومسات المترهلات، حتى ذوات القدود الممشوقة كالظباء. كانت ناعومي تصغي للجميع بوجه لا يرف له جفن، إلا أن ماكينات المحاسبة لم تعمل كثيرا بعد أن تبين أن الاقتصاد في شراء سجق يوم الأحد ينبغي أن يطبق

نصف سنة أخرى على الأقل لإتمام ثمن دريسكومبي. إلا أن العم (ليغاتي) كان على صلة بشركة العنكبوت الذهبية لأن ابنته كانت تعمل محاسبة صندوق في متجر بست الجديدة، فحظي بملصق (ناعومي)، بحجم طبيعي، وحين قاموا بمساعدة السيد ڤيرتش بفرش الكرتونة المطبوعة بالألوان فوق الأرضية، ثم ثبتوا على زواياها أربعة من أباريق البيرة كي لا تتجعد، نطقت يوليكا قائلة بأن الأمر هكذا ليس حسنا، ولم يجدها ذلك نفعا لأن أحدهم، بعد مضي نصف دقيقة، وقف على الطاولة كي يتمكن من رؤية ناعومي على نحو أفضل، وطالبها الكثيرون بأن تنزل هذا التعيس وتجد طريقة تمكنهم من رؤية هذه الظبية، فما كان من يوليكا إلا أن قبضت على دلو الممسحة وسكبت ما فيه على عنق ناعومي، ثم أخذت تضربها بكعب الحذاء وهي تصرخ أن من يريد أن يتفرج على مومس، فليذهب إلى الساحة، وأنها سوف تغلق هذه الحانة، ولا ترغب أن ترى بعد أيا من هذه الوجوه.

- هدئي من روعك - قلت.

- اسكت أنت، وإلا طردتك أيضا - قالت، وقذفت بمنفضة السجائر أمامي - كيف تفكرون؟

- كل ما هنالك أنها أعجبتهم - قلت.

- مجرد دودة أثيوبية.

- ذائقتهم هكذا.

- هل كنت لتحتملهم؟ لو كانت جميلة، لاختلف الأمر، كنت أتفهمهم. لا تظن أنني لا أتفهم ذلك. لكنها.. أبدا، كيف تثارون لها؟ استأصلت بروستاتك، وتأتي بهذه الصورة.. إلى هنا؟ لم لا تأخذها إلى البيت؟ خذها إلى البيت، واعرضها لزوجتك العجوز مدام ليغاتي.

- الحق معك يا يوليكا - قلت، ثم جلست لبعض الوقت، أستمع إلى أحداث الظهيرة، وبعدها عزمت أن أفتح الطرد الذي أحضرته صباحا من البريد.

الحقيقة أنه لم يثر في أية مشاعر. كان مثلما تصورته تماما، وعلى نحو ما، لم يكن ليشبه كتابا حقيقيا. كان أشبه بمسند خزانة مقلقلة فوق أرضية هابطة. أخرجت شفرة جيليت من محفظتي، وقصصت الصفحة ما قبل الأخيرة من إحدى النسخ، لأنني لم أشأ أن تعرف أمي من حرر الكتاب.

- وما هذا؟ - سألت يوليكا.

- سيكون لعيد الميلاد - هذا ما قلته لأنني لم أجد إجابة أفضل، ولم أستعد لمثل سؤال كهذا.

- مازال الوقت باكرا - قالت.

- لا أحب أن أكون في اللحظة الأخيرة على عجلة من أمري - قلت، وأرجعت النسخ المجانية سريعا إلى المغلف الورقي البني، ثم دفعت حسابي.

- أين كنت يا بني؟

- صدر كتابي، يا أمي.

- هذا لا يلزمني يا بني، قالت، وتابعت مشاهدة حلقة أوبرا الصابون لعصر يوم الجمعة، لكني وضعت على الطاولة النسخة التي خضعت لرقابة الشفرة، وأغلقت الباب، ورحت أتنصت من الصالون، بعد دقائق صرت نوابض الكنبة، وامتزجت تنهيدات الفتاة العبدة الأرجنتينية، أو البرازيلية، مع حفيف تقليب صفحات الكتاب دفعة واحدة، ثم سمعت كيف تتصفحه صفحة صفحة. عرفت أنها تفتح الصفحة الرابعة والثلاثين أولا. على (قصة التمثيل)، لأنها المفضلة لديها.

ملأت فنجان قهوة. وانشغلت لاحقا طوال فترة العصر، بما سأكتب لأستر. ورد من رأسي تفاهات كثيرة تصلح للمسلسل التلفزيوني أوبرا الصابون، ولم يبق منها في آخر المطاف إلا: إلى زوجتي، لاعتقادي أنها ستبتهج لهذا الخطاب أكثر ما تبتهج. في ساحة كالڤين ابتعت وردة، ومضيت إلى أمام المكتبة في وقت إغلاقها، لكن إحدى زميلاتها هناك أبلغتني أنها غادرت منذ ثلاث ساعات بصحبة امرأة حمراء الشعر، مسنة، فشكرتها طبعا.

سرت في شارع أندراشي قاصدا (يوردان)، لكنني لم أجدها هناك، فتناولت في مقهى الفنانين فنجان قهوة آخر مع قطعة جاتو لأني كنت أتضور جوعا. أهديت الوردة للنادلة امتنانا مني لأنها تعرف أنني لا أطلب الكريم مع القهوة بل أحتسيها مع الصودا. قالت لي النادلة إنني الآن أكثر رجال المدينة برودة فقلت لها: (أنا أيضا ظننت أنك هكذا)، ثم صححت كلامي قائلا بأنني بالطبع لا أعني رجولتها، بل الكيفية التي وضعت بها الصودا أمامي، وضحكنا على هذا.

وضعت الكتاب في جيبي لأن أردت أن أعطيه لأستر، ثم ذهبت ماشيا حتى شارع (ناب)، كي أفسح لهما مزيدا من الوقت للتحدث إن كانتا هناك. طوال حياتي لم أشعر بمثل ما أنا عليه الآن من خفة. وفي ساحة راكوتسي سألتني مومس إن كنت أرغب بنصف السعر، فأجبتها أن أمي لا تسمح لي، ثم أشعلت لها سيجارة وتحدثنا. كانت فتاة جميلة جدا، كذبت علي قائلة بأنها ستستمر في هذا الفعل حتى تدخر ما يكفي لشراء منزل مع صديقتها في (ويكرلي)، فكذبت عليها بدوري قائلا إنني أكتب مقالات نقدية مسرحية، وإجمالي ما يدفعونه لي ألف فورنت للمسرحية الكوميدية، وألف

وخمسمئة للتراجيدية، لأن الكتابة عنها أكثر مشقة، أمر مضحك. كان بودي أن نستمر بالحديث، لولا قدوم القواد، فطلبت مني أن أنسحب حالا إن كنت لا أرغب في شيء.

تعربشت أستر بعنقي وراحت تقبلني. غمرني أحمر الشفاه، كان عليها من الطلاء ما يعادل كل الذي وضعته خلال سنوات.

- هاته - قالت، وراحت تفتش في جيبي، ثم وقفت أراقبها وهي ترتمي على الفراش وتتصفح الكتاب، وتشمه كرسالة حب، لتشعر برائحة الصمغ وحبر الطباعة. ثم انتبهت إلى الإهداء: (زوجتي) الذي نسيت أن أقصه.

- هل هذا طلب يد فعلا؟ - سألت، وسالت دموعها سوداء من كثرة الكحل.

- أجل، لكني نسيت إشارة الاستفهام في النهاية - قلت، وخلال ذلك شعرت برائحة اللوز الحامضية تفوح من الجدران.

- لكن يمكنني الآن أن أجيب بنعم؟

- دعينا أولا نجد قسا يقبل بتزويج كافرين.

- لم أعد الآن كافرة - قالت، وراحت تجهش بالبكاء متشبثة بعنقي، حتى بشرتها تشربت رائحة تلك المرأة.

- هل أنت سعيدة؟

- ألا تراني؟ ماذا أفعل كي تلاحظ أنني سعيدة؟

- مثلا، قفي في البانيو كي أغسل عنك هذه الطلاءات.

- يتعذر ذلك الآن. علينا أن نسرع.

- إلى أين؟ سألتها.

- سنذهب إلى العشاء عند التاسعة. عليك أن ترتب نفسك قليلا. تصور، جاءتني اليوم إلى المكتبة محررة كتابك ودعتني للعشاء -

قالت، وغمرتني بالقبل، ثم أسرعت إلى الحمام كي تجدد مكياجها.

- آها - قلت.

- لم تمض ساعة على انصرافها. تحدثنا عنك طيلة العصر.

- حقا؟ - قلت، وكنت أنظر من الباب كيف تحاول أن تضع طلاء أظافرها بانتظام، لكن لم يكن لديها الخبرة، فكان الطلاء يلوث جلد أصابعها.

- امرأة لطيفة جدا، لا أدري ما خطبك معها. ليست ثقبا ثقافيا على الإطلاق، كما تعتبرها.

- ممكن.

- في رأيها، أنت عبقري حقيقي، لكن ما يقلقها أنك لا تتعلم الإنجليزية على الأقل. رجتني أن أجلس إلى جانبك بالكرباج لأنها الطريقة الوحيدة التي تجعلك تتعلم.

- سننظر بالأمر فيما بعد.

- ليس (سننظر). إنها محقة تماما. يمكن الحصول على سياط صغيرة حلوة - قالت، ونفخت أظافرها، لكي تجف بسرعة - قالت بأن الطبعة الفرنسية لن تطول، وربما الألمانية أيضا.

- لا أصدق - قلت.

- رائع جدا، لكن لا تكن مغرورا - قالت، وأرادت أن تقبلني، لكنها فطنت إلى أن أحمر الشفاه سيزول مجددا، وستضطر لإعادته مرة أخرى - ماذا ألبس؟

- لا شيء - قلت.

- لا يمكن أن أذهب بالقميص. هلا ناولتني ثوب الدانتيل الأسود.

- لن أناولك إياه.

- أرجوك. علينا أن نسرع.

- لن نذهب إلى مكان - قلت، ورأيت كيف تجمدت سحنتها.

- في انتظاري عند التاسعة - قالت، وحملقنا في المرآة.

- لا يهمني متى ستنتظرك. لن تشاركي هذه المرأة المائدة.

- بل سأذهب - قالت، ووضعت الطلاء على الرف، وقد حرصت ألا يصدر صوتا.

بقينا لدقائق متسمرين، لا يبدي أي منا حركة. كان من الأفضل أن تتحطم المرآة، وتمزقنا إلى نتف، لكن لم يحصل أي شيء. حتى نبضات قلبينا تعذر علينا سماعها.

- غير ضروري - قلت، فقط لأن السكون لم يعد محتملا.

- منذ نصف سنة - قلت، وكنا مازلنا نحملق في المرآة.

- لم أسألك - قالت، ثم أمسكت بالمنشفة، ومسحت عنها كل شيء، وكان وجهها كوجه جثة.

- أردت أن أحكي لك، لكن يتعذر ذلك - قلت.

- لا تحك إذن - قالت.

- لا، ليس هنالك ما أحكيه! أكره تلك المرأة. منذ أن سمعت صوتها، أكرهها! هذا كل ما في الأمر.

- لا تصرخ.

- منذ نصف سنة، وأنا أقرف كل هذا!

- فهمت - قالت.

- أنت أرسلتني إلى هناك. أنت أردت هذا الكتاب المزري! أنا لا حاجة لي به! كل ما أحتاج إليه أن تسعدي أنت لكاتبك!

- أفهم - قالت.

- لا تفهمين! لم أرسلتني إلى عشيقة أبي؟ كان عليك أن تعرفي!

أجـل كنـت تعرفـين ذلـك حـق المعرفـة!

- لم أعرف - قالت.

- لا تكـذبي! هـذا مـا أردتـه أنـت! أردت أن تلوثينـي، لـكي لا أسـألك عـن وسـخك! أنـا لم أعـاشر مـن أجـل جـواز سـفر، ولم أقتـل أحـدا!

- أفهم - قالت.

- طبعـا تفهمـين، أنـت قاتلـة. مـن سـمحت بتنويـم جدهـا، هـي مجرمـة.

- أجل - قالت.

- تركـت جـدك للإهانـة كابـن حـرام، كي لا تقومـي بالعنايـة بـه! أنـا أعتنـي بأمـي! لا تحملقـي. أنـت مزريـة. لـن تسـتطيعي تلويثـي. قلـت لـك لا تحملقـي!

- والآن، انـصرف - قالـت، وعندئـذ صفعتهـا، فسـال الـدم مـن فمهـا، ولكنهـا ظلـت واقفـة تحملـق. نظـرت إلي كـما تنظـر إلى قطـع معدنيـة، أو إلى مبصقـة، أو إلى كماشـة طبيـة، فخرجـت مسرعـا مـن البيـت.

وفي الليـل أخـذوا يركلـون بـاب المدخـل، وحـين خرجـت لأرى، كانت أمـي قـد تصلبـت في المـوزع، وقبضـت عـلى البلطـة التـي علقتهـا هنـاك عـلى مشـجب الملابس.

- أرفض أن تفتح - قالت.

- ادخـلي يـا أمـي - قلـت لاعتقـادي أن أسـتر تقصـدني، لكنهـا هجمـت عـلى أمـي.

- أمـا آن لـك أن تمـوتي أيتهـا التافهـة! أرجعـي لي ابنـك - صرخـت وأطاحـت بأمـي عـلى الأرض - آن لـك أن تفطـسي! - قالـت منتحبـة، وبمشـقة كبـيرة اسـتطعت أن أنتـزع البلطـة مـن يـد أمـي، ثـم أبعـدت بينهـما.

- خذها من هنا! اطردها حالا - صرخت أمي.

- ادخلي إلى غرفتك! - قلت.

- أخرجها. آمرك أن تلقي بها إلى الشارع!

- أرجعي لي ابنك! أرجعيه! لا أريده أن يواعد النساء بدلا منك! لا أريد أن أموت به. - انتحبت، وأرادت أمي أن تفقأ عينيها.

- ادخلي! - صرخت بأمي، ودفعت بها إلى غرفتها، وضغطت الباب برجلي، راحت أستر تكيل لوجهي الصفعات بكلتا يديها إلى أن انهارت أرضا.

- ما الذي تبغينه مني؟ - سألت أمي.

- أخرجها من بيتي! - صرخت أمي، وراحت تضرب الباب.

- إن لم تسكتي، فأنت من سألقي بها إلى الشارع!

- أنتما مريضان! - قالت أستر باكية.

- كفى، واذهبي إلى البيت - قلت.

- أمك مريضة، افهم! - قالت باكية، وحضنت رجلي.

- اسكتي.

- ليست سيئة السمعة، لكنها مقعدة، قاصر.

- أغلقي فمك - قلت، وراحت أمي تضرب الباب مجددا، وتأمرني أن أطردها من البيت.

- لا فائدة من ذهابك إلى عشيقة والدك، لأنك بذلك لا تحقر أمك، بل تحقرني وحدي. أنا وحدي لك القدرة على إذلاله.

- ليس بوسعي أن أحقر سوى نفسي.

- كيف أمكن لك أن تفعلها؟ يا إلهي، لم تريد أن تقتلني؟

- اطردها - زعقت أمي.

- ألا تدرك أنني أحبك؟ أنا الوحيدة التي تحبك!

- قلت لك، أغلقي فمك!

- الجميع يكرهونك! يخشونك أو يكرهونك! حتى أمك تكرهك! حتى أختك قد تخلت عنك ولا تعني لها شيئا. أنا الوحيدة التي تعنيني، ألا تفهم؟

- كفي عن حبي! لا تحبيني، مفهوم؟ انصرفي! - صرخت بها ودفعتها إلى الممر، حيث ظلت إلى حين تقول باكية: بهائم، هؤلاء بهائم.

في اليوم التالي حين خرجت، كان بودي أن أعود وأنا عند عتبة الباب، لكنني لسبب ما لم أفعل. كانت صفحات كتابي ملصقة على الجدران حتى ملأتها، وألصقت على أثاث المنزل، والأرضية، وحوض الحمام، والمرآة. كانت الأقداح مغلفة بالقصص، وطلعت الشمس في البيت من خلال صفحات القصص، ولم ينج من ملصقات الصفحات إلا دلو السائل الصمغي، وكوم مغلفات الكتاب، ملقاة وسط الغرفة. وفوق أرضية المطبخ، كانت نائمة بثوبها الحريري الأسود، وكان شعرها مصبوغا بشقرة شعر أمي.

- أنا فقط - قالت حين هززتها، لكن شفتيها لم تختلجا إلا بمشقة، وحين كنت أتصل، كانت تنهض على ركبتيها، وتقصقص ما تبقى من خصل شعرها.

- ما الذي فعلته بها؟

- لا شيء - قلت.

- حاول أن تتذكر.

- أريد أن أدخل إليها - قلت.

- ما دمت أنا الطبيب هنا، فلن تطأ قدماك جناح المرضى.

- كم تريد أن أدفع لك؟

- بودي أن أطردك كقاذورة.

- هذا أمر سهل - قلت ونهضت واقفا.

- اجلس - قالت، فجلست.

- ما الذي تريد أن تعرفه؟ - سألته.

- كل شيء.

- هذا كثير - قلت - لا بد أنك تربيت في أسرة صالحة جدا.

- دعك من الهذر التافه.

- أريد أولا أن أدخل إليها.

- لا ضرورة. لا تستطيع الكلام. أنا مضطر إذن أن أسألك.

- ما الذي فعلتموه بها؟ - سألته.

- نحن، لم نفعل لها شيئا. أما أنت فقد فعلت الكثير. لكن يؤسفني أنني سأظل أحميها منك ما دامت نائمة في قسمي.

- إنك تعرف الكثير حتى دون أن تسألني. لست مدمن مخدرات، إن كان يدفعك الفضول لتعرف ذلك.

- كلي فضول لأعرف كيف كنتما تعيشان - قال.

- كالبهائم - قلت - إنها حبيبتي، على أية حال.

- الأجدى ألا تستخدم هذه اللفظة. أخشى أنك لا تدرك شيئا عن الحب.

- ممكن. سأحاول جهدي أن أعبر بطريقة مختلفة.

- منذ متى تعيشان معا؟

- لا نعيش معا. أعيش مع أمي. هي أيضا مجنونة.

- ما خطب أمك؟

- كالمجنونة عادة. دفنت ابنتها حية. أوقفت مع ابنها معاشرة كانت قد بدأت واعدة. أمور من هذا القبيل وهي لا تغادر البيت.

- ماذا تقول؟
- قلت لك إنني تربيت ضمن أسرة صالحة جدا.
- دعك من لهجة الحديث هذه.
- دعني أدخل إليها. حالا دعني. أنت جلاد بشهادة مرخصة!
- صرخت، وهجمت عليه من فوق طاولة المكتب، مزقت مريوله، انتزعته من كرسيه، وضغطت رأسه فوق ورقة التقرير المرضي. شعرت أن عظام جمجمته ستتحطم تحت أصابعي، وأنني في اللحظة التالية، سأنتزع دماغه، وأقذف به على الجدار كنفاية. أسرع ثلاثة ممرضين إلى الغرفة، ولفوا يدي إلى الخلف، وقام أحدهم بوضع القيد حولهما، فيما لم أكف عن صراخي بأنني أريد أن أراها. وإن كانوا يجرؤون على صدمها كهربائيا، سأفجر المشفى بمن فيها من العاملين، وسأقتل كافة المعالجين النفسيين، وإن مسوها ولو بإصبع واحدة، وحاولوا إخراجي من دماغها بالتيار الكهربائي. وقف الممرضون الثلاثة معي وسط الغرفة، كما لو كنت كيسا من الإسمنت، بانتظار توجيهات الطبيب: حقنة، أم غرفة مطاطية عازلة، وحين توقفت عن الصراخ وصرت ألهث طلب منهم أن يدعوني، ويخرجوا باطمئنان، لأنه صار بوسعنا أن نتحدث كبشر.

حصلت على كأس من الماء، ثم رويت كل شيء يمكن أن يروى. كان أحيانا يقاطعني بأسئلته من قبيل ما الذي كنت أبتغيه بدقة من الرسائل الزائفة، وما الذي كنت أخشاه، حين رغبت أمي بالخروج من البيت، ثم كيف احتملت من أستر أن تسكت لسنوات عن حياتها. مثل هذه الأسئلة التي يسألها الإنسان عادة بينه وبين نفسه، ولا فائدة من معرفة الإجابة عنها. لأن الإجابات

التي تشبه المنقار هذه تفيد فقط في أن تفهم بدقة لماذا تصنع يوليكا طعاما مائعا من نعومي كامبل، ولكن لا يزال هناك عدد قليل بشكل مقيت لئلا تصنع طعاما مائعا من حياتها الخاصة. ثم وصف لي نوعين من الدواء، ووعدته أن أتناولهما، لكن دون أن ينتظر مني المزيد: أحترم علمه، لكننا لن نصل معا إلى أي شيء.

- كيف استنتجت ذلك؟ - سأل.
- ليس الكثير، لكني أعرف هذا القدر عن نفسي - قلت.
- لكن لا ضير من إزالة تلك البقع العمياء - قال.
- لاحقا، سأنجز هذا العمل وحدي.
- أكيد.
- أجل.
- وماذا لو لم تفلح؟ - قال.
- إلى الجحيم.
- أخرج هذه المرأة منها.
- حسنا - قلت.
- اقطعا العلاقة الجنسية.
- حسنا.
- والأفضل ألا تلتقيا أبدا.
- سيعني هذا نهاية حياة كل منا.
- واثق؟
- أجل.
- علما أن هذا ليس حبا، بل مسا - قال.
- جوهر الحب هو المس.
- الشعراء يخطئون كثيرا.

- أنا كاتب. وهؤلاء أيضا يمكن أن يخطئوا.
- انتقل من عند أمك.
- سأحاول.
- أعتقد أنك لا تضعها في مأوى.
- أبدا.
- أفهم - قال، ثم رجاني ألا أزور أستر إلا في الغد.

**

- أين كنت يا بني؟
- كنت أطلي منزلا، يا أمي.

رفيقاتها في الغرفة شجعنها: هيا، سوف تفلحين. ونهضت فعلا. المرأة التي قبالتها كانت تتبول في ملابسها كل ليلة. أما المرأة التي عند النافذة فلم تلمس طفلها منذ ثماني سنوات لخشيتها من أن الموت سوف يأخذه إن لمسته. من جهة أخرى، كانت أما صالحة تماما، قامت بتزيين شجرة الميلاد، وحضرت مجالس أهالي التلاميذ، وإن لم يتوافر لزوجها الوقت، وكان مشغولا، هي من رافقت ابنتها إلى المدرسة، سارتا في الشارع جنبا إلى جنب على وشك أن تمسكا بيدي بعضهما، هي التي شجعت أستر بحماس أكبر: انهضي يا جميلتي، صرت على خير ما يرام، لا تقلقي عليك من هذا الفتى المسكين، هيا، أمسكي بيده، تشجعي. ثم وضعت عليها معطفي فوق عباءتها، وخرجنا إلى الحديقة حيث يمكن لنا أن ندخن. كانت، في الواقع، أقوى مما كانت عليه بعد الإجهاض، خاصة أنهم الآن لم يلمسوا رحمها.

- أحوالك جيدة؟ سألتني.
- أجل.

- وأمك؟

- لم تتذكر شيئا في اليوم التالي.

- أمر جيد - قالت، وصر الخريف تحت خطواتنا، وجلسنا على مقعد .

كان الزوار يأتون باتجاه البناء (B) سائرين على الطريق المفروش بالحجارة ليخرجوا مرضاهم إلى نور الشمس.

- لم أكن أقصد جدك... لم أكن أريد أن أقول ما قلته عن جدك.

- أعرف. هلا تجلب لي ثيابا داخلية نظيفة؟

- طبعا - قلت، ورحنا نشاهد كيف يحاول زوجان رفع عجوز على كرسي مقعد على السلم دون جدوى، فقام الزوج باحتضان العجوز، فيما قامت الزوجة بدفع الكرسي الخالي حتى بلغوا المصعد.

- طليت المنزل - قالت.

- شكرا.

- لكنني لم أستطع حتى الآن كشط الطلاء تماما من النافذة والأثاث.

- سأقوم بذلك فيما بعد - قالت، وكنت أظن أنها تريد أن تدهس حشرة بمقدمة صندلها، لكنها عمدت إلى كنس التربة كي لا تتعثر الحشرة.

- هيا ندخل كي لا تبردي - قلت، فقط ليتسنى لي الهرب.

- طبعا - قالت، ورمت بنصف السيجارة، ثم عدنا إلى حجرة المرضى.

- سأحاول غدا المجيء في وقت أبكر.

- كما يحلو لك - قالت، وألقيت عليها الغطاء.

وبعـد أسـابيع صرت شـيئا فشـيئا أقلـل مـن مجيئـي إليهـا، حتـى اتفقنـا أخـيرا عـلى أن ألتقيهـا عـصر كل يـوم إثنـين.

جلسـنا في كنبـة واحتسـينا الشـاي، وقـرأت لهـا كتابـاتي، والمقـالات النقديـة الصـادرة عـن كتـابي، وشربـت النبيـذ أحيانـا وحـدي لأنهـا مازالـت تجـترع الأدويـة.

- أمك، كيف حالها؟

- جيـدة في الواقـع. مـا تخشـاه الآن أن أعرضهـا للمحرقـة، شـاهدت فيلـما وثائقيـا عـن الوضعيـة التـي يجلـس بهـا المـوتى هنـاك.

- آهـا - قالـت، وأضافـت السـكر إلى الشـاي، ولم أقـم بتنبيهها إلى أنهـا تضيـف السـكر للمـرة الثالثـة.

- هل قابلت تلك المرأة؟

- لا.

- طبعا.

- هل ينبغي أن نتحدث بهذا الأمر؟

- لا - قالت، وأحضرت بسكويتا مغلفا، لأن أمعائي صارت تقرقر.

- هل من أنباء من جانب الصليب الأحمر؟ - سألتني.

- لا شيء، بعـد - قلـت، ونهضـت واقفـا كي أنـصرف. أردت أن أقبلهـا، لكنـي فطنـت إلى أن التقبيـل كذلـك علاقـة جنسـية، فالأفضـل إذن ألا أفعـل، ثـم قبـل ذهـابي إلى البيـت قصـدت (لؤلـؤة البلقـان) لتنـاول قـدح مـن النبيـذ بالصـودا.

- هـذا أنـت؟ - سـألتني يوليـكا، وألقـت بالجريـدة أمامـي. وضعـت إصبعهـا عـلى الصـورة، كـما عـلى ظهـر خنفسـاء سـيتصدع درعهـا في اللحظـة.

- أجل.

- منذ متى أنت كاتب؟

- لا أعرف بدقة.

- هل يدرسون ذلك في جهة ما؟ سألتني.

- لا. أظن لا. ربما في أمريكا - قلت، ثم سددت حسابي، وتمشيت إلى البيت. جاءتني رسالة من الناشر الفرنسي، وأردت أن أقذف بها، وبجرائد الإعلانات، فخطر لي أن سلوكا كهذا سيكون مضحكا، فاستعنت بالقاموس لقراءة الشروط ثم كتبت ردي بأنه لا شروط لدي، عرضهم محترم جدا، مع أمتناني... ثم كتبت رسالة لأمي من (مالمو) لأن أحد معارفي سافر إلى مالمو في اليوم التالي. أمي الفاضلة! إن رغبت في رؤيتي، لا تدعيهم فيما بعد يطبقوا عينيك - كتبت، ثم جعدت الورقة، لأنني فطنت أن علي أن أكتبها بيدي اليسرى، وأن أضيف أيضا: سيكون لي في مالمو ثلاث حفلات.

انصرم العام الفائت بمنتهى الهدوء. كنت بين آونة وأخرى أزور فتاة تدعى (نوِمي) تعرفت عليها في حفل توزيع جوائز، كانت تدور بصواني الشمبانيا بين الحضور. أمي لم تعرف عنها.

وذات مرة التقيت بيوردان في متجر المترو حين اشتريت لأستر هدية عيد الميلاد. قالت إن العشاء صار باردا، فقلت لا مشكلة.

حين وصلتني الرسالة من الصليب الأحمر، حملتها إلى أستر، لكني فطنت إلى أن اليوم هو الأربعاء، وقد اعتدنا أن نلتقي كل يوم إثنين، ثم فكرت أن أزورها الآن استثنائيا. ولكني قبل أن أرن عليها سمعت أن أحدهم كان عندها. تنصت قليلا: يتحادثان ليس إلا. قص لها عن (ألفا سنتوري)، ولم يكن ما يقوله مفهوما على نحو حسن. كنت لا أسمع صوت أستر إلا بصعوبة. صاحت بي امرأة عجوز من الممشى الخارجي: عمن تبحث؟ فكان ينبغي أن

أغـادر. وفي نهايـة المطـاف دخلـت دارا للسـينما. كان فيلـما تشـويقيا بعنـوان تاجـر المـوت. كان مرعبـا جـدا.

وبعد الفيلم رجعت لزيارتها، لكنهما لم يكونا في البيت.

كنـت أخـشى أن يوديـت ليسـت في أوروبـا. أجـل يمكنهـا العيـش في ڤيينـا، فكـرت. وكانـت خشـيتي الكـبرى أنـه صـار عـلي أن أسـتقل القطـار يـوم غـد. والحقيقـة أننـي، وإن كنـت آمـل ألا يجدوهـا، كنـت أحـب أن أراهـا. كـم هـو صعـب بعـد مـضي نصـف العمـر، أن تقـرع، كغريـب، عـلى أخـت لا تفـرق أمنـا بـين كتابتهـا وكتابتـي. ليـس سـهلا عـلى الإطـلاق. أردت أن أنتظـر حتـى يـوم الإثنـين كي لا أكـون وحيـدا، لكنـي في الليـل قمـت بفتـح الرسـالة، وحـين قـرأت أنهـا دفنـت في (نيـزا) منـذ عـشر سـنوات، تنفسـت الصعـداء.

في اليـوم التـالي قصـدت مكتبـة (سيتشـيني)، وطلبـت الجرائـد الفرنسـية القديمـة حيـث قامـت إحـدى الفتيـات العامـلات هنـاك بترجمـة فجـة كان فحواهـا: لقـد تلقـى العـالم بخيبـة أمـل نبـأ ريبيـكا ڤيرهـارد الصـادم: مـع انتهـاء حفـل باغانينـي مسـاء أمـس قامـت الفنانـة الشـهيرة التـي لم تبلـغ الخامسـة والعشريـن مـن العمـر بقطـع شريـان معصمهـا بوتـر كمانهـا. مـازال التحقيـق جاريـا، مسـألة الدفـن يتولاهـا نـاشر الإسـطوانات بنيويـورك.

- هـذا كل مـا هنالـك تقريبـا. وهنـاك سـجل وفيـات لكنـه طويـل - قالـت فتـاة المكتبـة.

- دعك منه - قلت.

- أترغب في صورة عنه؟ - سألتني.

- لا أريد - قلت.

- أأعيده إذن؟

- حالا - قلت، ونظرت إلى الصورة الشاحبة، ولم أكن أشعر بشيء بعد. كانت تشبه ريبيكا ڤير في عمر الخامسة والعشرين. كانت تدرك جيدا لماذا تحمل اسم أمها.

يوم الإثنين قصدت أستر. قالت إنه كان بإمكاني أن أقرع الجرس في المرة الفائتة لأنها كانت تحتسي الشاي مع أحد معارفها الذي يعمل بالفلك، وكان يؤم المكتبة بانتظام لمدة أسابيع، فنشأت بينهما صداقة. قلت لها: طبعا ليس هذا هو السبب الذي جعلني أمتنع عن قرع الجرس بل لأننا ألفنا أن نلتقي يوم الإثنين.

- سافر إلى (نيزا) - قالت.

- لكن لها قبر في مكان أقرب - قلت.

- أنت تدرك أن عليك السفر - قالت.

- وأنت أيضا لا تعودين إلى ديارك، رغم أنك صرت تستطيعين - قلت.

- أمر مختلف تماما. ربما في وقت لاحق - قالت.

- حين تفكرين بالأمر، أرافقك - قلت.

- ليست فكرة حسنة لكلينا - قالت - ثم إنك لا يمكن أن تتخلى عن أمك مدة طويلة.

- طبعا - قلت، وحسبت في نفسي أن كارباتوك الشرقية أقرب من ريڤيرا الغربية، قياسا إلى قرب (ألفاسنتوري) من كراتر بوباي.

- ليس هنالك ما أسافر لأجله. لا أشعر بشيء. - قلت.

- أعلم - قالت.

- كان أفضل لو كانت حية.

- الواقع أفضل دائما - قالت.

- طبعا - قلت - ما يؤلمني هو أنني من اقترح عليها فكرة وتر الكمان.

- لم يخطر لها هذا الأمر، على الأرجح - قالت.

- طبعا - قلت - والقذارة في الأمر، أن والدنا هو من أخرجها خارج البلاد، لكنها لم تتكلم عن المسألة.

- هذا غباء. لقد رأت والدكما آخر مرة حين رأيتماه معا. لا تحسدها لما من أجله جرؤت أن تستقل سيارة شاحنة.

- لا أحسدها، لكني أعرف أن أبي أخرجها. وهو الذي يرسل النقود منذ عشر سنوات.

- لا مصدر لديك يجعلك تعرف ذلك.

- بل لدي مصدر.

- أجل - قالت، ثم سألتني كيف حال أمي، فقلت إنها جيدة في الواقع، لكن فوبيا الإحراق تستحوذ عليها، وصارت مجددا تؤمن بالله. ثم شربت شايي، وسألتها وأنا عند الباب فيما إن كانت لديها الرغبة أن ترافقني إذا سافرت إلى (نيزا)، فقالت إنها ليست فكرة حسنة لكلينا، لكنها منحتني قبلة على جبيني.

- ما هذا الهرج يا بني؟

- موسيقى يا أمي.

- أسكتها حالا، لأني أريد أن أنام.

- لديك الوقت الكافي، فلن تخرجي غدا إلى أي مكان، يا أمي.

- سألقي بهذا المغناتوفون.

- لماذا يا أمي؟ حتى الغد لن تذكري شيئا يا أمي.

- لا أطيق منك أن تكلمني هكذا.

- منذ خمسة عشر عاما ونحن نتكلم هكذا، فلم لا تطيقين الآن؟ أحضري فنجان شاي، ودعينا نسمع الموسيقى. إذا أطللت من النافذة فستشاهدين القمر.

- أنت لم تعد إنسانا! قذر كأختك.

- بل شقيقتي. يمكنك التعليق بهذا القدر. لكنها لم تكن يوما تريد أن تنتحر.

- عفن. تعفنتما في رحمي! لكن الله سيحاسبكما. حسن أن تعرف ذلك مني! سيغضب عليك الله يا بني!

- ممكن. لكن لم لا يقضي عليك، يا أمي؟

- اخرج من بيتي!

- بكل رحابة صدر، لكنك ستموتين جوعا. حتى صنبور الماء لا يسعك أن تفتحيه من دوني، يا أمي.

- آه قلبي. قلبي يؤلمني.

- دعك من هذا. لا قلب لديك. ولا لدي. يوجد مخاط بدلا منه. مخاط، أتفهمين؟ سنموت ونحن لا نشعر بشيء. قلت ذلك، ثم خرجت من الغرفة، وأخفضت صوت الموسيقى لأنه كان عاليا حقا، ولا أستطيع العمل هكذا. أفقت عند الفجر وكانت الأسطوانة مازالت تدور لأن ذراع المغناتوفون لم يعد إلى مكانه. هذا الجهاز خردة، فكرت، ثم ارتديت ثيابي، وقمت بمراجعة القصة التي كتبتها عن القس المريض عقليا، الذي أجهز على المجتمعين بالكعكة المقدسة الممزوجة بسم الجرذان. سيكون جيدا الذهاب إلى قرية، فكرت، ثم أعددت لها طعام الفطور، ووضعت غداءها في الثلاجة.

- متى تعود يا بني.

- مساء الغد، لدي أمسية قصصية في الريف، يا أمي.

- في الآونة الأخيرة صرت تسافر أسبوعيا.

- نقود يوديت لا تكفي يا أمي. لا تنسي أن تسخني حساءك. وأطفئي التلفزيون ليلا - قلت. وسمعت من الخارج كيف تعلق

سلسلتي الأمان. مشيت حتى المحطة الشرقية، وحين تبين لي أنني سأبدل القطار في طريقي أردت، بعد أن صرت عند شباك قطع التذاكر، أن أعود أدراجي. لكنني سافرت.

أنجزت أمسيتي القصصية، وحوالي الظهيرة كنت عائدا. أستر تعمل يوم الإثنين حتى الساعة الخامسة، فتسكعت قليلا في المحطة الشرقية رغم أني أمقتها. وعلى نحن أدق أمقت المتاجرة بالعجز. أمقت أولئك الذين بدعوى الحاجة، يتحلقون حول حقائب السياح، أمقت أولئك الذين يعرضون وصفات طبية فات أوانها منذ ثلاث سنوات متوسلين عشرين (فورنتا) لإكمال ثمن الدواء، أولئك الذين يصلون لله أن يخصك بالبركة أنت وأسرتك، وإذا لم تتوافر معك الفكة، يبصقون وراءك، وكأن من حق الفاقة أن تجعل الإنسان يفعل ما يشاء.

منذ وقت طويل والمحطة الشرقية مرتع لمثل هؤلاء المتعطلين. هنا يتجمع باعة سوق سوداء، مبشرو مذاهب، صرافون، إضافة إلى العجزة من إنتاج الصناعة الوطنية. يمكن من النظرة الأولى التعرف على المتسولين الذين يعملون لجيبهم الخاص، وتفريقهم عمن يعملون لجيوب الآخرين. ومن شكل الندبة يمكن تحديد الرجل أو الذراع التي بترتها آلة العمل، أو التي بترت بالبلطة في مواقع قطع الأشجار، وحين انتشر في قرى رومانيا الخبر السعيد بأن بوسعهم السفر إلى بودابست والتسول هناك لقاء نسبة مئوية، وصلت شحنات كاملة من ذوي العاهات الذين بترت أرجلهم أو أيديهم حديثا. وأحيانا نقلتهم نفس الكميونات التي كانت تشحن المساعدات الإنسانية إلى بودابست أو إلى ترانسيلڤانيا. توزع ذوو العاهات في أحد أقبية الحي الثامن، وقد تقلدوا حول أعناقهم

لوحات كتب عليها «أنا ضحية تشاوشيسكو». وعند المساء كان «مشغلهم» يجمع الثمانين بالمئة إضافة إلى أجر الإقامة.

منذ مدة وهؤلاء المعاقون المستوردون يتوزعون في النفق، مع المتعاقدين المعاقين المحليين، مع باعة المندرين الفاسد، وباعة الشراشف الرخيصة، وباعة السجائر غير المختومة التي يمكن شراؤها بنصف السعر، والساعات المنبهة من هونغ كونغ بربع السعر، والتي تئز بدل أن ترن. هنا أولا افتتحت المطاعم الصينية، هنا أولا، درجت لعبة الشطرنج مقابل النقود، من قبل المحكومين الذين أطلق سراحهم منذ مدة وجيزة. يفرشون رقعة الشطرنج فوق إحدى حاويات القمامة، ويدخنون بانتظار الزبائن غير المشبوهين الذين يجيدون الشطرنج.

- لا، لا، يا سيدي، خمسمئة فورنت غير واردة للرهان، بل الألف. هات الألف، نعم هاتها. نضع الألفين تحت غطاء الحاوية ونبدأ. ويندهش الزبائن الماهرون كيف يخسرون اللعبة بحركات قليلة تقضي على الملك ويأتي الشرطي:

- تتدلى هنا ورقتان نقديتان، ألفان - قال الشرطي ودس إحداهما في جيبه لأنه جاء لتوه يجمع النقود. ثم انتقى بعض المندرينات الفاسدة قليلا، وراح يحصي المقعدين، ثلاثة عشر، فيكون الإجمالي ألفا وثلاثمئة، من المقعدين المجريين لا نأخذ شيئا. ما يزال في العالم شيء من الشرف. لكن هؤلاء الرومانيين القذرين لا يحتملون.

- دوتي آكاسو، إن لم تدفع ـ يقول بالرومانية لأنه تعلم بعض الكلمات الأساسية في بوفيه المحطة: ارحل إلى بلدك، مئة فورنت، إلى ما هناك.

- قلت لك سوتي فورنت، أو دوتي آكاسو (ارحل إلى بلدك).

ثـم يبـدأ ببوطه العسـكري، دهس اللوحـة (أنا ضحية تشاوشيسـكو) لأنـه غاضـب. ومـا إن بلـغ الـدرج حتـى تكـون صناديـق المـوز الكرتونية المسـتخدمة كطـاولات للعـب قـد تبعـثرت هنـا وهنـاك. ويأخـذ بائعـو السـوق السـوداء بإغـلاق حقائبهـم المليئـة بالجـوارب الرياضيـة، ويقولـون بوقاحـة: هـذه الجـوارب لهـم كلهـا لأنهـم يبدلـون جواربهـم ثـلاث مـرات يوميـا.

- هكـذا نحـب، سـيدنا الشرطـي، جـورب نظيـف، شرشـف نظيـف، وكثـير مـن السـاعات المنبهـة لـكي لا نتأخـر عـن القطـار. لا تسـتغرب أننـا هنـا مـن أجـل أن نبيـع زوجـا واحـدا مـن القفـازات الجلديـة. أتـدري مـا ثمنـه. لـن تحصـل عليـه في متجـر (كورفـين) تحـت الثلاثـة آلاف. مصبـاح جيـب صينـي، ونذهـب إلى سـاحة موسـكو.

إذن، ألـف زائـد ألـف وثلاثمئـة تسـاوي ألفـين وثلاثمئـة، ومئتـان ثمـن المندريـن صـار المجمـوع ألفـين وخمسـمئة، وإذا أضفنـا عليهـا خمسـمئة ثمنـا للمصبـاح صـار المجمـوع ثلاثـة آلاف، ومـع ذلـك يعتـبر الجبـاة خاسريـن.

لم يخطـر لي إلا في النفـق أن كتيـب النجـاة الـذي قدمـه لي الأب لازار، قـد نسـيته في القطـار. لم أفتقـده عـلى نحـو ملفـت، رغـم أنه كان قطعـة جميلـة جـدا. لكـن ربمـا تلقفتـه أيـاد أفضـل، أو ربمـا يسـتخدمه مراقـب التذاكـر لكتابـة مذكراتـه، فكـرت. يخـشى أن مذكـرات المراقـب المليئـة بالأخطـاء الكتابيـة أكـثر قبـولا عنـد اللـه مـما أكتبـه أنـا عـلى الـورق، فكـرت. ويخـشى أن مـا هـو بخـس بنظـر السـماء، بخـس أيضـا في الأرض، حتـى لـو كان الصـدى النقـدي ملائمـا. رغـم أن أربـاب الأسر المحترمـين يخفـون عـلى وجـه الخصـوص مثـل هـذه الكتيبـات في دروجهـم، فكـرت. ودونـوا فيهـا صراحـة أنهـم حـضروا البارحـة مجلـس

الأهل، أما اليوم فقد نادوا النادل ليقولوا إن ما أرجعه لهم من النقود أكثر بخمسمئة فورنت. وفعلا لم يحصل طيلة فترة العشاء ما هو مدان، كان أعدل عشاء عمل، لكن بعد ذلك قام بمساعدة زميلته لترتدي معطفها من الفرو الاصطناعي، وعندها، على نحو ما - وكان أمرا غير مفهوم، لأنه طوال عشر سنوات يغتاظ من عشاءات عمل المسلسلات التلفزيونية المقامة في السرير مساء السبت - لأن الحياة ليست هكذا، الحياة لا تسير على هذا المنوال يا عزيزي. لا تغضب، لكن هذا تلفيق، وكلام بكلام، وأنا لا أفهم ما الذي يعجبك في هذه الكتب والروايات.

أما الآن فإنه بات يسجل كل شيء بدءا من معطف الفرو الاصطناعي حتى زجاجة الشمبانيا الطويلة العنق على نحو جميل، وكأن هاتين الورقتين تشكلان رصيد الحياة من الذهب. أجل، إنه يدون أن يوم الأربعاء بالذات، عبر عشر سنوات ماضية ينبغي ألا يتكلس - لأن الحياة يا عزيزي هكذا تجري. أجل أشير للنادل بأن يرجع خمسمئة زيادة، أفطس من السأم وأنا جالس في مجلس أهل تلاميذ المدرسة، لكن الحياة تقوم بالدرجة الأولى على أن أسمعهن يلهثن في أذني: مزقني. أجل من الآن فصاعدا سأكذب قائلا إنني كنت برفقة الزملاء أشرب حتى الثمالة، وخجلت من العودة ثملا إلى المنزل، أو أن أحدهم رمى بنفسه تحت عجلات سيارتي، فأمضيت ليلتي في نظارة الشرطة، أو وجدت في سلة مهملات المكتبة قنبلة بلاستيكية. فلا يتدخل أحد بشأن أيام الأربعاء. سأشتري سجادة الأرض الجديدة، ولعيد الميلاد سأشتري عدة التزلج، وإن لزم الأمر، فسنمضي أسبوعا في إيبيزا بداية كل موسم، لكن لا تسأليني أين أكون كل أربعاء.

هـذا السؤال لا تنطقـي بـه مـن الآن فصاعـدا، وسـوف نظـل نعيـش سـوية كـما كنـا دائمـا، يـا عزيـزتي.

وحـين بلـغ بـه الأمـر ودون كل مـا حصـل معـه مـن السـاعة العاشرة ليـلا حتـى الفجـر، بتفاصيلـه الكاملـة، حتـى لم يبـق المزيـد مـما يدونـه لليلـة الأربعـاء القـادم، بـات عليـه الآن أن يحـاول البحـث عـن مـكان آمـن يخفـي فيـه مفتـاح الـدرج، وحـين لم يجد (حتـى إن الثريـا ينفضون عنهـا الغبـار) خطـر لـه في نهايـة المطـاف أن يعلقـه حـول عنقـه. فـكان لا يلفـت الانتبـاه لسـنوات، وخـلال كل هـذا كان يـدور في ذهنـه أن مـا هـو داخـل الـدرج المقفـول بدايـة لمرحلـة جديـدة مـن العشـيقات.

وأثنـاء الفطـور طبعـا يفاجـأ بـأن أعصابـه لا تحتمـل هـذا الأمـر. وعليـه في الحـال أن يقـذف بعيـدا بهـذا الدفـتر بعـد جنـون زوجته على الفطـور مـن حادثـة زجاجـة الشـمبانيا، ومعطـف الفـرو الاصطناعـي، فيبقـى هـو صامتـا يـأكل رقائـق الشـوفان بـلا انقطـاع كأنمـا ينبغـي عليـه أن يتناولهـا طـوال حياتـه. ولكـن، والمفتـاح معلـق حـول عنقـه، لا يمكنه أن يخاطب الولدين قائلا لهما: لا تلوثا غطاء المائدة.

- ما معنى قنبلة بلاستيكية يا أبي؟
- مثلها مثل القنبلة العادية، لكنها من البلاستيك، يا بنيتي.
- وغدا أيضا ستكون قنبلة بلاستيكية في المكتب؟
- لا، أبدا لن تكون يا بنيتي.

ابتعـت سندويشـة، شـاهدت دوري شـطرنج، ولم تبلـغ السـاعة الواحـدة والنصـف بعـد، فجلسـت في حانـة (البلقـان). مـما لا شـك فيـه أن الشـارع قـد تبـدل إلى صـورة أفضـل، لكـن قـد يكـون مـازال مـن المبكـر إقامـة مطعـم إيطـالي في هـذا المـكان، فكـرت. أربعـة كيلـو مـترات مسـافة طويلـة لبلـوغ أقـرب مرمـى للنفايـات لإلقـاء الصحـف

الحرة. من وزنها يمكن تفريق مجلة (حرية الشعب) من (القومية المجرية). صحيح أن كل رزمة أخف من الأخرى، لكن جر عربة النقل الصغيرة بجرائد (هنغاريا الجديد) كل هذه المسافة، يفسد صورة الشارع ـ فكرت. لكن ما شأني أنا بكل هذا؟ فكرت. ببساطة يمكن التخلي عن هذه الحساسية الاجتماعية ما دامت لا تضيف شيئا على النص - فكرت.

- تبدو مزريا مجددا. لم لا تذهب للاصطياف؟ - سألتني الساقية.

- نحن في الخريف، يا يوليكا - قلت.

- لا يمنعك هذا من الذهاب. قليل من الهواء النقي يصفي دماغك. اذهب إلى التلفريك في جبل يانوش.

- كنت في الهواء الطلق. الآن أتيت من القرية - قلت.

- هل ورثت؟

- لم أرث، كنت أقرأ القصص.

- يدفعون لك، أليس كذلك؟

- يدفعون.

- أرأيت؟ ما خطبك إذن؟ - سألتني، فأجبتها: في الحقيقة، لا شيء، لكنني مرهق قليلا. رجعت إلى المغاسل لأغسل وجهي، ووقفت أمام المرآة المكسورة نصفين. امتدت في شقها قذارة من الصوف من الجمجمة حتى عظم القص.

لو لم أكن غبيا في الفيزياء، لصرت أنا أيضا فلكيا، فكرت. ولكنت أحب أن أعرف كم سنتمترا مكعبا من ركام القاذورات على أندرو ميداس، وعلى نظام ألفا كانتوريس في النظام الشمسي، فكرت. ولكان بوسعي أن أؤم مكتبة الحي المركزية، فكرت. ولما دار في ذهني أن لا عمل لي أقضيه فيها، فكرت. ولما قللت الحياء

كل يـوم متظاهـرا بـأني أقـرأ جريـدة، فكـرت. لأن كتابـا واحـدا يختـص بعلـم الفلـك لا نجـد في مكتبـة سـابو أرڤين، نعـم، نجـد خريطـة بـروج، ونجـد كتـب جيـب الغطاسـين، ونجـد قصـصي أيضـا، فكـرت. فلا تسـول لـك نفسـك أن تذهـب إلى هنـاك مـرة أخـرى، وإلا فسـأجعل الفـأر يقـرض خصيتيـك، فكـرت. هـذا مـن الحماقـة أساسـا. لأنهـم هنـاك لا يفعلـون شيئا إلا التحـدث، فكـرت. أجـل، وما الضير في التحـدث؟ التحـدث أمـر مهـم للغايـة، فكـرت. لا يمكـن التحـدث مـع شـخص واحـد طيلـة الحيـاة، فكـرت. لم أصعـد لزيـارة تلـك المـرأة فقـط مـن أجـل حمارهـا، فكـرت. بـل مـن أجـل ألا أعـرف مسـبقا مـا العبـارة التاليـة مـن الحديـث. فكـرت. لأنـه بعـد بضـع سـنوات يمكـن أن يعـرف ذلـك جيـدا. هـذا نظـام الأشـياء. فكـرت. أجـل، كان مـن الأفضـل الذهـاب إلى حفـلات الرقـص المملـة مـع المعـارف المملـين، فكـرت. أو السـفر أحيانـا. وبخاصـة أننـي لم أسـافر إلى الخـارج بعـد آخـر مـرة في الخامسـة مـن عمـري، فكـرت. كان ذلـك إلى مهرجـان السـينما في موسـكو، حيـث لم نتجـول كثـيرا بسـبب أمـي. كان ينبغـي عـلي أن أرغمهـا عـلى العـودة. هـذه هـي الحقيقـة بالنسبة إليهـا. فكـرت. كان ينبغـي ألا أدعهـا تشـغل التلفزيـون ليبـث مشـهد إعـدام اثنـين مـن المقعديـن، فكـرت، عليهـا أن تضـع في حسـبانها: كفـى، وصـار بوسـعها العـودة إلى الوطـن، فكـرت. كان عـلي أن أجلـس معهـا في أول قطـار وأمـضي بهـا عـبر التـلال، فكـرت. كذلـك كان عليهـا أن تتعلـم أن تواجـه الحقيقـة، فكـرت. لا يـسر ني أن أبي كان رجـل أمـن، لكـن ذلـك لا يجعلنـي أطلـق رصاصـة في رأسي، فكـرت. وشـقيقتي يوديـت كذلـك، ليـس لهـذا السـبب قطعـت شريانهـا، فكـرت. نـادرا مـا قـص لهـا والدنا أنـه، بشـهادة محامـاة، كان يـضرب عـلى الكاتبـة محـاضر الإفـادات،

فكـرت. والـذي أودى بحياتـه أنـه لم يحتمـل هـذه الحقيقـة، فكـرت. كانـت يوديـت تشـبه أمهـا حتـى آخـر نفـس، فكـرت. ڤييرهـارد ليـس اسـما سـيئا، فكـرت. ثـم أخـذ أحدهـم يـضرب عـلى البـاب، ويصيـح: هـل تعـاني مـن الإمسـاك، مـا هـذا؟ فقلـت: حـالا، وغسـلت وجهـي سريعـا.

- وأخيرا - قال الرجل مثارا حين أتحت له المغسلة.

- آسـف - قلـت، رغـم أنـه لا مدعـاة للاعتـذار. الانتظـار وارد في مثـل هـذه الأماكـن حيـث لا يوجـد سـوى مغسـلة واحـدة. أنـا لا أقـرع البـاب عـلى أحدهـم. سـددت الحسـاب ليوليـكا، وقبـل أن أمـضي إلى أسـتر سـمعت نـشرة أخبـار السـاعة الخامسـة.

يتحدثـون، لعلهـم جابـوا القبـة السـماوية ذات مـرة، فكـرت. نـادرا مـا يـدور بذهنهـم شيء آخـر يتحـدث بـه الفلكيـون، فكـرت. لا يخطـر لهـم أن ينظـروا إلى السـماء دون منظـار، فكـرت. حتـى إنهـم يكرهـون الغيـوم لأنهـا تحجـب الرؤيـا، فكـرت. فقـط يجلسـون ويحسـبون كـم سـنتمترا مكعبـا يبلـغ ركام القـاذورات هـذا، فكـرت. إذا نظرنـا إلى الأمـر فإننـي أعـرف عـن القبـة السـماوية أكـثر مـن جميـع علـماء الفلـك. ولكـن بـات مـن الحسـن الطـواف في القبـة السـماوية، فكـرت. وكذلـك في حديقـة النباتـات، فكـرت. أعيـش هنـا منـذ خمـس وثلاثـين سـنة، ومازلـت لا أعـرف هـذه المدينـة. فكـرت. لعـلي منـذ سـنوات، لم أمـش في جهـة أرقـام المنـازل المفـردة لشـارع بـرودي. مجـرد اعتيـاد، ودون قصـد. فكـرت. كان يمكننـي أن أتنـزه مـع يوديـت، ومـع أسـتر أيضـا لبعـض الوقـت، فكـرت. لكنهـا اعتـادت السـير في جهـة الأرقـام الزوجيـة. فكـرت. ثـم إننـا دائمـا نصعـد الـترام مـن بابـه الخلفـي الأخـير، فكـرت، كأنمـا ليـس لـه أربعـون بابـا آخـر، فكـرت. لكنـك سـتنصدم حـين

تكتشـف أن الفلكيـين أيضـا يسـتقلون الـترام رقـم سـتة، فكـرت، وأن كل فتيـات المكتبـة يتجشـأن نفـس الأطروحـة القديمـة، فكـرت. عـلى الأقـل، أنـا لم أتجـول في السـماء برفقـة أحـد. أنـا أقـرف حتـى رائحتـي، فكـرت. عـلى الأقـل أنـا حشـوت نفـسي بطباشـير السـبورة لأني خجلـت مـن المثـول أمامهـا، فكـرت. رغـم أنـه كان عـلي، بـدلا مـن أكل الطباشـير، أن أقـول لهـا الحقيقـة كاملـة. فكـرت. لكـن ذلـك ليـس بالأمـر اليسـير، فكـرت. كل شيء سـيان في نهايـة المطـاف، فكـرت. لا بديـل للـماضي على الإطـلاق، فكـرت. ليـس المسـتقبل الـذي يعـج بالكثـير، فكـرت. بصـورة عامـة، يمكـن الفصـل بـين الكـمان، ووتـر الكـمان، فكـرت. هـذا مـن الحماقـة عـلى أيـة حـال. إن لم يكـن بوسـعي الكثـير، لكننـي أسـتطيع أن أقـرر أمـرا، أو أمريـن. مثـلا، أن أذهـب في أي وقـت إلى جهـة الأرقـام الفرديـة، فكـرت. أو ألا نحتـسي الشـاي مـن الآن فصاعـدا، ولا أقيـم الأمسـيات القصصيـة، بـل أبتـاع زجاجـة نبيـذ، ونمـضي في نزهـة إلى جزيـرة صغـيرة في الدانـوب، فكـرت. وربمـا نقصـد مكانـا مـا للعشـاء، فكـرت. مثـل هـذه الأمـور لا شـأن لأحـد فيهـا، لا فلـكي، ولا طبيـب نفسـاني. لا علاقـة لأحـد فيمـن أرافـق عـلى العشـاء، فكـرت. مثلـما حصـل (موعـد يـوم الإثنـين) يمكـن أن يحصـل أيضـا شيء آخـر، فكـرت. مثـلا، إن تمشـيت أمـام المكتبـة في موعـد الإغـلاق تمامـا، وكأننـا نلتقـي بالمصادفـة، فكـرت. يمكننـي أيضـا أن أنـام هنـاك تحـت أي ذريعـة. كأن أكـذب قائـلا إنـه كان عـلي أن أنقـل أمـي إلى المشـفى، ولا أحتمـل البقـاء في المنـزل الفـارغ، فكـرت. لا مشـكلة إن أدركـت أن كلامـي غـير صحيـح. هـذه ليسـت كذبـة مثـل كذبـة آثـار الأظافـر المعدلـة بشـفرة جيليـت، فكـرت. يمكـن أن أمـضي الليـل في الغرفـة الصغـيرة. أولا وأخـيرا لا بـد أن تعـبر إلي، فكـرت. اليـوم لا، لكـن مـن المؤكـد، غـدا، فكـرت.

المرة الماضية عانقتني، مع أنه قليلا ما حصل أنها لم تقبلني رغم تحذيرات الطبيب. صحيح، أن ذلك كان بسبب يوديت، فكرت. ولكن مادام الأمر بسبب يوديت، يمكن أن يكون لسبب آخر أيضا. في نهاية المطاف لا يمكن التخلص من الرغبة بناء على تعليمات الطبيب. يستحيل التضييق على الحب، فكرت. أجل سأكذب قائلا إني نقلت أمي إلى المشفى، فكرت - ثم وجدت قصاصة على الباب: سافرت إلى البلد.

مختصر ما كتبته على القصاصة أنه من المحتمل ألا تعود إلا بعد أسبوعين أو ثلاثة، ولم تخبرني لأنها سافرت على نحو مفاجئ. لا تغضب! وأشياء من هذا القبيل. تسكعت قليلا أمام الباب حتى سألتني العجوز من الممشى الخارجي: عمن تبحث؟ وكأنما لا تعرف على وجه التحديد، فأجبتها: لا أبحث عن أحد، تابعي نزهتك في الهواء الطلق، يا عمة (كورودي)! ثم رحلت إلى البيت. حاولت أن أقنع نفسي بأن هذا لا يعني أي شيء بعد. بل على العكس من ذلك. أمر حسن أنها أخيرا سافرت إلى البلد، كما شجعها الطبيب في السابق، ثم لا بد أنها سافرت وحدها، من دون أن يرافقها أحد. ألم يتطلب الأمر إجهاضا، وشجارا حتى تمكنت أن أعرف شيئا عن ماضيها؟ من المستحيل إذن أن تدع غريبا يرافقها. العودة إلى البلد شيء، والذهاب إلى صالة القبة السماوية برفقة أحدهم شيء آخر. على أية حال، من الأفضل أن تسافر وحدها، فكرت. لا ضرورة للجمهور في مثل هذه الحالات، فكرت. ثم إنني لا أستطيع أن أدع أمي في البيت كل هذه المدة، فكرت. رغم أن ذلك قد يحل أمورا كثيرة جدا. لقد عانينا كثيرا قياسا إلى ما عانته يوديت، لكن من يدري كم عانت هي كذلك، وما الذي حصل لها أساسا.

كان بإمكان صاحب مصنع الأسطوانات أن يبعث لنا برسالة على الأقل، فكرت. وأبي أيضا بدلا من الراتب الشهري، يقول برسالة إن ابنته قد توقف قلبها أثناء العمل، فكرت. ولكن أيضا من اللائق أن أخبر أمي أن ابنتها متوفاة منذ عشر سنوات، فكرت. وأن ما أشتريه لها من مراهم إزالة التجاعيد يصلنا تمويله من أبي. قد يسرها الأمر، فكرت. وقد لا تكون مجنونة، بل فقط قد اعتزلت الفن. ولفرط سعادتها قد تفاجئ الجمهور بشيء ما، فكرت. كأن تذهب مثلا للشراء من المتجر. فإن لم يندهش البائع، فسأصاب أنا بالذهول. منذ خمسة عشر عاما أنا كنت جمهور أمي، وحدي. لكن المشكلة أنني مللتها. مسرحة مبتذلة بامتياز، لكني لسبب ما قد قرفتها أشد القرف، فكرت. لو كان مراقب التذاكر في القطار يملك ذرة من الإنسانية لكان وجد خطأ في تذكرتي، وألقى بي في (سهب المجر)، فكرت. وكان عليك عندئذ أن تقتري في النصف كيلو من الخبز يا أمي، فكرت. فإما أن تنزلي أنت بثوبك المطرز بالفراشات، وترمي بنفسك عند البائع، أو أن تموتي جوعا، فكرت. وعندها لن تفعلي معي ما تفعلين. لن تسأليني أين كنت يا بني؟ وإلا فسيصفعك الجدار. لا تظني أنني لا أجرؤ على ضربك في الجدار، وأن أشدك من شعرك المصبوغ إلى الشارع، ثم أجرك بثوبك حتى جبال كارباتوك الشرقية، وأجعلك تقبلين رجليها، وتقدمين لأستر امتنانك لأنها لم تدعني أرمي بك في بيت المجانين، فكرت. وأعدك أنني إذا ما كتبت بدمائك، فإنني سأحظى بأفضل صدى نقدي، فكرت. إياك بعد الآن، أن تتلفظي بالقول: خذها إلى فندق رخيص، كالأخريات. إياك أن تضربيني بالتفاح الفاسد ذي الديدان، إذا ما سألتك من تكون مدام يوردان؟ لا تتظاهري بأنك

المرة الماضية عانقتني، مع أنه قليلا ما حصل أنها لم تقبلني رغم تحذيرات الطبيب. صحيح، أن ذلك كان بسبب يوديت، فكرت. ولكن مادام الأمر بسبب يوديت، يمكن أن يكون لسبب آخر أيضا. في نهاية المطاف لا يمكن التخلص من الرغبة بناء على تعليمات الطبيب. يستحيل التضييق على الحب، فكرت. أجل سأكذب قائلا إني نقلت أمي إلى المشفى، فكرت - ثم وجدت قصاصة على الباب: سافرت إلى البلد.

مختصر ما كتبته على القصاصة أنه من المحتمل ألا تعود إلا بعد أسبوعين أو ثلاثة، ولم تخبرني لأنها سافرت على نحو مفاجئ. لا تغضب! وأشياء من هذا القبيل. تسكعت قليلا أمام الباب حتى سألتني العجوز من الممشى الخارجي: عمن تبحث؟ وكأنما لا تعرف على وجه التحديد، فأجبتها: لا أبحث عن أحد، تابعي نزهتك في الهواء الطلق، يا عمة (كورودي)! ثم رحلت إلى البيت. حاولت أن أقنع نفسي بأن هذا لا يعني أي شيء بعد. بل على العكس من ذلك. أمر حسن أنها أخيرا سافرت إلى البلد، كما شجعها الطبيب في السابق، ثم لا بد أنها سافرت وحدها، من دون أن يرافقها أحد. ألم يتطلب الأمر إجهاضا، وشجارا حتى تمكنت أن أعرف شيئا عن ماضيها؟ من المستحيل إذن أن تدع غريبا يرافقها. العودة إلى البلد شيء، والذهاب إلى صالة القبة السماوية برفقة أحدهم شيء آخر. على أية حال، من الأفضل أن تسافر وحدها، فكرت. لا ضرورة للجمهور في مثل هذه الحالات، فكرت. ثم إنني لا أستطيع أن أدع أمي في البيت كل هذه المدة، فكرت. رغم أن ذلك قد يحل أمورا كثيرة جدا. لقد عانينا كثيرا قياسا إلى ما عانته يوديت، لكن من يدري كم عانت هي كذلك، وما الذي حصل لها أساسا.

كان بإمكان صاحب مصنع الأسطوانات أن يبعث لنا برسالة على الأقل، فكرت. وأبي أيضا بدلا من الراتب الشهري، يقول برسالة إن ابنته قد توقف قلبها أثناء العمل، فكرت. ولكن أيضا من اللائق أن أخبر أمي أن ابنتها متوفاة منذ عشر سنوات، فكرت. وأن ما أشتريه لها من مراهم إزالة التجاعيد يصلنا تمويله من أبي. قد يسرها الأمر، فكرت. وقد لا تكون مجنونة، بل فقط قد اعتزلت الفن. ولفرط سعادتها قد تفاجئ الجمهور بشيء ما، فكرت. كأن تذهب مثلا للشراء من المتجر. فإن لم يندهش البائع، فسأصاب أنا بالذهول. منذ خمسة عشر عاما أنا كنت جمهور أمي، وحدي. لكن المشكلة أنني مللتها. مسرحة مبتذلة بامتياز، لكني لسبب ما قد قرفتها أشد القرف، فكرت. لو كان مراقب التذاكر في القطار يملك ذرة من الإنسانية لكان وجد خطأ في تذكرتي، وألقى بي في (سهب المجر)، فكرت. وكان عليك عندئذ أن تقتري في النصف كيلو من الخبز يا أمي، فكرت. فإما أن تنزلي أنت بثوبك المطرز بالفراشات، وترمي بنفسك عند البائع، أو أن تموتي جوعا، فكرت. وعندها لن تفعلي معي ما تفعلين. لن تسأليني أين كنت يا بني؟ وإلا فسيصفعك الجدار. لا تظني أنني لا أجرؤ على ضربك في الجدار، وأن أشدك من شعرك المصبوغ إلى الشارع، ثم أجرك بثوبك حتى جبال كارباتوك الشرقية، وأجعلك تقبلين رجليها، وتقدمين لأستر امتنانك لأنها لم تدعني أرمي بك في بيت المجانين، فكرت. وأعدك أنني إذا ما كتبت بدمائك، فإنني سأحظى بأفضل صدى نقدي، فكرت. إياك بعد الآن، أن تتلفظي بالقول: خذها إلى فندق رخيص، كالأخريات. إياك أن تضربيني بالتفاح الفاسد ذي الديدان، إذا ما سألتك من تكون مدام يوردان؟ لا تتظاهري بأنك

لا تعرفين، وإلا رقعت برأسك بالجدار، يا أمي! لا تهمني شكواك ولا أوجاع قلبك! أجل، وستظلين تسمعين أسطوانة الموسيقى حتى تصابي بالطرش!

- يوما سعيدا - حيتني السيدة بيريني، البوابة.

- يوما سعيدا - قلت.

- هل ستدخل؟ سألتني وهي تقبض على باب مدخل البناية.

- لا - قلت، وشعرت فجأة، وكأنني بالمقص قمت بفصل نفسي عن كل شيء، وعن كل أحد.

كل ما أعرفه عن الحرية، عرفته حين ودعت السيدة بيريني، ومضيت نحو ساحة كالفين. صار لا ينضوي عندي تحت كلمة الحرية، انتشاء الطيارين المغيرين، أو الحق الانتخابي، أو إمكانية إصدارنا الأحكام والقرارات وفقا لنظمنا الأخلاقية، إضافة إلى الانسجام الاستثنائي لهذه القرارات مع مشاعرنا ورغباتنا الدفينة. لم تعد الحرية هي الورق الأبيض بالحبر الأسود. ليست كهف الناسك، وليست تلك اللحظة عندما تتوقف الساعة ويبدأ شيء ما يمزق القفص الصدري. الأفضل إذن، إن كنا الآن، تحت كلمة الحرية، نتصور مثل تلك الحالة حين لم يعد أي شيء يربطنا بالعالم المحيط. لا رغبات لدينا، ولا دوافع، ولا مخاوف. يمكن القول: لا أهداف لنا، ولا تشتت، حتى إننا لا نقيم اعتبارا لكون هذا الفراغ لا يزعجنا الآن. حالة غريبة لا توصف، هي الحرية. لا صلة لها باللامبالاة لأن اللامبالاة ساخرة على نحو لا مفر منه، ولا صلة لها بالقول: كل شيء سيان، لأنه يحجب وراءه عارا أو أملا. إن كان كل شيء سيان، فذلك ما يزال ضمن حدود الإنساني جدا. يمكنني القول: الحرية حالة ليست للإنسان.

حين بدأت تمطر، لجأت إلى مظلة كشك جرائد خاطبني البائع إن كنت أطلب شيئا، فقلت لا. على الرصيف المقابل أم تجر ولدها الذي لا يريد أن يضع القبعة على رأسه. ثم جاء الترام. أسرع البعض ليلحقوا به. امرأة مسنة عبرت الشارة الحمراء تحمي رأسها بحقيبة يدها، أطلقت السيارات أبواقها - أترغبين في الموت، اللعنة؟ تسلق عمال على عوارض لتثبيت الإعلان الجديد. نط أحدهم في الهواء، ورسم نصف دائرة بحركة كرقاص الساعة، ناول زميله العدة، ثم عاد طائرا إلى مكانه بنفس الحركة. لم أعرف ما الإعلان السابق. يا نصيب توتو لوتو، أم فابولون، رغم أني كنت أراه يوميا مرتين على الأقل. أغاظني الأمر. لا أحب أن أنسى. في النهاية سألت بائع الجرائد، فقال: فابولون.

في النفق كانت آلة تحضير القهوة تعمل. شربت واحدا. ثم خطر لي أن لدي المفتاح، سأذهب إلى شارع (ناب) وأمضي الآن كثيرا من الوقت.

دار في ذهني أن بضعة الأيام هذه ستكون جيدة لأقرأ كتابا ضخما، (جبل السحر) أو (عديمو الملامح)، لأني منذ سنوات وأنا أجهد نفسي بهما كوظيفة الرياضيات، لكني لم أستطع تجاوز الصفحات الخمسين. تكورت الأحرف، آلمني الصداع، وكأني أقرأ نوتة موسيقية. مازال يخيفني كثرة التنميل على الخطوط الخمسة. ولم يجد نفعا أنني رجوت يوديت أن تقوم بتعليمي الموسيقى، وبدأنا فعلا مرات عديدة، لكني لم أفلح. قالت لي:

- العدس المنثور عشوائيا على الأرض أنسب لاستيعابك مما هو مرتب في نظام طبيعي.

- غباء ما تقولين. أعرف تماما أية علامة سأضع على أي خط، وأعرف ماذا يعني البي، وماذا يعني الصليب، لكنني لا أستطيع أن ألاحظ العلامات دفعة واحدة.

- هذا ما أعنيه.

حين وصلت إلى البيت كان الباب مشقوقا. جلس في المطبخ رجلان مطقمان. بدا من النظرة الأولى أنهما ينتظران منذ فترة. أعدا النيسكافيه لنفسيهما، وجلسا يدخنان. لم يقفا حين وصلت.

- حضرتك من سكان المنزل؟ - سألني السمين، ثم طلب هويتي. كان سبب حضورهما واضحا، وكان بديهيا أنه ينبغي تجاوز الشكليات. أما النحيل فقد دفع بكرسي المطبخ وطلب مني أن أجلس.

- أيمكنني أن أشعل سيجارة؟ سألته وكأنني لست في منزلي.

- طبعا - قال، وقدم لي علبة السجائر.

- شكرا. معي - قلت.

- لا عليك. خذ - قال من دون أن يبدر من لهجته ما يوحي بالتهديد، فأخذت سيجارة من علبته. قلت في نفسي: نوع السجائر نفسه. بدا أنه الأعلى رتبة. تجاهلا تقديم نفسيهما، وهذا أمر ليس نادرا. كان سيسرني لو ندخل سريعا في الموضوع، وبخاصة أني لن أنكر شيئا.

- جميل هذا المنزل - قال السمين بعد أن التفت إلى الآخر منتظرا موافقته، وكأن ما قاله ملحوظة جوهرية تستلزم موافقة جهات أعلى. كنت أتمنى لو أن الآخر هو من يريد أن يتكلم. بدا أكثر تفهما من هذا الشبيه بصورة خنزير، وتوحي سحنته بالسادية.

- أجل - قلت، رغم أني أفتقد المزاج لمثل هذه الثرثرة.

- والأثاث أيضا جميل.

- أغلبه أثاث ديكور - قلت.

- لكن خمسمئة شهريا مبلغ كاف - قال، اغتظت قليلا. لا علاقة لهما بما كنا نعتاش منه.

- أجل - قلت باختصار. بادئ الأمر، كنت أريد أن أقول بأنني منذ أن صرت أكتب وأقوم بالأمسيات القصصية، وأنظم معارض رسم، صار مدخولي جيدا. لكني لم أرغب في تعقيد المحادثة.

- يكفي لشخصين أيضا.

- لشخصين أيضا - قلت، فيما كانت معدتي ترتجف من هذه التلميحات المقرفة وأردت أن أرفض هذا التدخل، لكني لم أفعل.

- لنأخذ قسطا من الراحة ـ قال النحيل، وقدم لي سيجارة أخرى. لم يسمع طوال فترة تدخينها إلا دقات الساعة الحائطية. حاولت أن أتذكر المسرحية التي استعملت فيها هذه الساعة، لكني لم أفلح.

- المنزل جميل جدا - قال السمين حين أطفأت عقب السيجارة.

- أجل - قلت.

- والأثاث أيضا جميل.

- أغلبه من الديكورات المسرحية - قلت، ثم فطنت الآن إلى أن الأسئلة تتكرر، رغم أني لا أظن أننا نجلس هنا لكي نثرثر عن ديكورات ادعت أمي أنها من تركة عائلة ڤير.

- لكن خمسمئة شهريا مبلغ كاف جدا.

- أجل. قلت سابقا، إنه كاف.

- لاثنين.

- لاثنين. هذا أيضا قلته.

- لنأخذ قسطا من الراحة - نطق النحيل، لكني لم آخذ منه السيجارة. وما أغاظني طوال فترة سكوتنا، أنني لم أتذكر المسرحية التي استعملت فيها هذه الساعة، إضافة إلى أنه يجب أن ننهي الموضوع. فليسمعوني بعناية، ثم يحكموا علي بالسجن المؤبد، أو بخمسة عشر عاما، لن أنكر شيئا.

- المنزل جميل جدا - بدأ السمين مجددا. كان أكثر ما تمنيته أن أنهض واقفا لأقول دعونا نذهب، لكني أدركت أن ذلك غير ممكن. وخطر لي أنه سبق أن قلت هذه العبارة لأستر فوق جسر الحرية، ولا أرغب بالتفوه بها لهذين التافهين. وفضلت أن أقول:

- لا معنى لهذا.

- والأثاث أيضا جميل.

- قلت مرارا إنه من الديكورات المسرحية.

- لكن خمسمئة شهريا مبلغ كاف جدا.

- ما الذين تريدانه؟ - سألت الشخص الآخر، لكن محياه لم ينم عن اهتزازة. كان يتذوق قهوته من فنجان شاي أمي، وظل ساكتا وعيناه تومضان.

- لاثنين - قال السمين.

- طبعا لاثنين. إذا قمت بحسابه تجد أنه دخل طبيب هنا.

- دعنا نسترح - قال النحيل ووضع الفنجان.

- دعنا لا نسترح! قولا لي ما الذي تريدانه، ثم دعونا. نذهب - قلت، وأردت أن أنهض، لكن القائد أومأ برأسه بألا أقف، فبقيت جالسا. ثم مع مضي الوقت، ظلا جالسين، ينظران، ونصغي معا إلى دقات الساعة.

- منزل جميل جدا - بدأ مجددا.

- والأثـاث أيضـا جميـل، والخمسـمئة مبلـغ كاف، إلى متـى سـتدوم هـذه الحماقـة؟

- والأثاث أيضا جميل - قال.

- هــلا تكـف عــن هــذا؟ هــل أنتــما معتوهــان، أم تنظـران إلي كمعتــوه؟

- لكن خمسمئة مبلغ كاف جدا.

- أجـل. خمسـمئة فرانـك كانـت مبلغـا وفـر لنـا حيـاة جيـدة. ووفـر طفايـة حريـق، ومسـتحضرات تجميـل لا حاجـة لهـا أصـلا. عشـنا بكفايـة! كان المبلـغ كافيـا تمامـا - لاثنـين.

- دعك من هذا، أنت بهيمة.

- دعنـا نسـترح - قـال النحيـل، وقـدم لي سـيجارة كالعـادة، لكنـي أخذتهـا الآن، لأني ارتجفـت مـن الغيـظ، واسـتمتعت بهـا. حاولـت أن أهـدئ مـن روعـي، وقـررت أنـه لا يجـوز أن أفقـد رباطـة جـأشي، والسـيطرة عـلى نفسي. مهـما فعـلا، عـلي أن أحتفـظ برزانتـي. أخطـأت حـين لم أجـب عـلى السـؤال. أجـل، كان خطـأ. دخلـت في الـشرك، وقبلـت قواعـد اللعبـة.

- هذا المنزل جميل - بدأ السمين مجددا.

- أجل - قلت.

- والأثاث أيضا جميل.

- وأنا أيضا يعجبني، رغم أنه ديكورات مسرحية.

- لكن خمسمئة شهريا مبلغ كاف جدا.

- أجل، كاف جدا.

- لاثنين.

- طبعا لاثنين.

- دعنا نسترح - قال النحيل. تناول السيجارة، أصغيت لدقات الساعة، وشعرت الآن أن كل شيء على ما يرام. ربما كان الخطأ أن إجابتي لم تكن كإجابتي الأولى حرفيا. ثم فكرت أنهما قد لا يذكران ذلك. إذن سيكون من الأفضل أن أنطق الإجابة الأخيرة.

- هذا المنزل جميل.

- وأنا أيضا يعجبني رغم أنه ديكورات مسرحية - قلت، لكني في تلك اللحظة فطنت أنني قد أخطأت، لأنه كان علي أن أقول هذا قاصدا الأثاث. حاولت أن أخفي ارتباكي، فاستجمعت نفسي.

- والأثاث أيضا جميل - قال.

- وأنا أيضا يعجبني رغم أنه ديكورات مسرحية.

- لكن خمسمئة شهريا مبلغ كاف جدا.

- أجل مبلغ كاف جدا.

- لاثنين.

- لاثنين، دعنا نسترح - قلت، لكني كنت قد أدركت أنني بهذا قد أفسدت كل شيء، وأن كل مساعي كانت بلا نفع، لأن «دعنا نسترح»، لست أنا، بل النحيل هو من يقولها.

- دعنا نسترح - قال النحيل، وكأن شيئا لم يحدث. وكان يسرني أن يتطرق إلى المسألة، ولا يقدم لي السيجارة. ثم فكرت أنه عما قريب ستصل المحادثة إلى نهايتها، مهما يكن فهما في نهاية المطاف من البشر ولا يحتملان مثل هذا لوقت طويل. ثم أن هذه الاستراحات جيدة ليستجمع المرء نفسه، لكن في تلك اللحظة بدأ كل شيء من جديد.

- هذا المنزل جميل.

- أجل.

- والأثاث أيضا جميل.

- أجل، لكن أغلبه ديكورات مسرحية.

- لكن خمسمئة شهريا مبلغ كاف جدا.

- أجل.

- لاثنين؟ - سألني، وكنت على وشك أن أقول أجل، لكنه قاطعني فجأة بأنه هو من اعتاد أن يقول «لاثنين» بصيغة غير صيغة السؤال، وأنه لم يوجه سؤالا حتى هذه اللحظة، وشعرت أنهما أوقعاني في فخ، وأرادا أن ينهكاني كدابة تشد بكرة، ولم أجبهما بعناية، لكني بدأت بالصراخ: لا. لم يكن كافيا لاثنين! لم يكن كافيا لشيء، ولم أفعل شيئا! كفا عن ذلك أيها البهيمان.

- دعنا نسترح - قال النحيل حين هدأت، وطلبت المعذرة. حصلت على سيجارة، وأردت أن أسأل إذا ما كان لي أن أطلب ماء، لكني لم أجرؤ.

- هذا المنزل جميل.

- أجل - قلت.

- والأثاث أيضا جميل.

- اسألاني شيئا ما - قلت - لا معنى لكل هذا، فعلا. اسألاني، وسأجيب.

- لكن خمسمئة شهريا مبلغ كاف جدا.

- سأجيب حقا. لم تفعلان هذا؟ كيف لكما أن تظنا أنني سأنكر أي شيء؟ اسألني شيئا، بحق الله! اسألني أتفهم؟

- لاثنين؟

- أجل. لكنه سؤال لا علاقة له لا بالبيت، ولا بالديكورات. اسأل شيئا ذا معنى. اسألني: لماذا؟ حسن؟ دعنا نسترح ثم اسألني:

لماذا؟

- دعنا نسترح - قال النحيل، وظننت أنهما باتا يعرفان ما الذي سيسألانه، وبوسعي الآن أن أطلب كأسا من الماء، هذا ليس سجنا في نهاية المطاف. مازال مطبخنا ثم فكرت أننا نوشك أن ننتهي. سأحتمل هذه الجولة. سيكون كافيا أن أدلي بأجوبتي، وهما لا ينتظران مني أن أتوسل كأسا من الماء في منزلي، وقمت بعض مصفاة السجائر، وبدأت أمضغها لأن لعابا ينتج عن المضغ، وهذا يطفئ الظمأ.

- هذا المنزل جميل - قال السمين، وكان بديهيا أنه يريد إخافتي. كذلك يفعل وكأنه - الآن أيضا - لن يسألني: لماذا، فقلت له: أجل.

- والأثاث أيضا جميل.

لزمت السكوت. ليس بسبب الغيظ، بل أكثر منه من التعب. نظرت إلى الشخص الآخر لأرى إن كان بوسعي أن أستمر في سكوتي قليلا. كان وجهه منتعشا مثلما رأيته حين دخلت المنزل. وكان محياه شمعيا لماعا كما كان.

- لكن خمسمئة شهريا مبلغ كاف جدا.

في الحقيقة، كنت أمقته أكثر من هذا السمين، رغم أنه هو من قال دائما: دعنا نسترح، وهو من قدم لي سيجارة.

- لاثنين.

لكنه للتو لم يكن يتمتع بذرة من الإنسانية. نظر إلي كما ينظر إلى مادة جامدة، إلى آلة أطلقت الدخان بعد أربع عبارات. كرهته، لكنني لم أكن لأجرؤ على ضربه، وربما لهذا السبب بالذات كرهته أشد الكره. أصلب مني، ويعرف جيدا ما يريد. الثاني لا يهم، فقط

هـذا، هـذا الحيـوان الـبراق العينـين. لَمـاذا لا تقـول: دعنـا نسـترح؟ قلهـا أيهـا اللعـين. لمـاذا تحـدق بي؟ ألم تـر مجرمـا مـن قبـل؟

- دعنـا نسـترح - قـال، ثـم قـام إلى المغسـلة، وغسـل فنجـان أمـي، ووضعـه أمامـي كأسـا مـن المـاء، رغـم أنـه كان حريـا بـه أن يسـألني إذا مـا كنـت ظـمآن. رحـت أرتشـف المـاء عـلى وقـع دقـات السـاعة، شـيئا فشـيئا، لأني أدركـت أنـه لـن يقـدم لي الآن سـيجارة، وأن فـترة الاسـتراحة سـتنتهي حالمـا أنتهـي مـن شرب المـاء. وحـين وضعـت الفنجـان الفـارغ، كان الظـمأ مـا يـزال عالقـا داخـل حلقـي كـما قبـل الـشرب، وخطـر لي في أثنائهـا أنـه كان عـلي أن أتـرك بعـض الجرعـات في قعـر الفنجـان، لأن مـن المؤكـد أننـي لـن أحصـل عـلى المزيـد. ثـم خطـر لي أن هـذا ليـس مشـكلة، لا بـل كان ينبغـي ألا أشرب حتـى الـكأس السـابقة، مـا يجـري الآن سيسـتمر إلى أن أفقـد وعيـي. لم إذن لا أفقـده بـأسرع مـا يمكـن. وبخاصـة أنهـما لا يبغيـان أن يسـمعا إفـادتي. أجـل، هـذا بديهـي تمامـا. أبـدا لـن يسـألاني: لمـاذا؟ مـا كان ينبغـي أن أطلـب منهـما أن يسـألاها.

- هذا المنزل جميل.

عبارة أسوأ من أين كنت يا بني، فكرت.

- والأثاث أيضا جميل.

ليس من حقهما مثل هذا، فكرت.

- لكن خمسمئة شهريا مبلغ كاف جدا.

في الحقيقة كاف جدا، فكرت.

- لاثنين.

ستأتي أستر على كل حال، فكرت.

(جميل، وجميل، لكن شهريا لاثنين).

أستر، فكرت.

- ابنها مرهق قليلا، أيها الرفيق العقيد.

- حقا - قال ذو العينين الشمعيتين، وعندئذ رحت أزأر باكيا: أنت رجل أمن فاسد، حيوان، سأقتلك أيها النفاية، لكنهما لم يعيرا ذلك أي اهتمام. نهضا وتركاني على الكنبة مثل خرقة، ثم تناهى إلى سمعي صرير باب مدخل البناية، فتنبهت إلى أنني أصرخ، وأتصبب ماء، وأسمع قرقعة على الباب، وفجأة لم أدر أين أكون، ثم خالجني الشك: أستر قادمة، وأنني نسيت المفتاح في القفل من الداخل، وهي التي تقرقع لأنها لا تستطيع الدخول، وفجأة لم يخطر لي ما سأقول لها لأنني كذبت عليها بأن أمي في المشفى. ثم استرقت نظرة من نافذة التهوية في الحمام رأيت جابي الفواتير.

انتظرت حتى قام الرجل بوضع الفاتورة بشق الباب. ثم اغتسلت واستعدت حالتي الطبيعية، فقمت بعدها بإعادة كل شيء إلى مكانه. رقعة الشطرنج، كتاب جبل السحر، الشراشف. جمعت عبوات البسكويت الفارغة، وعلب السجائر. وأفرغت إبريق الشاي من البقايا، وأرجعت فرشاة الأسنان إلى الكأس كما أعتادت أستر، لأني لم أشأ أن تدري ذات مرة أنني أمضيت عندها هذه الأيام.

كفى لهذه الإبرة، فكرت وأنا في الباب، بعد أن سمعت فرقعة جهاز الأسطوانات. منذ سنوات وهي لا ترجع الذراع إلى مكانه. رسائل يوديت تغطي السجادة. أمي المحترمة: لدي اليوم حفل في ليشبونة. أمي المحترمة: لدي غدا حفل في مونتريال. كانت الرسائل مصفوفة وفقا لترتيبها الزمني، كما تصف أوراق الشدة في لعبة سوليتير. وعندئذ شاهدت درج مكتبي مسحوبا، وقد أخرجت منه مظاريف الرسائل المعنونة إلى فنادق لا وجود لها، وطلبات التعويض التي لا نفع منها، أما أمي فكانت مستلقية على سريري

بفستان الخروج الذي قرضه العث، وبيدها مزق صورة الفتاة الغجرية الكاراكاسية، وما تبقى من ورقة تبليغ الصليب الأحمر، واعتقدت للحظة أنها ما تزال حية لأن عينيها مفتوحتان وتنظران من خلالي كأنما تنظران من خلال زجاج مغبش.

- توفت من حوالي يوم ونصف - قال الطبيب الذي كان رجلا حسن الترتيب يقترب من سن التقاعد ببزته الرمادية، وأظافره - قلبها على الأغلب، لكن ذلك يتبين من خلال التشريح.

- وهل التشريح إلزامي؟ - سألته.

- مبدئيا أجل - قال، وشدد قليلا على كلمة مبدئيا.

- أريد أن أعرف كيف توفيت، لكن دون تشريح - قلت، وضغطت في يده خمسة آلاف.

- سكتة قلبية. خبرة ثلاثين عاما تجعل المرء يعرف سبب الوفاة من النظرة الأولى - قال وهو يخرج محفظته، ويضع داخلها النقود المطوية بعناية، وأرجعها إلى جيبه.

- أكيد؟ - سألته.

- أكيد. لكن إن كان لديك شك، فالجأ إلى التشريح. ليس هنالك ما يخيف، سيخيطونها بكل عناية.

- كيف تعرفون أنها لم تمت من الجوع؟ سألته.

- لا، ألم تر قط أحدا ميتا من الجوع؟ سألني.

- مطلقا.

لم أسمح لناقلي الجثمان بأن يغطوا التابوت إلا حين مروا به في الفناء، لأني أردت، ما دامت عيناها مفتوحتين، أن ترى شيئا من الخارج. ودهش الجيران عندما رأوا ما رأوه، لأنهم خلال خمسة عشر عاما قد نسوا أمي، مثلما نسوا المرحاض المشترك، وغرفة

الغسيل تحت الدرج. ثم في المكتب قلت للموظفة إنني راغب في أن أؤجل الدفن، منتظرا عودة أستر، لكن الموظفة أشارت إلى التعليمات الجديدة التي تمنع ذلك، وبخاصة أن الجثة مضى عليها يومان. ولم توافق على إبقاء الجثة في الثلاجة، حتى مقابل رسوم إضافية.

- لم لا تقوم بحرقها؟ - سألتني - من العملي أن تختار موعدا يناسب كل أفراد العائلة.

- لا أحرق أمي.

ووقعت حيث أشارت لي الموظفة.

أراحني أن أمي قد قالت في وقت مضى إنها ستموت بعد خمسة وعشرين عاما، لم يمض منها سوى خمسة عشر، وحددت آنذاك موقع قبرها في (كربشي)، فلم توقعني في حيرة من أمري. قال النحات إنه لا يجوز إزالة اسم يوديت ڤير، وحفر اسم آخر مكانه، لأنه أمر بشع. واتفقنا أن يدعه، ويحفر تحته اسم (ريبيكا ڤيرهارد)، وتحتهما اسم (ريبيكا ڤير)، وسيبقى هناك متسع.

- هل تريد بيتا من الشعر؟ سألني.

- لا.

- لكنها عادة جارية - قال - دعاء قصير، أو مقطوعة شعرية. سأطلعك على العينات.

- لا داع - قلت - هل بوسعك نقش صورة؟ - سألته.

- طبعا - قال.

- أنقش بجعة إذن - قلت.

- لا يحوي كتيب العينات مثل هذا. فقط صليب، صفصاف حزين، مثل هذه الأشياء.

- ضع هذه.. ذات الشعر الذهبي. - قلت.

قبيل ظهيرة يوم السبت، قصدت أستر لأرى إن كانت رجعت من الديار، كنت أريد أن تحضر الدفن، وبشكل أدق، كنت أريد أن ترى الجسد الهزيل، والأظافر الممضوغة حتى آخرها على الأصابع المعقوفة، وعليها الخواتم التذكارية السبعة، بدءا من الخاتم التذكاري للراحلة يوليا، حتى الخاتم التذكاري لمهرجان موسكو، تلك الخواتم التي تآكلت عنها الطبقات الذهبية منذ مدة طويلة، وتركت حول الأصابع لونا مخضرا أو مسودا وفقا للمادة التي صيغت منها، نحاس، وألمنيوم، أن ترى الشعر الأشقر اللزج، الذي من عام لآخر، لم يعد الصباغ يصبغه إلا عشوائيا، وبانت من خلاله فروة الرأس. أن ترى النهدين اللذين اكتسبا صلابتهما مجددا نتيجة تصلب الجثة، النهدين اللذين كانت في الماضي تضع عليهما الملح بعد شهر ونصف، لكي لا يستطيلا بتأثير الإرضاع. وأكثر ما كنت أريد أن تراه هو النظرة الميتة التي لا تختلف في شيء عن النظرة الحية، تلك النظرة التي وهجها أزرق، أخيرا، ومن الآن فصاعدا، سوف يشع في أعماق قبر بات واقعا حقيقيا.

كانت ورقة إنذار التسديد إلى جانب القفل. كتبت عليها: أمي توفيت. وأعدتها إلى مكانها. ثم ركبت التاكسي وتوجهت إلى مقبرة كربشي، وكنت متأخرا أصلا.

لم يكن لحفاري القبر أي مبرر للشكوى، فلا أعشاب ضارة، ولا عش لطائر (تدرج) ولا جذور لبلاب ينبغي اجتثاثها. لكن النقاش قد أساء النقش على الشعار، فنقش ثلاثة فراخ، فأثارني الأمر، لكني فطنت إلى أن ذلك كان خطأ مني، فقد كان ينبغي أن أقول له: اثنان فقط، كي لا يكون شبيها تماما بالنقش فوق غطاء القلم،

ثـم إن هـذه ليسـت لائحـة إعلانيـة، بـل قـبر. إضافـة إلى أن الأمـر لا يتعلـق بالنقـاش لأنـه يتبـع العينـة، فكـرت. ثـم كلمـت سـائق التاكـسي بـأن ينتظـرني.

- حسنا، لكني سأبقي العداد شغالا - قال.

- طبعـا، لكـن هـلا أبعـدت السـيارة قليـلا - قلـت، لأني لم أرغـب أن تتكتـك سـاعة السـيارة خـلال الصـلاة. ثـم أنزلـوا التابـوت في القـبر، وعندمـا قمـت بإلقـاء قطفـة الزهـر رأيـت أن كومـة الـتراب مليئـة بقصاصـات الـورق القـذرة، وأن شـيئا يمكـن الحصـول عليـه مـن النـوت الموسـيقية، والصـور العائليـة التـي لم تكـن تـرضي الديـدان عـبر خمـس عـشرة سـنة. بـدأ الرجـال الأربعـة يهيلـون الـتراب. كانـت المجرفـة أحيانـا تقطـع الديـدان. وأخـيرا فضلـت أن أصرف التاكـسي، لأني رغبـت أن أتمـشى.

كانـت حانـة (البلقـان) مغلقـة بسـبب الطـلاء، فلـم أسـتطع النـزول إليهـا، كان بابهـا مفتوحـا لتهويـة القبـو، لكـن المكنسـة اعترضتـه، وكان الـدرج مغطـى بالنايلـون. كانـت يوليـكا لتوهـا تشـاحن العـمال لأن طـلاء الحائـط كان أكـثر قتامـة مـما تصورتـه.

- حـين يجـف، سـيثبت لونـه ويصبـح كلـون العينـة، يـا عزيـزتي، قبـلاتي ليديـك - أوضـح لهـا أحدهـم.

- هـل تـراني معتوهـة؟ - انفجـرت يوليـكا - أمـا قلـت لكـم البارحـة إن هـذا القبـو لا يجـف طـوال الحيـاة. قلـت لكـم. أليـس كذلـك؟ أعيـدوا الطـلاء بالكامـل، كـما طلبـت منكـم. والآن عـلى الفـور.

- وهـل تتكفلـين أنـت بـشراء المـواد؟ لأننـا مزجنـا الخليـط، وصـار جاهـزا للطـلاء. أنـا لـن أشـتري مزيـدا مـن المـواد، قبـلاتي ليديـك - قـال الرجـل.

- بل ستشتريها، يا بتيوكا، وسوف تكفلها لمدة سنة، لا تتشاطر علي، وإلا فسيحصل ما لا تتوقعه.

- وأنت لا تتشاطري علي بتنبؤاتك. انتهى حديثنا لهذا اليوم. قبلاتي ليديك.

- ما انتهى ليس الحديث، بل العمل. ألغي العمل، يا بتويكا. إما أن تعيدوا الطلاء، أو يلغى العمل. خذوا السلم.

- غدا، قبلاتي ليديك، إن أحضرت عشرين كيلو غراما من المواد، فسنعيد الطلاء حتى لو إلى اللون الأزرق. لكن ليس قبل أن يجف ما هو على الجدران، قبلاتي ليديك، فإذا ما جف فستلاحظين أنه أخذ نفس اللون الذي طلبته منا. هذا عملنا نحن. هل أتدخل أنا حين تسكبين البيرة، قبلاتي ليديك - قال بتيوكا، ومضيت أنا إلى البيت للقيام بتنظيفه.

خطر لي أنه ربما كان من الأفضل أن أستر لم ترجع بعد. وما الذي كانت لتفعله لو حضرت الدفن، لم تلتقيا سوى مرتين في الحياة، وكان ذلك كثيرا. يكفي أن تعرف أن أمي توفيت. وعلى هذا النحو سيتوافر لي الوقت الكافي لترتيب المنزل، ريثما تعود. سأقول لها: سكتة قلبية، وهذا كاف. وهي لن تسأل المزيد. أنا كذلك لم أستنطقها قط بأسئلتي. لقد احتملت منها أن تلكمني على وجهي، وأن تحطم صندوق الآلة الكاتبة الخشبي على كتفي، لكي أظل مدى الحياة جاهلا لا أعرف عنها شيئا. أنا كذلك ارتكبت أخطاء جسيمة، لكنني على الأقل عرفت نفسي. أجل يوجد هنالك في الحياة ما يفوق أهمية أن نعرف نقاط ضعفنا. نعرفها، ونقبض عليها. من هنا كانت الحاجة لتلك المرأة: إيفا يوردان. لكي لا يفاجأ المرء أمام المرآة حين يرى وحشا بدلا من عينيه الجميلتين،

ولكي يعرف ما الذي عليه أن يفعله. كان خطأ جسيما الإشارة إلى أمي عند إيڤا يوردان. والخطأ الآخر الاغتسال بقذارتها. ليس هنالك أحط من هذه الطريقة للهروب، ولا أكثر سخرية منها. الجبن نقمة كبرى. غياهب السجن لا تشعر المرء بالعزلة بالقدر الذي يشعره بها الكذب. كم فرقت بيننا كل زجاجة من معجون الصابون ورائحة الكلور. لكن لا أهمية الآن لهذا. لا بل إنه أمر حسن، وعلى كل علاقة بين شخصين أن تمر بما مرت به علاقتنا، كم عذب كل منا الآخر، لكننا تجاوزنا كل ذلك، فكرت.

لعل الأمور كانت ستتخذ منحى آخر، لو لم يكن علي أن أعتني بأمي لسنوات. لكنها أمي، ولا أتخلى عنها لبيت عجزة الممثلين، ولا لبيت المجانين. لقد أخذت مني أكثر مما أعطته هي لولديها حقا. قلة هم من يقومون بالطهي كل يوم، لأمهاتهم، وأقل منهم من يحتملون ما تفعله خلال سجنها في الغرفة. جعلت من البيت مدفنا، وعاشت بهذه الطريقة لأن سكرتيرا للحزب أيضا قد لفظها. أمر عادي أن يطبخ المرء كالبعض، لكن ليس بوسع أي كان أن يحتمل سجنا دام خمسة عشر عاما. معجزة حقا أنها احتملت كل هذا الوقت. النوبات القلبية حالة يومية لمن هم في سنها، وتودي بالأشخاص كالإنفلونزا الإسبانية قديما، فكرت. ثم رأيت في حديقة المتحف امرأة تتنزه مع كلبها، كانت مشيتها على الحجارة كمشية الفنانة ڤيير، لكنني عرفت بدقة أنها تشبهها، ليس إلا، وعرفت أيضا أن مثل هذا سوف يتكرر. فيما بعد سوف تجلس في الترام، أو في خلفية سيارة شحن، يمكن وضع ذلك في الحسبان، وما نضعه في الحسبان نضعه بأيدينا. وفي النهاية لم أحطم رأسها بالبلطة، فكرت. الطبيب قال إنها سكتة قلبية، وأنا أقول إنها

سكتة دماغية لأن قلبها كان سليما، فكرت.

- يوما سعيدا - حيتني السيدة (بيريني) البوابة.

- يوما سعيدا - قلت.

- تعازي - قالت.

- شكرا - قلت.

- هل ستدخل؟ - سألتني وهي تقبض على باب المدخل، فقلت لها :

- شكرا.

ثم توقفت عند المدخل، وفتشت في صندوق البريد لكي لا نصعد سويا على الدرج.

وعند باب المنزل رننت رنتين قصيرتين، كعادتي لأن أمي بذلك كانت تعرف أنني الطارق. ثم فطنت إلى أن ما قمت به كان فعلا منعكسا شرطيا، مثلما نقوم بإطفاء المصباح رغم أنه لم يكن مضاء.

كان موعد التعفيش الخريفي. تجمعت كوم النفايات الهائلة أمام الأبنية. في اليوم التالي ستقوم مؤسسة التنظيفات العامة بترحيل ما تعذر رميه في الحاويات خلال عام كامل فكرت أن أستغني عن المجلات الطبية، ومجلات الإذاعة والتلفزيون. في مثل هذه المواعيد كانت تصل إلى الشارع آلات بيانو محطمة، ومعلبات فاصولياء تعود إلى ما قبل الحرب، صنابير مياه، أقفاص عصافير مليئة بالفضلات، قطع دراجات هوائية، أحواض استحمام، روايات مراهقات فات أوانها، مجلات ملونة، أجهزة تلفزيون أسود - أبيض، مطرزات لها رائحة الجدات، ألبومات عائلية بأكثر مشاهد ليلة الزفاف حرارة. آلات خياطة من ماركة سينغر استغنى عنها

الورثـة. معاطـف مـن طـراز (لـودن) أكلهـا العـث، عربـات أطفـال مـن نـوع باتيومكـين، أدوات طعـام مـن الألمنيـوم بعـد أن استبدلت بأخـرى مذهبـة. دلاء أطعمـة وضعـت عـلى حافـة الرصيـف تعفـن فيهـا حسـاء البـازلاء، نونيـات أسرة فاحـت منهـا رائحـة التبـول في أنحـاء الحـي. نفايـات ثلاثـة أجيـال تجمعـت أمـام مداخـل الأبنيـة، وفي اليـوم التـالي قامـت عربـة شـحن مؤسسـة التنظيفـات العامـة بابتلاعهـا وطحنهـا. والغريـب أن حاويـة عربـة الشـحن قـد اتسـعت لنفايات شـارع بكامله. أوضـح أحـد العاملـين في المؤسسـة أن هـذه آلـة جديـدة بوسـعها أن تطحـن حتـى الحديـد، وتجعـل منـه صفائـح. طورهـا الألمـان الذيـن لديهـم خـبرة تقليديـة بمثـل هـذا التجميـع للنفايـات، قـال ذلـك وقـدم لي سـيجارة قـد نسـيها الجنـود الأمريـكان في أحـد الأدوار العلويـة، مازالـت تحتفـظ بنكهتهـا.

- أفضل من سجائر (كوشوت) - قال.

- حقـا أفضـل - قلـت، ثـم صـاح السـائق أنهـم قـد انتهـوا، وعليهـم الرحيـل إلى الموقـع. فـما كان منـه إلا أن صعـد إلى سـلم العربـة الصغـير، وتشـبث بالقبضـة. جلـس ثلاثـة منهـم في المقصـورة الأماميـة، وانتصـب مـع زميلـه في الخلـف كتمثـال برتقـالي اللـون وقـد تـدلى مـن حزامـه كيس مـن النايلـون تجمعـت فيـه أغـراض مازالـت صالحـة. بعـد الدفـن، فكـرت أن أسـتغني عـن المجـلات لأفـرغ غرفـة الخادمـة، لتغـدو غرفـة أطفـال، ثـم أنزلـت الملابـس التـي أكلهـا العـث، والشراشـف ذات رائحـة اللـوز والشـاي بالنعنـاع، وكل مناشـفها، وبعـد ذلـك أفرغـت الـدروج، وجعلـت مـن أحـد الأغطيـة كيسـا جمعـت فيـه مسـاحيقها، وزجاجـات عطرهـا، والفيتامينـات المزيلـة للتجاعيـد، التـي كانـت تسـتخدمها بـلا جـدوى، رغم أن مـا أنفقتـه عليهـا يغطـي نفقـات رحلـة سـياحية حـول العـالم. وعـلى

نفس المنوال شبكتها خيوط اللاشيء كما تشبك العنكبوت الخنفساء بخيوطها. ثم أفرغت الثلاجة، ولففت كل سجاد المنزل.

- خسارة أن تستغني عن هذه السجادات - قالت جارتنا في البناء المقابل وهي تحاول بمساعدة ابنها ذي الوجه المجدور أن تنزل الثلاجة القديمة بعد أن جاءت بثلاجة جديدة من نوع زانوشي، من فيينا.

- اهتمي بنفاياتك - قلت، ثم سمعتها، وهما يهبطان الدرج، تحلل نفسيا لابنها: لم يكن هؤلاء طبيعيين في يوم، من يدري كم من الوقت احتفظ بجثة أمه الميتة في المنزل.

لكني لم أكترث للأمر.

كان لدي الرغبة في إخراج كافة المقتنيات الديكورية من هذا المدفن، كنت قد ألقيت بالأريكة المسروقة من ليدي مكبث، وبسرير لورا لنباخ، ورغم ذلك مازلت أكاد أختنق. ثم وصلت إلى يدي البلطة الصغيرة التي اعتدت أن أنجر بها شجرة الميلاد كي تتسع لها القاعدة أثناء نصبها، حين كنا نحتفل بعيد الميلاد. رحت أشج بها خزانة المطبخ وكأني أشج جمجمتها.

- يا إلهي، ماذا تفعل؟ - سألتني السيدة بيريني البوابة، وقد انتصبت في الباب هلعة، وكنت مازلت أحاول تقطيع الخزانة، وأنا أزأر بملء حنجرتي: موتي، آن لك أن تموتي أيتها المومس.

- انصرفي - صرخت بها، لكنها لم تقو على الحركة، فقط وقفت ونظرت ـ لماذا تحدقين؟ هل تريدين أن تخبري عني؟

- مطلقا، وكيف لي أن أخبر عنك؟ - قالت شاحبة.

- لا تكذبي! قولي الحق! رأيتني عند المدخل! تعرفين جيدا أنني لم أكن في البيت!

- متى؟

- لا تخادعـي! لكنـي لسـت مـن قتلهـا. كـوني عـلى ثقـة. هـل أطلعـك عـلى المحـضر؟ سـكتة قلبيـة! مفهـوم؟! أنـا لم أكـن في البيـت! يسـتحيل أن أقـوم بقتلهـا وأنـا لسـت في البيـت.

- طبعـا لا يمكنـك قتلهـا - قالـت، وكان قـد حـضر زوجهـا الـذي أرادت أن تنفصـل عنـه منـذ عشريـن عامـا.

- كيـف تجـرؤ أن تلمسـها أيهـا الضـال؟ هاجمنـي بيرينـي، وشـعرت أن عظـم ترقـوتي سـينفصم بـين قبضتيـه، لكـن المـرأة جذبتـه عنـي.

- دعه! ألا ترى أنه يهذي - قالت.

- ومع ذلك أحطم وجهه! كيف يجرؤ أن يرفع يده عليك؟

- دعـه، أيهـا البهيمـة. فقـط أمسـك ذراعـي - قالـت، وأخرجـت زوجهـا إلى الممـر الخارجـي.

أجهشـت بالبـكاء، وانهـرت نائمـا. حـين أفقـت وأنـا قـرب البـاب، كان الظـلام قـد حـل. أردت أن أدخـل إلى الزوجـين بيرينـي، لأطلـب الصفـح، لكنـي فضلـت أن أقـوم بتنظيـف الأنقـاض. نفعنـي البـكاء، فلم يبـق في داخـلي مـا أسـعى إلى تحطيمـه. كل مـا شـعرت بـه أننـي أريـد أن أنعتـق مـن كل مـا هـو هامـشي ولا لـزوم لـه. بقيـت أرحـل النفايات حتـى قبـل منتصـف الليـل، لكنـي حرصـت ألا أخـرب كل مـا يمكـن استعماله. وقرابـة السـاعة الحاديـة عـشرة ليـلا لم يبـق مـن غرفـة أمـي سـوى الجـدران المصفـرة، وهيـاكل أثـاث الغرفـة، وفي المطبـخ بعـض الأغـراض، قـدح بالمينـا، أدوات طعـام، طناجـر، أي الأشـياء التـي لم تتحطـم. كان هنالـك مـا يمكـن الاسـتغناء عنـه، لكـن باطـن كفـي امتـلأ بالطفـح المـائي. جلسـت عـلى النافـذة ورحـت أشـاهد مـن يفتشـون في النفايـات حاملـين المصابيـح اليدويـة، والأكيـاس عـلى الظهـور،

حيث في مثل هذه المواعيد يجوبون الحي بعربات النقل الصغيرة ويجمعون أشياء بعينها.

هناك من لا يفك إلا فواصل تشغيل الغسالات، وهناك من يفتشون عن أثريات قديمة، ليبيعوها في سوق الخردة. أنا أيضا عثرت مرة على المجموعة الكاملة لمؤلفات كارل ماركس، وعلى مطحنة قهوة. وكذلك حامل النوتة الموسيقية النحاسي اللون حصلنا عليه من إحدى الكومات. نحن أيضا كنا نجوب الحي كل ليلة كهؤلاء الذين يفتشون بمصابيحهم اليدوية.

- دع من يدك هذا القدر التافه - قالت.

- من الخزف - قلت.

- بل من الحصيات البولية - قالت.

- رأيت مثله تماما في مسرحية البخيل - قلت.

- تريث إذن حتى ينتهي العرض، هذا على الأقل لن يكون مليئا بالبول - قالت.

أرجعته إلى الكومة. لكنها بعد خمس دقائق ما عادت تستعيب حامل النوت لأنه ذو معنى على الأقل، ولو أن المعنى لم يكن معيارا على الدوام. لم نعرف أن نتخصص كأولئك الذين ينتقون ألعاب الأطفال فقط، أو الملابس فقط، أو القطع المعدنية فقط. رأيت الآن من يجول بسيارته، وكانت حافظتها السقفية مليئة بالأغراض.

إن ضغطت كل محتويات مستودع الديكور جيدا فستتسع لها سلة - فكرت، وشاهدت في الأسفل رجلا منهمكا في تفكيك جهاز التلفزيون.

- لا تفككه، سليم تماما - ناديته من النافذة، لكنه اكتفى بالتحديق.

فكلمته مجددا:

- شغال حقا. أنا من أنزلته. جهاز التحكم قربه في مكان ما.

- تسل بأعضائك - قال، وخبط الشاسة بأنبوبة غاز، وانتقل إلى كومة أخرى.

وجدت أيضا في الغلاية شايا بالنعناع لأمي، ولاحظت ثلاث نساء يتعاركن من أجل الثياب. الزوجان بيريني رجعا إلى البيت عند الفجر، فتراجعت عن النافذة، وفيما بعد سمعتهما يتبادلان الحديث: لن تجلبي أثاثا تفوح منه رائحة جثة، فأجابته الزوجة: لو أنك حضرت المسرح لعرفت من كانت تلك المرأة. فكان في نتيجة الأمر أن حملا خزانة التواليت ذات الصفيحة الرخامية التي كانت من مقتنيات (إيرينا) أو (ماشا) لتكون خزانة للأحذية. الصفيحة الرخامية وحدها تستحق طلبا للصفح، فكرت. ثم عدت إلى جلستي في النافذة لمشاهدة البقية. أحيانا يسرقني النوم، لكنني أردت أن أنتظر الصباح لأشاهد حتى النهاية كيف تلتهم الآلة النفايات.

جو استيقاظي كان أشبه برمال متحركة بأسوأ الاتجاهات، أشبه بمستنقع، بسبخة متحركة للأعلى تحاول أن تلقي بالمرء إلى الخارج أكثر فأكثر، وليس فيها محامد كثيرة. كان المنزل أشد قحلا من ثكنة. لنقل إن هذا لم يزعجني. التصق بي الغطاء دافئا كأعشاب بحرية، فظننت لوهلة أن التعرق بللني، لكنني بعد قليل شعرت برائحة قفص خانقة. لم يرضني الأمر. لن أنتظر حتى أتبول في ثيابي بعد خمسة وثلاثين عاما، فكرت. أيضا في الخارج كان كل شيء مبللا، وقد غسل المطر أشجار الدلب في حديقة التحف فجعلها رمادية اللون، كما هي الحال عادة في الخريف. لعلها أواخر

فـترة قبـل الظهـيرة، وهـذا يعنـي أننـي نمـت ثمانيـا وعشريـن سـاعة متواصلـة، حقـا، هنـاك سـبب. الآن في الحـال، عـلي أن أمـضي إلى هنـاك، فكـرت. وضعـت الغطـاء في الحـوض، لكنـي لفـترة، لم أعـرف مـاذا أفعـل بالفـراش. ثـم رشـشـته بالمـاء، ورفعتـه مـن السريـر، وقمـت بإسـناده عـلى المدفـأة القرميديـة. أجـل، عـلي الآن في الحـال أن أمـضي إلى هنـاك، فكـرت. لقـد توضـح لي كل شيء وفقـا لإمكانيـاتي. بوسـعي إذن أن أقـول إننـي للمـرة الأولى منـذ زمـن طويـل قـد رأيـت بوضـوح مـا كان عـلي أن أراه بوضـوح. كان في داخـلي مـن الخـوف مـما هـو مجهـول، مـا يعـادل تقريبـا مقـدار ثقتـي بأمـري، مثلـما تحليـت بالثقـة، بعقليـة الولـد، حـين طـردت عشـيق أمـي. سـيحكمون عـلي بخمـس سـنوات، وربمـا بثـمان. مـدة مـن الزمـن طالمـا احتملهـا آخـرون، فكـرت. مـن المحتمـل أن يأخـذوا بعـين الاعتبـار أننـي أتيـت إليهـم للاعـتراف. ينبغـي عليهـم أن يأخـذوا ذلـك بعـين الاعتبـار، وبخاصـة أن بوسـعي أن أتملـص. لكنـي لـن أتبـول في ثيـابي مـرة أخـرى، فكـرت. كنـت لتـوي أرتـدي الثيـاب حـين رن الجـرس. تـرددت قليـلا وأنـا في الصالـون، ثـم رن الجـرس مجـددا، فاتخـذت قـراري آنـذاك بـأن أسـتر أيضـا يجـب أن تعـرف بالأمـر. لا نفـع في المزيـد مـن التهريـج، سـوف تـدري بأيـة حـال، لأن مـن المسـتحيل عـلى عشـيق أن يتكتـم عـلى خمـس سـنوات. وحـين فتحـت البـاب كان الكاهـن يقـف عـلى العتبـة.

- كان لـدي عمـل في بسـت، فقلـت أزورك - قـال. فجـأة لم أعرفـه. بـل عرفتـه، لكـن كـما لـو أننـي أراه للمـرة الأولى بعـد مـضي سـنوات، في صالـة انتظـار السـكة الحديديـة، رغـم أن ذلـك كان أقـل مـن أسـبوع ونصـف.

- كيف عرفت عنواني؟ - سألته بعصبية.

- منك. هل أزعجك؟

- لا. بل نعم. الوقت غير مناسب. أقوم بتنظيف البيت - قلت. وكنا ما نزال نقف في الباب.

- أنا هنا حتى المساء. بوسعي أن أعود إن كنت تشاء.

- الآن أفضل. أنا مستعجل فقد تأخرت - قلت، وانتحيت جانبا كي يتمكن من الدخول.

- ظننت أنك تنظف البيت؟

- طبعا، لكني مستعجل. ولكن اجلس - قلت، ثم مضيت به إلى غرفتي، منظرها معقول. رفع عباءة الكاهن، وعبر من فوق كوم النفايات، وبقايا الأثاث، وحطام الصحون، وحين كنت ألقي بملابسي عن الأريكة، لاحظت أن نظراته عالقة بالفراش المسند على المدفأة القرميدية.

- طاله الماء أثناء التنظيف - قلت، وندمت لأنني أدخلته.

- يحصل ذلك معي أيضا - قال، وأردت أن أسأله ما السبب الذي يجعله يتبول في السرير.

- آسف، لكن ليس لدي ما أقدمه لك. حتى مسحوق الحساء ليس لدي في الوقت الحالي.

- ما من مشكلة. أردت فقط أن أعرج عليك للحظة، وأسألك عن أحوالك.

- على ما يرام.

- حقا كلمني إن كنت أزعجك. هنالك ما علي أن أنجزه حتى موعد القطار.

- سأكلمك. هل تعطلت سيارتك؟

- لا. ولكنني أعتقد أنني لن أقودها لفترة طويلة. يوم الجمعة كنت أوزع المعونات، فتزحلق أحد الأولاد في الوحل، وصار تحت

العجلة. رأيت بنفسك كيف يتبعون السيارة.

- مات؟

- حمدا لله. كسر في الحوض. أجروا له عملية جراحية هنا في مشفى (يانوش). هذا سبب مجيئي إلى بودابست.

- كنت على وشك أن تقتله - قلت، ورأيت الذهول على وجهه.

- أجل كنت على وشك أن أقتله.

- آسف. لكنني أفهم أنه ليس بالأمر البسيط.

- حقا.

- أظن أن ما يخفف عنك، أنك كنت توزع المعونات، وأنني رأيت بنفسي كيف يركضون حول السيارة.

- حسنا، لكن قبل ذلك لا يخفف كثيرا.

- لكن المرء يضعه في الحسبان.

- طبيعي جدا - قال.

- لو تدري، ذات مرة تحدثت مع سائق قطار أقيل من عمله بعد أن قامت امرأة بإلقاء نفسها وولديها أمام القطار.

- أتعتقد أن علي منذ الآن أن أقوم بزرع الفطر؟

- كيف ذلك. كل ما أردت قوله أن مثل هذا الأمر يخفف عن الشخص المقرب من الله.

- أظن أنك مخطئ في هذا - قال - سيبيريا أسهل احتمالا. لكن على حد علمي أنه لا أحد ينجو من تأنيب الضمير.

- أنت محق تماما - قلت - منذ الآن سأحاول ألا أخلط بين الاعتراف والشغل.

- عاجلا أم آجلا ستكتشف أن الفارق ليس كبيرا بين الاعتراف والكتابة.

- الكتابة أيضا شغل. لا بأس، دعنا من هذا - قلت ذلك بنية إنهاء المحادثة برمتها. ثم لحسن الحظ، رأيت إبريق الشاي على حافة النافذة، وكان ما يزال يحتوي الشاي بالنعناع الخاص بأمي.

- أترغب في الشاي؟ مختمر قليلا، لكنه مقبول - قلت، ثم أردفت قبل أن أسمع منه الرد:

- لا سكر لدي - وسكبت ما تبقى من الشاي في القدح القصديري الأحمر.

- شكرا - قال، وأخرج من تحت ردائه كيسا صغيرا من قطع السكر - قدموه لي مع القهوة في القطار. أشربها مرة.

اعتدت أن أخبئه للأولاد. قد يكون هذا تقليدا للقديس فرنتس برأيك؟ كن على يقين أنهم يبتهجون له أكثر من صور القديسين المنقوشة.

- ليس تقليديا. انتظر، سأبحث عن ملعقة صغيرة - وفي هذه الأثناء حاولت أن أقنع نفسي بأن هذا الرجل لم يأت مصادفة. وأن كتاب (الاعترافات) لا أحد ينزله عن الرف مصادفة. هذا الكابوس، إن كان هناك من يرويه أمام أحد، فالأب لازار هو يقصه، هو من يوزع قطع السكر بدلا من صور القديسين لأولاد الغجر المتورمين. وفيما كنت أتابع بحثي عن ملعقة بين القدور السيئة التنظيف، استعرضت سلسلة من (السبب - النتيجة) بدءا من صناعة الملابس الهولندية حيث تنشز آلات الحياكة وتحوك خمسمئة كنزة مضروبة، مرورا بأن الأب لازار هو من يتسلم من الحرس العمالي قصر العمدة القديم العائد لعائلة فيير، وصولا إلى انزلاق الولد كابرييل تحت العجلة، ونجاته من الحادثة، ليكون هنالك سبب لمجيئه إلى بودابست،

وحين وصلت في استعراضي للسلسلة إلى اللحظة التي رن بها الأب لازار جرس البيت وظننت أن أستر هي القادمة، وسأفتح لها الباب، عندها عرفت أنها حماقة.

- هل أساعدك؟ - سألني ولم أكن قد فطنت له حتى صار وراء ظهري، وبيده قدح الشاي.

- لا، لقد وجدتها، وأقوم بشطفها - قلت - دعنا نرجع، لا مكان هنا لنجلس.

- يفاجئني أنك تعيش في مثل هذه البيئة البروتستانتية. الحقيقة أنني قدرت شيئا مختلفا تماما.

- هكذا حصل - قلت.

- هل حصل طلاق؟

- لا. بل نعم. أمس أخذت أغراضها. هذا سبب هذه الـ..

- من الأفضل إذن أن أرحل.

- سيان - قلت. - أقصد أنني سررت بمجيئك.

كان بودي أن أقول له إنني كنت أنتظر قدومه، لكن ذلك ليس صحيحا. لم يخطر لي أنني سأراه يوما.

- مفهوم - قال.

- وبالطبع كان ممكنا أن يحصل وأزورك ذات مرة. لا ندري متى نهرول إلى القساوسة، أو نتجه إلى زراعة الفطر.

- مفهوم - قال.

- بما أن موقفي من القساوسة كموقفي من الأطباء. إن اضطر المرء إلى التوجه إليهما، فهذا يعني أن الأمور باتت على أسوأ حال.

- كما أرى، غرورك ما يزال على حاله. إلى الآن ما من مشكلة كبرى.

- لكن لا علاقة لكل ذلك بالغرور. على أية حال، الكالموبيرين أفضل من الاعتراف القدسي لأنه خافض للحرارة دون شرط الإيمان.

- لا تقم بالاعتراف إذن.

- طبعا - قلت - هل لديك سيجارة؟ تعلم أنني انفصلت عنها الآن، و...

- للأسف، لا.

- سيان. الحقيقة، أنا من أردتها أن ترحل، ثم قذفت بكل شيء، بدءا من كريمات إزالة تجاعيد العيون، حتى أجهزة إطفاء الحريق.

- مفهوم - قال.

- بت أبغضها وتبادلني البغيضة. أعلم أن للكنيسة رأيا آخر حول هذه المسألة، لكن لا فائدة بعد أن طفح الكيل، وصرنا لا نطيق بعضنا كل هذا الحد.

- مفهوم - قال.

- لا بأس، لكنك تفهم ما أتحدث عنه، أليس كذلك؟

- طبعا أفهم. كرهتما بعضا.

- من الصعب ألا تكره الطفيلي.

- أفهم - قال.

- حتى بعد التبول تسألني أين كنت يا بني.

- أفهم - قال.

- لكن لا بأس. ليس لدي زوجة، بل لدي زوجة لكن ليس على الورق. ثم إننا لا نعيش معا منذ مدة. أنا حظيت بعاهرة ملحاح، وهي حظيت بفلكي هاو.

- أفهم - قال.

- أنا من بدأ.

- أفهم.

- في الحقيقة كنت أعيش مع أمي.

- أفهم.

- لكنها توفيت الآن.

- آسف.

- لا داعي للأسف، قلت إننا كرهنا بعضا.

- هذا في بعض الأحيان حبل القوة.

- أجل - قلت.

- أفهم - قال.

- موتها أفضل لها على أية حال. وربما لي أيضا. على الأقل تمكنت أمس من رمي الأغراض المزرية.

- أفهم.

- كف عن قولك: أفهم! ماذا أنت؟ غراب، قيق؟! ما الذي أتى بك إلى هنا. ما الذي تريد أن تنتزعه مني؟

- أنا لا أريد أن أنتزع شيئا منك. لم ألمس حتى الآن ما يمكن انتزاعه منك - قال، ثم عدل جلسته كمن لا نية له مطلقا في المغادرة - أما قلت لك كلمني إن كنت أزعجك؟

- تزعجني! ليس هذا كرسي اعتراف! هذا كرسيي أنا!

- أعلم - قال.

- لقد قرفنا بعضا، وكفى. لو كان لدينا أسبابنا! ما الغريب في ذلك؟

- رغم أنك تكتب أشياء جميلة عن أمك - قال.

- دعك من هذه التفاهات! حتى كلمة واحدة ليست صحيحة

من ذلك، كله كذب! كذب لنيل جائزة الدولة. أنت تصدق كل ما هو مزور؟!

- أنا صدقتك. لا تغضب إذا ما قلت لك إنك الآن تكذب. لم أوجه لك أي سؤال، وكل ما بدر مني أنني قلت لك بضع مرات: أفهم. مثل الغربان. فكان معك الحق لأنني لم أكن أفهم. من الجائز أنك كرهتها، من الجائز أن لديكما أسبابكما، وأنك قذفت حتى بمناشفها، لكنها أسباب لا تجعل أحدا يتبول في فراشه.

شعرت أنني أختنق، لا من الغيظ، بل من الحياء، ومن الخوف بالأحرى.

- لا تغضب مني - قلت.

- حقا! كيف تظن أنني لم أتحدث كسائق سيارة.

- بودي أن تنصرف - قلت.

- قليلا من التهوية - قال، وفتح النافذة ثم تناول مظلته - سأحضر السجائر، وشيئا من الطعام. أظنك لم تأكل شيئا منذ مدة. ولا بأس بجرعة من الجعة في مثل هذه الحالات.

- الأفضل أن تأتي بالنبيذ - قلت.

وببقائي وحيدا في الغرفة الفائحة برائحة البول، دهمني خوف يشبه خوفي السابق حين اعتقدت أن تلك المرأة تريد أن تسممني. لا معنى لهذا. لن أناقش قسا، فكرت. ما كان ينبغي أن أسمح له بالدخول. هنالك كتاب القانون المدني. سأطالب بنبش الجثة وتحديد سبب الوفاة، لكن لا ضرورة لي لعزاء روحي. سيحكمونني بخمس سنوات وينتهي الأمر. أنا في نهاية المطاف لم أحطم رأسها بالبلطة. في نهاية المطاف يمكن لي أن أكون بريئا. حتى الطبيب قال إنها سكتة قلبية. إن لم أذهب إلى هناك فلن يتكشف الأمر.

سـأذهب، ولـو أن ذلـك لم يعـد مجديـا. أجـل، بـكل بسـاطة يمكـن أن يكـون الجـيران قـد قدمـوا بالأمـس شـكوى ضـدي. مـا كان يجـوز لي أن أتهجـم عـلى السـيدة بيرينـي البوابـة. ومـا كان ينبغـي أن أفقـد السـيطرة عـلى نفـسي. يمكنهـم أن يرسـلوا إلي أيـا كان للشمشـمة. ولم لا يكـون القـس جـاء مـن طرفهـم؟ عـلي أن أكـون حـذرا أمـام هـذا المتسـلل، فهـو ذكي.. شـديد الـذكاء. عضـو تافـه في منظمـة الشـبيبة الشـيوعية المجريـة، جـرى تأهيلـه روحيـا ودفعـوا بـه إلى الكنيسـة. وهـذا غـير متوقـع، لأن مثـل ذلـك قـد انتهـى. ولكنـه نـزل لـشراء النبيـذ، لنبـدأ بعدهـا الثرثـرة. لـن تفلـح في ذلـك. عـلى أيـة حـال لقـد فعلـت حسـنا إذ سـمحت لـه بالدخـول. عـلى الأقـل أعـرف مـع مـن أتعامـل. لقـد ثقـب الفـراش بنظراتـه. رجـل الأمـن هـذا ثقبهـا مـن فـوره، تـرى مـا السـبب الـذي جعـل شـخصا بالغـا يتبـول في فراشـه. لم يقـل السـبب جهـارا أمامـي.

بـكل بسـاطة، لم آت إلى البيـت، وكفـى. أنـا شـخص بالـغ، وقـد لا آتي إلى البيـت لأننـي متـزوج مثـلا، أو بسـبب موقعـي، أو ارتباطـي بعمـل يجعلنـي لا آتي إلى البيـت مـدة أسـبوع. في الحقيقـة كان عـلي أن أسـلك مثـل هـذا السـلوك منـذ مـدة طويلـة، قبـل أن ألتقـي أسـتر مبـاشرة بعـد رحيـل شـقيقتي يوديـت. المسـألة تسـتأهل حكـم خمـس سـنوات، أو ثمـان. لكنـي لـن ألجـأ إلى القساوسـة. لا أطبـاء، لا قساوسـة. لا أريـد أن أرى أيـا مـن هـؤلاء، طـوال حيـاتي. أنـا أدرك تمامـا مـا عـلي فعلـه. لا أطبـاء، لا قساوسـة، لا أريـد أن أرى طـوال حيـاتي. أرفـض نبـش قـبر أمـي. سـأحطم يـد كل مـن يحـاول أن يتطـاول عليهـا، فكـرت. وأخـيرا وجـدت معطفـي.

مـن وراء أجـمات حديقـة المتحـف المبللـة بالمطـر، رأيتـه عائـدا بكيـس النايلـون. لا بـد أنـه ظـل يـرن جـرس البيـت مـا يزيـد عـلى

عشر دقائق، وحين خرج من مدخل المبنى، كان مغتاظا أكثر منه مندهشا. تسكع قليلا على الرصيف، نظر إلى ساعته، ألقى نظرة إلى النافذة في الأعلى، ثم رحل أخيرا. بللتني مياه المطر الباردة، ورغم ذلك فكرت أن هذا هو الأفضل بكثير. ليس هنالك أتفه من أن تتوجع أمام القساوسة. رغم أنه كان حسن النية. خطئي أنا، كوني لا أحتاج لهؤلاء. لو جاء في وقت آخر! ثم عدت إلى البيت لأني لم أعرف أين أذهب في مثل هذا الوقت.

تدلى كيس النايلون على مزلاج الباب، وداخله النبيذ والسجائر، وشرائح السلامي، وعبوتان من الماجي، وقد وضع في شق الباب قصاصة كتب فيها أنه سيعود مساء، لكن إن كنت ما أزال غير راغب في الحديث معه، فلأقصده في أي وقت.

في الحقيقة هو من عليه أن يجمعنا، فكرت وأنا أغلي الماء من أجل الحساء، مع أنه ليس من المؤكد أننا نحتاج إلى موسيقى الأرغن، فكرت. ثم قطعت السلامي في حساء الكرنب، وسكبت قليلا من النبيذ.

كان الغداء نافعا. دخنت سيجارة، ثم كنست كل شيء. أنزلت النفايات بضع مرات، وما بقي من أغراض كدسته في غرفة الخادمة. الفراش جف. صار المنزل مقبولا. أنا أحب أعمال التنظيف المنزلية.

عاد في أول المساء كما وعدني. لكنني لم أفتح الباب لكي لا أضطر إلى الإيضاحات بشأن ما حصل. غادر وأردت أن أناديه من النافذة، ثم قررت ألا أفعل. إن ألقى نظرة للأعلى فسيراني، لكنه لم ينظر.

خططت لأرسل له فيما بعد بطاقة بريدية أشكره فيها على الطعام. الحقيقة أنني لم ألتق قسا سواه لا يتجشأ بعد كل جرعة

من النبيذ المقدس بكلمة من الكتاب المقدس. لم ألتق قسا سواه لا يشير إلى المحبة كأولى الوصايا. أجل إنك قس في منتهى الصلاح، يا أبت. حساء الكرفس الخاص بها يعدل أكثر من نبيذ القداس الخاص بزملائها. لا عجب في أنهم (خفضوا منزلتك) طردوك من الكنيسة الإكليلية! كن على يقين، يا أبت، أنه كان المحتمل لسيارة الأسقف الجوالة، أن تودي بحياة الطفل الغجري. وما دامت لم تمته، فإن الأسقف سيذهب بسيارته لزيارة المريض. زيارته للمريض أمر لا شك فيه. وهناك عند حاملة السيروم ستؤدي دعاء يجعل حتى عيني المصور تترقرقان بالدموع. لعلك لا تعطيني الحق يا أبت، وببساطة يمكن للخبرة الخام أن تضللني، لكن سامحني على ذلك، طبعا إن صورة الإيمان لدي من الدرجة الثانية، ونادرا ما شكلتها من قساوسة الدرجة الثانية، فكرت. إنها مسألة خاصة ومؤسفة تماما، وتدعو للأسف، فكرت. لكنها قد تتعدل بمرور الأيام، فكرت. أنت محق في أنني ما أزال أحتفظ بغروري القديم، ولكني أفضل في مثل ذلك الوقت الإذعان عندما لا أشعر بحاجة خاصة إلى الرعاية. هكذا فحسب.

حاولت أن أتصور أنني سأقصد مقر شرطة الحي، لكني توقفت عند البواب. ثم خطر لي أن من الأفضل أن أكلم أولا الطبيب الذي شخص سبب الوفاة. أذكر أنني وضعت المحضر في أحد الدروج مع كافة بيانات الدفن. من حسن الحظ أنني لم أرم أية أوراق ضمن ما ألقيت به من نفايات. ثم عثرت على رسائل أمي المعنونة إلى فنادق لا وجود لها. أخرجت من حقيبتي شفرة الجيليت، وفضضت المغلفات الأربعة والعشرين. لم أجد فيها سوى البطاقات الفارغة. خلال خمسة عشر عاما لم تكتب لشقيقتي يوديت حرفا واحدا.

منذ اللحظة الأولى كانت تغش في لعبتنا البائسة هذه. أستر كانت محقة، حين لم يدهشها أن أمي كانت تعرف بدقة من تراسل وكانت تعرف كل شيء وتتذكر كل شيء. ثم فكرت أنه ما دامت الأمور اتخذت هذا المنحى، وأنني سأكتب، فإن هذه البطاقات الفارغة جاءت في وقتها، مادام الورق الأبيض قد نفد من عندي.

سألني البواب عمن أبحث، لكنني لم أتذكر الاسم، فكان علي أن أنظر في المحضر. صعدت ماشيا إلى الطابق الثالث، لأن المنتظرين كانوا كثرا عند المصعد. توقفت عند أحد منعطفات الدرج لأتيقن إذا ما كانت سترتي مرتبة، وإذا ما كنت قد عقدت عرى قميصي، ثم مددت إصبعي ومسحت عيني أيضا لكي لا أبدو شخصا غير طبيعي. علي أن أبدو هادئا، فكرت. وكان ينبغي أن آكل أكثر مما أكلت، لأن الجائع لن يكون منضبطا على نحو كاف. ثم تابعت صعودي إلى الطابق الثالث. وأمام الغرفة ذات الرقم ثلاثمئة واثني عشر حاولت أن ألاحظ إذا ما كانت قبضة الباب من الألمنيوم.

- تفضل - نادت امرأة لطرقة الباب، فدخلت وقدمت نفسي ثم قلت إنني أبحث عن الطبيب إشتفان فريجل. فقالت إن الدكتور ليس هنا الآن، فإن كان الأمر ضروريا فعلي أن أنتظر في الممشى، لكن من الأفضل أن أعود حوالي الظهيرة.

- إذن الأفضل في الغد - قلت.

- أتوصي له بأمر؟ - قالت.

- لا. المسألة شخصية بحتة - قلت، وتنفست الصعداء، لأني لا أعود اليوم - لا. ربما غدا بعد الظهر - ومضيت مسرعا باتجاه الدرج، وأردت أن أجري حين فتح باب المصعد، واصطدمت هناك بالطبيب الشرعي.

- تبحث عني؟ - سألني وبان عليه أنه لم يبتهج كثيرا لمرآي، وكنت على يقين بأنني إن لذت الآن بالفرار، فلن تكون لي عودة إلى هذا المكان طوال حياتي.

- أجل، قلت، وفي تلك اللحظة كان كل شيء أمامي جليا مثلما كان جليا صباح أمس حين شعرت أن الغطاء يلتصق بي كالأعشاب البحرية الدافئة. دلفت إلى المكتب كأني أرتاد مبنى البريد لأدفع الفاتورة، وقلت له بأوضح العبارات الواخزة إنني قتلت أمي.

- وما الذي تريده مني؟ - سألني.

- لا أفهمك. ماذا تعني بقولك هذا؟ بدل المحضر. أنت تعرف ما الذي ينبغي أن تكتب في مثل هذه الحالات.

- وستروي للشرطة الأقوال ذاتها؟

- طبعا.

- سأصف لك دواء، رغم أن ذلك من شأن طبيب متخصص. أنت مرهق قليلا.

- لا حاجة لي بالدواء. ألم تفهم ما قلته لك؟

- بل فهمته، أنت تتهم نفسك بقتل أمك. طبعا ليس من دون سبب .

- أنا لا أتهم نفسي! يبدو أنك لا تفهم، أو أنك تخشى من ارتكابك للرشوى بعد أن دسست النقود في جيبك، وتغاضيت عن تشريح الجثة؟ رغبتي كانت أن تموت! كنت أدرك تماما أنها ستموت. هذا ما يسمونه جريمة.

- هدئ من روعك، رجاء. ليس ثمة فقرة قانونية تعتبرك مجرما. قد تكون وضيعا، وترغب في موت أمك. لكنك ظاهريا لم ترتكب أية جريمة. وإن ارتكبتها فإنك قد تملصت منها بعبقرية. سوف

يطردونـك مـن كافـة مكاتـب الشرطـة. أتفهـم؟ إن لم تختلـق هيسـتيريا أضخـم مـما تزعـم، فلـن يقبلـوك حتـى في مشـفى الأمـراض العقليـة - قـال، وتنـاول دفـتر الوصفـات الطبيـة ليكتـب لي مهدئـا. صرت خجـلا مـن فقـداني صـوابي. لم أحسـب حسـابا لمـا تفـوه بـه (لا وجـود لفقـرة قانونيـة تجرمنـي). يتصـور الإنسـان إذا مـا أراد قتـل أمـه أن هنالـك فقـرة بهـذا الخصـوص.

- لا حاجـة لي بالـدواء - قلـت، وصرت أرتعـش بكافـة أوصـالي، لكنـي ضبطـت نفسي.

- سأكتب الوصفة، وإن شئت، فلا تصرفها.

- أي أنك تعتبرني مريضا.

- لا. مرهـق فقـط. عـلى أيـة حـال أنـا أصدقـك. لكنـي سـأسر إن لم تقصـد هـذا المـكان ثانيـة. قـد أقبـل أن تـدس النقـود في جيبـي، لكنـي لا أطيـق الأشـخاص الوضيعـين الأوغـاد، حتـى لـو كانـوا يعانـون مـن اضطـراب نفسي عابـر. تنـاول الـدواء، وسـتتجاوز المسـألة. لسـت الوحيـد الـذي يتناولـه.

- أفهم - قلت.

- أنت كاتب إن لم تخني الذاكرة.

- أجل.

- ألـف إذن كتابـا صغـيرا جيـدا. تسـام، صعـد حالتـك. سـتنال السـكينة، والراحـة، والنقـود أيضـا.

- أجل.

- ارفـع رأسـك عاليـا إذن. هـذا الـدواء يفيـد في خطـة العمـل. وصفـت لـك دواء لا يمنعـك حتـى مـن الـشراب.

- أجل - قلت، ونهضت، ثم وضعت الوصفتين في جيبي.

انقضـت الأيـام الأولى عـلى نحـو تافـه. دار في ذهنـي، طبعـا، أننـي لـن أتخـلى عـن البيـت. حتـى إننـي ابتعـت كثـيرا مـن الحاجيـات، وتجادلـت في المتجـر مـع عاملـة الصنـدوق. طلبـت منـي أن أرجـع إلى الـرف هـذه الكميـة الكبـيرة مـن البسـكويت لأنهـا ليسـت للمتاجـرة، فقلـت لهـا بـأن تيـسر لي الأمـر، فـشراء الكميـات الكبـيرة كانـت محظـورة عـلى زمـن الآقوشـيين مـن رجـال الأمـن، لكـن ذلـك قـد ولى. وبإمـكاني الآن أن أشـتري كل محتويـات المتجـر مـن الثلاجـة حتـى الإعلانـات الضوئيـة. أغاظتنـي لأنهـا سـمحت لنفسـها أن تتلفـظ بهـذه النـبرة، فقـط لأننـي ببسـاطة، ذميـم بنظرهـا.

- إن لم تحسـبي كـم المبلـغ فسـأمضي بالحاجيـات دون دفـع ثمنهـا - قلـت.

- حاول وسترى كيف أزجك في السجن كالقذارة.

- يؤسـفني أن ذلـك لا يتـم بسـهولة. وأضيفـي مـن فضلـك سـتين علبـة سـجائر - قلـت، وقـد بـات رتـل المصطفـين يفقـد صـبره، لكـن الجميـع وقـف إلى جانبـي بالقـول إن مـن حقـي، مـا دمـت أدفـع النقـود، أن أشـتري الكميـة التـي أشـاء مـن شـاي النعنـاع والبسـكويت. وأخـيرا قامـت امـرأة مسـنة بمخاطبـة الفتـاة أن تنجـز عملهـا وإلا فسـتطردها مـن المتجـر، لأنهـا بهـذه الأخـلاق أجـدر لهـا أن تعمـل في السـوق لا في متجـر. وفي نهايـة المطـاف تمكنـت مـن دفـع الحسـاب، لكنهـا عـلى آلـة الصنـدوق ضربـت بالتفصيـل: بسـكويت، شـاي نعنـاع، مسـحوق حسـاء، بقصـد إضاعـة الوقـت وتأخـير الزبائـن، ونكايـة بي أرجعـت لي الفكـة كلهـا بالنقـود المعدنيـة الصغـيرة.

- عدها، قالت.

- شكرا، بل أفضل أن تعطيني بدلا منها طردا من الكبريت وعشر أكياس نايلون - قلت، ثم عبأت القذارات الكثيرة بالأكياس كيفما اتفق، وخرجت مرتجفا من غيظي، ليس من حقها أن تكلمني بهذه الطريقة. ما دامت لا تعرف عني شيئا، لا يجوز لها أن تكلمني وكأني خرقة.

إذن، لقد دار في رأسي أنني لن أترك المنزل، وهذا أمر طبيعي للغاية، لكنه تبين بعد ثلاثة أو أربعة أيام أن الفكرة لا تروقني. فمن جهة، حين كنت أعمى، كانت يوديت تخرجني لنتمشى في الممر الخارجي. ومن جهة أخرى، قد أكون الآن لا أرى أموري بجلاء كاف كما ينبغي، وهذا لا يعني أنني وصلت إلى حد الجنون. وحتى لو كنت أرى الأمور بجلاء، كآخرين كثر، فأنا في النهاية لست ناسكا أو راهبا. واحتجازي لنفسي في الغرفة من تلقاء ذاتي، ما هو إلا عمل تهريجي يدعو للسخرية.

انقضت الأيام الأولى على نحو تافه. بعد الحديث مع الدكتور فريجل أمكن لي أن أدرك بدقة كافية أن نقطة ارتكاز السكينة الحقيقية مازالت أبعد قليلا من نقطة ماري ترنكو ييلليتاتيس على القمر، ولكن بلوغها أيسر. إضافة إلى ذلك، إذا ما انكب المرء على العمل، فإن الزمن بلا ريب، يعلق في الطين، كما يحصل عند التمديد، طبعا يمكن أن أعبر أيضا أنه خلال الكتابة، يكون من شأن التوقيت في موقع داڤوس دورف في سويسرا أن يبطل توقيت غرينتش، وعلى نحو لا يتعلق أبدا بكوننا بعد إنجاز العمل نزلنا عن الجبل هناك أم لم ننزل.

كنت إنسانا ضعيفا على الدوام. لا مثابرة أتمتع بها، ولا معتقد أؤمن به. لوقت طويل كان لدي أحلامي المشوشة عن نوع من

الجمال، والنظام. وهو أمر ليس بالقليل في النهاية، لكنه قليل مع ذلك. قرأت في مكان ما أن هنالك من ينشئون المتاهة، وهنالك من يتوهون داخلها، أما أنا فربما أتمتع بمقدرة وحيدة خاصة هي أنني مناسب للقيام بالوظيفتين. ولكن هل منشآتي المتاهية تبلغ من القيم ما يساوي طباشيرها، أم أن ما قمت به مجرد عمل حدائقي، وجز أعشاب لا قيمة له؟ الحكم على هذه المسألة ليس من شأني. أما البحث عن الأسباب التي استدعت مني إنشاء المتاهة الموحشة إلى أقصى حد، فتلك مهمة يعجز غيري أيا كان عن القيام بها.

كل ما أردته أساسا أن أكتب رسالة مطولة لأستر أخبرها فيها ما حصل لأمي. صحيح أنهما لم تلتقيا سوى مرتين، وكان ذلك كثيرا، لكنها يجب أن تعلم بأمرها. بادرت إلى كتابة أكثر من رسالة، لكني كنت أتعثر عند استهلالها، وهو أمر لا يستدعي الدهشة. خلال عقد ونصف كتبت نوعين من الرسائل: بعض منها - وهي الرسائل الأولى - كنت أستهلها بعبارة عزيزتي يوديت. أما البقية فكان استهلالها بعبارة أمي الفاضلة. وبعبارة أخرى، لدي أسبابي لأقول إن قصصي كانت من حيث الفطنة وصفاء الذهن، أكثر توفيقا من رسائلي. لكن الأب لازار، للأسف، قد تخبط حين اعتقد أن ثمة تشابها بين الكتابة والقداسة الرابعة. أراهن أن حساباته تفوق ما وقعت به أمي من حسابات خاطئة، حين قالت، ليس بوسعك يا بني أن تتصور كم بمقدور المرء أن يسامح نفسه إذا ما لزم الأمر.

ليس ما أفكر فيه معقدا، ولا يستلزم إلا الاستعانة بالزجاج المظلل. إحدى جهتيه شفافة يمكن رؤية الأشياء من خلالها،

وجهته الأخرى مرآة عاكسة لما يقع أمامها كما هو حال نوافذ مكاتب العمل الجديدة. مثالنا هذا سيخدم فكرتنا جيدا، وبخاصة أنه مجرد من صمت الكنائس المقدس.

من يجلس في الداخل يشاهد الشارع عبر الزجاج، ويرى كيف يصفع المطر الغبار على الرصيف، ولا يعتريه الضجر على الرغم من أنه المشهد نفسه طوال الوقت. يرى كيف أن سائق الباص يغلق الباب مجددا في وجه أحدهم، ولا يدري لم قام بهذا السلوك. من في الداخل، يرى السيد W المتأخر عن العمل وقد توقف اليوم أيضا للحظة ليضبط ساعته التي تشير إلى الثامنة في حين كان الوقت الثامنة وعشر دقائق. ومن الطبيعي أنه يمكن للجالس في الداخل، أن يستنتج أن السيد W لو كان سائق باص، فلن يغلق الباب في وجه أحدهم، لكن هذا الأمر لا يهمنا في مثالنا. كل ما يهمنا أن من في الداخل يرى كل شيء بجلاء كاف.

بعد أن كنا حتى الآن في الداخل، دعنا نبدل موقعنا ونقف في الخارج وكأننا السيد W الذي، خلال عملية ضبط ساعته، يرفع عينيه نحو هذه المرآة العاكسة. سيرى نفسه واقفا على الرصيف، قابضا، على زنبرك ساعة (دوكسا) كما يفعل كل صباح منذ خمسة عشر عاما. سيرى كيف انزاحت ربطة عنقه لأنه أسرع كالمجنون. سيرى كيف تمطر كعادتها، والباص رقم سبعة يطرش الماء الموحل، ولعله لا ينتبه إلى هذا التفصيل لأنه يرى ملامح الذعر تكسو وجهه ثانية بسبب تكرار مسرحية الساعة الثامنة أو الثامنة وعشر دقائق. ومن جديد أيضا، يقرر أن من الأفضل ألا ينام تجنبا للفظاعة التي تحصل معه.

ثـم يفاجـأ بأنـه يقـف أمـام نافـذة وأن أحـدا في الداخـل يراقـب منـذ سـنوات، كل مـا يقـوم بـه مـن كـذب. وليـس شـاقا عـلى أحـد يمتلـك قليـلا مـن المعرفـة عـن الطبيعـة الإنسـانية، أن يخمـن مـا يعتمـل في كل منهـما. مـن هـو وراء الزجـاج سيشـعر بـشيء مربـك غريـب، لكنـه يـدرك أن الرعـب في عيـون الآخـر قـد اسـتحال إلى بغضـاء. لعـل هـذا الإدراك ليـس في موقـع بعيـد عـن المغفـرة. ولكـن السـؤال: هـل تتلاقـى عيونهـما في هـذه اللحظـة. سـؤال لا جـواب عليـه. قـد نجـد جوابـا لـه في حالـة النظـر مـن الداخـل، لكـن الجواب أكـثر تعقيـدا بالنظـر مـن الخـارج.

والآن لنتصـور أننـا أنفسـنا مـن يقـف في كلتـا جهتـي الزجـاج المظلـل. تصورنـا هـذا سـهل للغايـة، لكـن مسـألة المواجهـة، للأسـف، لـن تتبـدل كثـيرا. الكتابـة أشـبه بهـذا الأمـر. أمـا الاعـتراف والتبرئـة فيحصـلان، كلاهـما، مـن خـلال الشـبكة الرهبانيـة.

ابتعـت راديـو مـن نـوع شـوكول. اشـتريته بالأسـاس لسـماع الموسـيقى في المسـاء لأننـي ألفـت صـوت التلفزيـون عنـد أمـي طـوال الليـل، وأسـتطيع أن أنـام بشـكل أفضـل. ثـم صرت أسـمع المحطـات الفرنسـية والروسـية والبرتغاليـة، ولكنهـا بعـد فـترة صـارت توتـرني. عـلى أسـاس نثـار الكلـمات، أو نـبرة الصـوت يعتقـد المـرء أنـه يخمـن موضـوع الحديـث، وحقيقـة الأمـر أنـه لا يـدري إن كان المذيـاع يبـث نـشرة إخباريـة، أو برنامـج تسـلية. قـد يفهـم بالمصادفـة كلمـة هنـا وكلمـة هنـاك، فيغـدو مرغـما عـلى الانتبـاه، وشـيئا فشـيئا يتملكـه إحسـاس بـأن أمـرا مـا يفوتـه. ثـم اعتـدت عـلى محطـات الإذاعـة العربيـة، حيـث لا كلـمات جرمانيـة، ولا لاتينيـة، ولا سـلافية، بـل مجـرد رتابـة لغويـة مجهولـة تمامـا، وإذا مـا سـمعت بصـوت خفيـض تحقـق

نتيجة أفضل من الموسيقى والإذاعات الأوروبية، كأن السماء هي التي تتكلم، تارة بصوت رجل، وتارة أخرى بصوت نسائي.

ثمة حادثة أريد أن أدونها مهما يكن. مجموعة أمي قدمت عرضا في شارع ماركو. توسلت لها أن تأذن لي بالذهاب لأني أردت أن أرى كيف يكون السجن. كان ذلك إما في الرابع من نيسان أو العشرين من آب[26]. والأرجح في الرابع من نيسان. أجل لأنني كنت ألبس معطفا. قالت يوديت بأن أكف عن مثل هذا الطلب لأن المكان مقرف كحظيرة حيوانات، وظلت هي في البيت تتمرن. أنا تصورته مكانا أشبه بالمسرح، حيث الحضور كلهم بالبزات الرسمية، وبغض النظر عن اليوم، يجب عليهم مشاهدة خشبة المسرح الخالية كل مساء، حتى نهاية حياتهم.

أقيم العرض فيما يشبه صالة احتفالات، أو صالة للثقافة. أشعار، أغان عمالية، مشاهد ذات أهداف تربوية، الزيز والنملة. السيد الفنان دويش لعب دور الزيز لأنه كان يجيد العزف على الكمان بمستوى الهواة لكنه يؤدي عرضه في سجن. كانوا يقدمون عرضهم باستياء على الرغم من أنه لم يكن عرضا إلزاميا، وهذا أسوأ ما في الأمر. فلو كان إلزاميا لاستطاع المرء أن يرفض، وستكون نتيجة الرفض معروفة. لكن إن لم يكن إلزاميا، من يدري إن كان المرء سيحظى بنقاط استحسان إضافية. مهما يكن من أمر فقد كان العرض نوعا من الضمانة: أكيد ما هو أكيد، فربما لن يتاح لهم في الموسم القادم تمثيل مسرحية غوركي.

(26) عيدان وطنيان في هنغاريا.

لا ريب في أنني قد وضعت في تصوري أن الصالة لن تختلف كثيرا عن صالة المسرح. على ارتفاع يقارب خمسة أمتار أضيئت النيونات التي تعذر إطفاء أنوارها لأسباب تتعلق بالأمان، وفاحت فيها روائح كروائح مطعم المدرسة. وعلقت تحت الشعار عبارة أظن أنها تتعلق بالعدالة. وجلس السجناء بانضباط على مقاعد خشبية بلا مساند. ووقف الحراس على طول الجدران من الجهتين. باختصار، لم يكن العرض كثير الشبه بالعروض التي تقدم في المناطق، حيث الجمهور يتململ على الأقل حتى بداية العرض وهو يمضغ العلكة، ويقوم بالصفير إن تجاوز البطل السلبي حده، أو سلك سلوكا مثيرا، ولكن الذين يقفون في الباب ليسوا من رجال الأمن، بل نساء مسنات يجمعن تذاكر الدخول، وهن قلة قليلة.

جلست عند طرف الصف الأول. كان البرد قارسا فلم أخلع المعطف، من هنا أتذكر أنه الرابع من نيسان. سبب آخر جعلني لا أخلع معطفي: كانت سترتي بلون ملابس السجناء، وكنت أتوخى أن أختلف عنهم. إلى جانبي جلس رجل رياضي، وأنا هنا أشير إلى قامته فقط، لأن الملابس الرسمية علامة المساواة بين الشخص والنكرة. ثلاثمئة قس صغير في كنيسة أمر مرعب كثلاثمئة سجين في صالة ثقافية، أو كثلاثمئة جندي مأذون في محطة القطار الشرقية. لا نفع إذن من قوام هذا الرجل الرياضي، كما لا نفع من أن هيئته أكثر إنسانية من حراس السجن المنتصبين قربنا مباشرة، كما لا معنى من قولي: كأنه عامل سكة حديد، أو مدرب رياضة، أو شاعر كبير.

كان على ساعده وشم أزرق. امرأة ذات نهدين ضخمين وذيل سمكة. أخذت أنظر إليها، لكن أزعجني أن الصورة مقلوبة، وأن

وجه الحورية غير ظاهر، لأنه مغطى بكم سترة الرجل الرياضي وقد استند على كوعيه. حييته، ثم طلبت منه أن يكشف لي عن وجه المرأة، لكنه سوى كم سترته قائلا إن هذا ليس للأولاد، يا أخي الصغير.

- أنا أندور ڤير - قلت، وأردفت له أن أمي هي من قرأت شعر أتيلا يوجف على المسرح.

- أنا ألف وأربعة وعشرون - قال، ثم تبسم ونطق باسمه كاملا، لكني لم أعد أذكره.

- لم أنت في السجن؟ - سألته.

- وهذا أيضا لا يخص الأولاد - قال - لكن اطمئن، لأني لا أؤذي أحدا بلا سبب.

فسألته: كم يوما يدوم سجنك؟

فسألني: ما أكبر عدد تتصوره؟

فقلت: لا نهاية.

فقال: هذا عدد لا يستطيع أحد أن يتصوره.

فقلت: أنا أستطيع.

فقال: حسنا.

ثم سألني: كم عمرك؟

فقلت: له ستة ونصف.

فقال لي: الأفضل الآن ألا أتصور اللانهاية، بل أن أضع في تصوري أنني عندما أبلغ سنا يساوي أربعة أضعاف ما عشته حتى الآن، عندها سأصبح رجلا ناضجا وأتزوج امرأة جميلة مثل أمي الآن. عندئذ سيطلق سراحه.

- أمي أيضا ستظل بهذا الجمال.

- طبعا يا أخي الصغير - قال، ومسح على رأسي.

حاولت أن أتصور أنني في عمر أربعة أضعاف عمري الآن، فلم أستطع.

- هذا كثير - قلت.

- نحتمل ذلك على ساق واحدة - قال. ثم تابعنا مشاهدة العرض، لأن أحد الحراس أومأ لنا أن نسكت.

لم تكن هناك منصة عرض، بل وضع شريط عزل بيننا وبين الممثلين، وتدلت على الجانبين ستائر حددت مسرح العرض. في المشهد التالي لعبت أمي دور العاملة، ولعب يوتيار دور سائق الجرار، وأخذا يتحدثان عما ينبغي فعله مع رئيس ورشة العمال الذي يقوم بسرقة القطع من المصنع. ما أذكره من المشهد أن أمي ضبطت رئيس الورشة وهو يحزم إحدى القطع بمنديله، لكنها لا تريد أن تبلغ عنه لأنه لا يقوم بسرقتها هي بالذات، أما سائق الجرار فكان يشرح لها أنها مخطئة وأن عليها أن تتخيل الأمر إذا ما كان جراره يحتاج لقطعة التبديل هذه في موسم الحصاد تماما، وأن الجرار سيتوقف عن العمل لأيام، ألن تحصل كارثة، وبخاصة أن مخزون قمح العام الماضي قد نفد. لذلك فإن على أمي أن ترى أن السرقة تمسها شخصيا، كما تمس المجتمع المجري بكافة أفراده.

- من القمح الطازج لا يطحنون طحينا، لأنه سيتعفن منذ اليوم الأول، لا بأس أن تعرف هذه المعلومة يا أخي الصغير - همس لي الرجل محاذرا ألا يسمعه الآخرون.

- هذه النصوص لا يكتبها الممثلون - قلت بعد أن شعرت بالحياء من أن أمي تنطق على المسرح بالتفاهات.

- طبعا - قال، ثم سألني إن كان لدي إخوة.

- نعم، لكنها لا تحب السجن. فضلت أن تبقى في المنزل تتمرن. عازفة كمان - قلت.

- وأنت، أي فنان أنت؟ - سألني.

- لا أدري بعد. تشغلني هوايات كثيرة. ربما الرسم أولا - قلت، ثم سألته إن كان لديه أبناء، فقال إن لديه صبيا من عمري تقريبا، وإنه يجيد السباحة.

- وهل اعتدتما أن تسبحا معا؟ - سألته.

- أجل أنا من علمه السباحة. كنا كل صيف نسبح في نهر تيسا.

- هذا يعني أن ابنك يمكن له أن يرى حورية البحر - قلت.

- أنت أمهر من محام - قال، ثم سألني إن كنت أرغب بالجلوس في حضنه، فوافقت.

والذي حصل بعد ذلك كان مرعبا. فما إن وضعني على ركبته حتى مثل أمامنا حارسان وأخرجا السجين من القاعة بعد أن كبلا ذراعيه خلف ظهره. بدأت أنا بالصراخ: اتركوه حالا لأنه لم يفعل شيئا. دعوا أبي وشأنه، وراح السجناء يضحكون. ثم حملتني أمي إلى خلف الستارة وصفعتني بشدة، ليس بسبب صراخي، بل لنطقي كلمة أبي.

لا شك في أن النهاية الأخرى للحادثة أكثر مبعثا على الرعب، حين فتل الحارسان ذراعي السجين إلى الخلف وأخرجاه من القاعة، لم أجرؤ على مناداته. وبعد مضي سنوات، رحت أجري الحسابات لأعرف متى سيطلق سراح صاحب الرقم ألف وأربعة وعشرين، لأني كنت أرتعد من مثولي أمامه في يوم.

وذات مساء فتشت في درجي عن حبر، فعثرت على دفتر نابضي. ظننت بادئ الأمر أنه يعود لشقيقتي يوديت لأنني قد

كتبته بيدي اليسرى. بقيت لفترة طويلة أكتب باليسرى، وبخاصة إذا ما كان الأمر يتعلق بتدوين الأحلام، والشعر، وما شابه. أظن أن المرء في سن الرابعة عشرة، أو الخامسة عشرة يتفاقم لديه ولو قليلا الشعور الصحي بالخجل. يمكن للمرء أن يتحمل جيدا الرعشة المفتعلة للفنانة إيڤيت بيرو في مكان إيداع معاطف زبائن مطعم كارباتيا. لكن إذا ما كان الأمر يخص القصائد المنظومة والمرسلة للفنانة ڤيير فإنه سيختبئ حتما ويلعب لعبة الغميضة مع الوجود. وشيئا فشيئا يتبين أن متوسط عمر الوجود قرابة خمسة وأربعين عاما، يقضيها إما في التصفيق أحيانا، أو الوقوف والخروج من الصالة أحيانا، أو بالجلوس في البيت جل الوقت، والقليل من المطالعة قبل النوم. ومع مرور الوقت، يمكن تخمين تعداد هذا الوجود من البشر: في حالتي، هناك في المجر خمسة آلاف في الوقت الحاضر، وليس هذا بالرقم السيئ، وبخاصة أنني لم أذكر الطبعة الفرنسية بعد. وباختصار، فما إن نقبض على الأبدية حتى تنهار فجأة. تنهار على يوليكا التي يمكن برأيها كتابة هذه القصة لأنها جميلة. وينهار على الجابي الذي يشجع الأمر بعد أن توافرت الوثائق. تنهار على سؤال أمي: ما هذه التفاهة يا بني؟ وعلى طرقات الآلة الكاتبة التي استعادتها أستر، الممتدة حتى الصباح، وكأنها أرغن نحتت أوتاره من خشب. بالعودة إلى الدفتر النابضي، عثرت فيه على حادثة بحجم نصف صفحة عن البومبيين الذين عاشوا في مدينة بومبي الإيطالية الداثرة. وبشكل أدق عن الحفريات هناك: حين يكتشفون التجاويف البشرية، ويصبونها بالجبس، فإنهم يشعرون بالنصر لأنهم يجدون نسخة عنهم في أعماق الحمم المتجمدة. ثم لاحقا بالطبع، يندلع بركان ڤيروف

ويبدأ كل شيء من جديد، وهذا ما ليس بوسع المرء أن يفوته وهو في عمر الخامسة عشرة.

جاءتني أستر بعد حوالي أسبوعين. لا. بعد ثلاثة أسابيع، في نفس اليوم حين وصلت بودابست. سألتني ما الذي حصل لأمي، فحرصت أشد الحرص أن أروي كل شيء بمنتهى النزاهة. وكل ما كذبته أنني لم أنم في منزلها، لأنني لم أشأ أن أشركها فيما يحدث. اختلقت فتاة باسم أديل باردوش تعرفت عليها في القطار، ونمت عندها، لكنها قالت لا جدوى مما تقوله، حاول ألا تكذب هذه المرة على الأقل. وحين دخلت غرفتها عرفت على الفور أنني نمت هناك.

سألتها كيف استنتجت أنني أكذب، فقالت:

- لأنك لا تعرف الفرق بين ظاهر الغطاء ومقلوبه. ثم أردفت قائلة: على أية حال، أديلكا هذه كانت محبوبتك في روضة الأطفال، وهي التي أكلت الرمال حين قررت أمك أن تنقلكما إلى روضة النخبة التابعة للوزارة.

قلت لها إن ذاكرتك رديئة، ثم إنه قد يكون أحد آخر يحوز على المفتاح، ولا يفرق بين ظاهر الغطاء وجهته الداخلية.

- اطمئن لا أحد غيرك يحوز على مفتاح المنزل - قالت.

صمتنا لوهلة. بعدها فطنت إلى أنها مازالت ترتدي معطفها، فسألتها إن كانت تريد أن تخلعه.

- سأعد بعض الشاي - قلت.

- حسنا.

وانتظرنا قرب النار حتى غلى الماء. سألتها عما تفكر به بشأني. قالت إن ما تفكر به بشأني لا يمت بصلة لما تحس به الآن.

حملت الإبريق بمنديل الجيب، وأحضرت هي الفنجانين، والسكر. دار بخلدي: حتى الآن مر عليها حالة إجهاض، وإقامتان في قسم الأمراض العقلية، وأمور أخرى طبعا، وهي الآن في غرفتي للمرة الأولى بعد هذه الحوادث. لم تجد نفسها هنا، فعادت إلى جلستها في الكنبة، وأنا على السرير كما كنا من قبل.

- كيف كانت إقامتك في بلدتك؟ - سألتها، أما في الحقيقة فقد كنت أريد أن أسألها إن سافرت وحدها أم اصطحبت معها الفلكي.

- أفضل ألا نتكلم عن هذا الآن - قالت.

- حسنا - قلت، ثم صمتنا مرة أخرى. حاولت أن أنظر إلى وجهها وكأنني أراه للمرة الأولى. ودار في ذهني، لو أن هذه المرأة لفت ذراعي قبل ظهر هذا اليوم على جسر الحرية، لبحت لها بكل شيء مطمئنا وعن طيب خاطر. ودار في ذهني أيضا، لو أعرف على الأقل لم شعرها لا يصل إلا حتى كتفيها، ولم عيناها متغضنتان.

- سأذهب إلى البيت - قالت.

- ابقي قليلا بعد - قلت.

- قررت أن أرحل نهائيا إلى البلد.

- متى؟ سألتها.

- لا أدري بعد. مثل هذا يحتاج إلى نصف سنة، وربما أكثر.

- حسنا - قلت.

وروت لي أن الرجل الذي اشترى المنزل سابقا، قد توفي منذ ثلاث سنوات، وأنها قد كلمت الورثة لاستعادته بثمن المنزل في شارع (ناب) في بودابست.

- فهمت - قلت، وخطر لي للحظة أن من الأفضل ألا يبيعوا منزل شارع ناب، كي نأوي إليه عندما نأتي إلى بودابست، ثم تبين لي أن لا معنى لهذا.

- ستمئة كيلو متر ليست بالمسافة الطويلة. خلال ليلة واحدة تكون هناك - قالت.

- طبعا - قلت.

- وأنا أيضا يمكنني أن أجيء غالبا.

- أعلم - قلت.

- لكن هذه المدينة جهنم بالنسبة لي.

- أعلم - قلت.

- وهناك أيضا قد تكون جهنم، لكني على الأقل في بلدي.

- أعلم - قلت.

- حقا كان من الأفضل ألا نتحدث بهذا الآن.

- فعلا. دائما كنا نتحدث عن كل شيء بعد فوات الأوان - قلت.

- لا تبك.

- لا أبكي. دخان السيجارة في عيني - قلت، وحين تقدمت مني وقبلت جبيني كان الخوف قد غادر حلقومي، من شدة سروري بعدما ظنت أن عيني تدمعان لأنها سترحل إلى البلد.

- يمكنني أن أنام هنا؟

- طبعا - قلت.

لكن عندما قبلتني خفت أن تتحطم الكتلة الخرسانية التي صرت متآلفا معها على أحسن ما يرام، والتي، طوال الأسابيع الماضية، لم يزعزعها شيء، لا خوف، لا حجة عقلية، ولا أدوية الدكتور فريجل.

- لا. قلت.

- اخرس - قالت، واقتربت، فحاولت أن أنصرف بتفكيري إلى عربة مؤسسة التنظيفات العامة التي تطحن الأثاث، لكن محاولتي باءت

بالفشـل. مـن جهـة لأن عاما مـضى عـلى آخـر مـرة، وبسـبب الخـوف مـن جهـة أخـرى. وهكـذا إذن، قبـل أن ألمسـها، عبثـا حاولـت أن أصرف تفكـيري إلى شيء آخـر.

كان وجهـي عـلى بطنهـا، وكنـت أحـاول أن أتفـادى قدر ما بوسـعي، مـا تفكـر بـه. رحـت أحـصي الكتـب عـلى الـرف: ألـف ومئتـان مـن كتـب النـثر. هـذا كثـير إلى حـد مـا. كان ينبغـي أن أرمـي إلى النفايـات مـا كتـب في القفـازات المطاطيـة، فكـرت. ثـم أطفـأت المصبـاح الخافت.

- هل تأتي معي؟ - سألتني.

- لا - قلت، ثم صمتنا مجددا، لكن في الظلمة.

- إذن سأبقى هنا في بودابست.

- لا سـبب يدعـوك للخـوف عـلي. أنـت قلـت إننـي أسـتطيع العيش حتـى في عمـق البحر.

- كنت مخطئة - قالت.

- حقـا! - قلـت، وعانقتهـا، كان وجههـا مبلـلا بالدمـوع لكنهـا لم تبـك، أو أنهـا عـلى الأقـل كتمـت صوتهـا، فلـم أسـمعه.

- حتام ستظل تكذب علي؟ - سألتني.

- ثلاثة أسابيع. ربما شهر. مازلت عند جسر الحرية.

- ليس لك الحق - قالت.

- هذا هو الشيء الوحيد الذي من حقي - قلت.

- لسـت مـن قتلـت أمـك. أمـك مـن قتلتـك. وقتلـت شـقيقتك يوديـت أيضـا.

- ممكن - قلت، وبعدها لم نكلم بعضا حتى الصباح.

حـين اسـتيقظت كانـت القهـوة جاهـزة. وسـترتي عـلى كتفـي أسـتر التـي وقفـت عنـد النافـذة تشـاهد المطـر، والجميـز في حديقـة

المتحف. قلت لها: آسف من أجل ما حصل الليلة الفائتة، فحتى لو كان لدي الحق، فإن الجبن سيد عظيم بما يكفي، صار بوسعها أن تعرف هذا القدر، وأن الأسابيع الماضية قد انقضت حقا بما هو طبيعي على نحو كاف، وبخاصة أنها تريد أن ترحل إلى بلدها بشكل نهائي. فكانت هذه المصارحة مني أشبه بالتعديل الأخير على حبل القنب. إلا أنني لا أود أن أحيا على سطح الجليد، ولا في قاع البحر، وهو أمر طبيعي أيضا. أكثر ما أتمناه طفل، لكن بالطبع ليس هنا في هذا المدفن سابقا. إذن ينبغي أن نبيع هذا المنزل، ونتمكن بثمنه من أن نستعيد بيت جدها، وأن نحيا أيضا. قيمة الفورنت جيدة هذه الأيام. وهكذا نستطيع أن نحتفظ بالمنزل في شارع (ناب) لمثل تلك الحالات حين نزور بودابست في بعض الأحيان، ولاسيما أن علي أن آتي لأجل دار النشر. لكني أحتاج الآن لثلاثة أسابيع، أو لشهر بالحد الأقصى ريثما أنهي هذا الكتاب الذي أعمل عليه الآن بنشاط وسلاسة لحسن الحظ، وهو أمر يدهشني كثيرا، ويفاجئني، لأني في أوقات أخرى قد أتعثر لأشهر، وأبذل مشاق كبرى عند نعت أو تشبيه، أو لقب، لكن الكتابة الآن تسير سلسة سلاسة الماء. صحيح أنني قد اضطر لاحقا لأعمال تصحيحية أكثر بكثير، لكني إذا ما حافظت على هذه الوتيرة من العمل، فستتمكن هي من ضربه على الآلة الكاتبة في نهاية شهر أكتوبر (تشرين الأول)، وهذا أفضل من أن تبحث لي عن دار نشر، الأمر الذي لم تفلح به في المرة الماضية، حين حصلت مهزلة. لكن لا بأس. أنا إذن في حاجة إلى هذه الأسابيع من العزلة، لأستجلي أمورا كان علي أن أستجليها منذ مدة طويلة. وهذا يستدعي منها ألا تأتي لأسابيع، وألا نلتقي في أيام الإثنين. وبعدها سأنشر إعلانا في صحيفة

أكسبرس لبيع المنزل، لأن السماسرة محتالون بغالبيتهم. وما عليها الآن إلا أن تكتب للورثة، وحالما تصلني نقود أبي، سنتمكن من إرسال عربون.

- انتهيت؟ - سألت.

- أجل - قلت.

أرجعت سترتي إلى مسند الكرسي، وجلست أنا على الطاولة أشاهدها ترتدي الثياب. تصلبت جلدها إلى لون بنفسجي، وارتعش جسدها كله كما حصل لها سابقا حين تمددت في ماء الحوض الجليدي. لم تكن نظرتها تنم عن شفقة، أو بغض، أو لا مبالاة. في الحقيقة لا شيء. كمن ولد الآن حديثا ومن فوره صار في سن الثالثة والثلاثين. للمرة الخامسة على الأقل. الجوارب أولا ثم الحذاء، ثم ارتدت بلوزتها.

- أأبقى هنا؟ - سألت.

- لا. لن تغفري ذلك لنفسك أبدا.

- لا يهم، أيهما أغفر لنفسي من بين أمرين - قالت، ثم ارتدت كامل ملابسها - بقائي هنا أكثر احتمالا من جلوسي في البلد، والشرود في الظنون.

- فيما بعد لن تضطري للشرود.

- أفعل ما هو أفضل لك.

- هكذا أفضل.

- أعلم - قالت.

وساعدتها في ارتداء معطفها. قبلتني على جبيني، وخرجت من الباب كأنها ذاهبة لشراء الخبز من الحانوت.

بعد أيام توقف المطر أخيرا، ونزلت إلى حديقة المتحف لنصف

ساعة. عند نافورة الماء وجدت حمامة ممزقة، قضى عليها كلب. حاولت أجمع سلسلة السبب والنتيجة بدءا من أنني قلت لشقيقتي يوديت بغضب شديد في جنازة الفنان الغر الجديد، إنها إذا ما طفح كيلها من الكذب الذي تتلقاه فلترجع إلى المنزل وتقطع شريان معصمها بوتر الكمان، مرورا بأن أمي، بسبب ملحوظة تتعلق بمسرحية تراجيدية تافهة، قد قامت بإجراء مراقبة على مدخنة المنزل مئة مرة، وصولا إلى الكلب دوبرمان غير المطيع لصاحبه شوبل، الذي يتسلل، رغم لائحة الحظر، ليصطاد الحمام في حديقة المتحف، وصرت أتعثر بالكتابة فلا تسير أمورها منذ أيام بسلاسة، وأجهد عبثا في انتقاء نهاية لقصة السجن، لأن كل نهاية صحيحة، كالأخرى. فما علي إلا أن أنزل لنصف ساعة، قبل أن يشاهد مشرف حديقة المتحف جثة الحمامة، إضافة إلى أنني أحمل في جيب معطفي كيس نايلون. أقول إنني حاولت أن أجمع سلسلة السبب والنتيجة، فتبين لي أن كل ذلك هراء بهراء مثلما حين نقول إن أمي لا حصة لها من الخبز لأن رئيس الورشة العمالية قد سرق قطعة الغيار من المصنع ليصنع سكوتر لطفله. وليس الهراء بسبب عدم وجود ذلك الذي يضيع وقته، بمثل قلعة كرتونية كهذه، بل لأنه بمثل هذه القلاع لا يضيع وقته إلا من يقف في إحدى الجهتين ويرى كل شيء بجلاء، لكنه لا يرى من الجهة الأخرى سوى أنه يقف مجددا على الرصيف، والساعة بيده ويحاول أن يرجع عقاربها إلى الوراء بعد أن خربها خلال عشر سنوات.

ثم جاء المشرف بأكياس النايلون ولملم من حول المقاعد علب السجائر المرمية، وأغلفة البسكويت، وشتى النفايات. وظل على

الأرض نصف الكمية من ريش الحمام، لكنه استطاع في النهاية أن يلم معظم جسد الحمامة، ودار في ذهني أنه على الرغم من كل محاولاتي فإن صورة الإيمان عندي طفولية بما فيه الكفاية، ولهذا فإن هذه الصور تتسع للمشرف بأكياسه النايلونية، ثم دار في ذهني أنه إن لم يكن هنالك حمامة فإن ورق الجرائد سيلعب نفس الدور.

إن صحت حساباتي، فسيكون بهذا اليوم قد مر ست وثلاثون سنة على جلوس كل من (أندور دارڤاش) و(ريبيكا ڤير)، و(إيڤا يوردان) في سيارة الخدمة من نوع فولغا، لكن في مقعدها الخلفي لكي لا تربك الحوادث المؤسفة حالتهم الرومانسية. وحصلت أيضا من يوردان على صورة التقطت في أحد أكواخ الحراسة التابعة لوزارة الداخلية، في تلك الأيام حين قام زملاء أبي في قسم التاريخ المجري بإعداد كوكتيلات - المولوتوف من زجاجات البيرة من نوع كوبانيا. إنها صورة بقياس بطاقة بريدية، ليست بديعة لكنها حافظت على قوامها ولم تشحب بعد. جلس ثلاثتهم حول طاولة مطبخ مشغولة بعوارض خشبية، أمامهم إبريق زجاجي مليء بالنبيذ حتى ثلاثة أرباعه، وأقداح، ومن ورائهم ظلمة الغرفة الداخلية. أبي في الوسط بكنزة محبوكة، أمي تسند رأسها على كتفه، مشقوقة الشفتين قليلا. إيڤا إلى اليمين ذقنها على كفها، بين إصبعيها سيجارة، ويدها الأخرى على يد أمي، لكنها محجوبة وراء الإبريق فلا تلاحظ جيدا. والجميع ينظر إلى العدسة، منتظرين عمل الموقت الذاتي للكاميرا (زوركي). لا تصنع في نظراتهم. لا يبتسمون ولا يسرحون في شيء. سعداء بشكل واضح. وإن

صحت حساباتي، فإنهم قد عادوا إلى بودابست في نهاية نوفمبر (تشرين الثاني)، وكانوا خمسة يجلسون في المقعد الخلفي.

خططت في الأصل لأكتب لأستر بعض السطور على ظهر الصورة، ولكن شيئا لم يخطر لي لأكتبه. فما كان مني في نهاية الأمر إلا أن عنونت البطاقة، ثم نظرت من النافذة لأرى متى ينتهي الاحتفال ووضع الأكاليل أمام مبنى الراديو، حيث أقرب صندوق بريد.

بالطبع أخاف، لكن ما دامت المدفأة القرميدية تشع الدفء على نحو جيد، سأبقى محتفظا بملامحي الإنسانية. وحتى لو أجلس في الخارج، في فناء منزل على ضفة بحيرة مثلا، في مكان ما، في جبال الكاربات، فلن أكتب سوى شيء واحد لا غير؛ هو أن أمرا وحيدا يملؤني بالدهشة: السماء المتلألئة بالنجوم فوق رأسي. وهذا ما يزال قليلا جدا[27].

(27) إيمانويل كانت: ما يملؤني بالدهشة: السماء المتلألئة بالنجوم فوقي والضمير الأخلاقي في داخلي - [المترجم].

المترجم في سطور

نافع معلا

- مواليد اللاذقية 1953.
- مهندس من جامعة بودابست - هنغاريا.
- مدرس في جامعة دمشق حتى عام 1985.
- أستاذ الهندسة الوصفية في كليات الهندسة في جامعة تشرين - اللاذقية حتى عام 2012.
- عضو نقابة المهندسين في سورية.
- له ثلاث مجموعات شعرية.
- عضو اتحاد الكتاب العرب – جمعية الترجمة - دمشق.
- يترجم الأدب المجري منذ عام 1980.

د. عبدالله عبدالعاطي النجار

- مترجم وباحث (أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا).
- استشاري تدريب دارسي ومترجمي العربية والمجرية في معهد بالاشي بالنت التابع لوزارة الخارجية (بودابست).
- أتم دراسة الليسانس في جامعة عين شمس، والدراسات العليا في جامعة ديبرتسن ومعهد بالاشي بالنت بالمجر.
- حصل على الدكتوراه من جامعة سجد المجرية في عام 2014.
- له كتب مترجمة منشورة عددها 24.
- لديه مجموعة من الأبحاث العلمية المنشورة بدوريات محكّمة وصل عددها حتى الآن إلى 32 بحثا بالعربية والإنجليزية والمجرية.
- شارك في 13 مؤتمرا دوليا.
- له مشروعات بحثية مشتركة مع معهد دراسات أوروبا البحر متوسطية بروما وكالياري، ومجلس البحوث الإيطالي، ومعهد فيرتاس للدراسات التاريخية ببودابست وأكاديمية العلوم المجرية وجامعة سجد.
- عضو الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، واتحاد المؤرخين العرب، ومكتب المعلومات والدراسات الفنية بأكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا، والجمعية المصرية للمترجمين.



أتيلا بارتيش

- كاتب ومصور فوتوغرافي.
- مواليد 1968.
- ولد في ماروش فاشار هاي الرومانية.
- يقيم في بودابست منذ عام 1984.
- أقام عدة معارض للتصوير الضوئي داخل هنغاريا وخارجها.
- نال كافة الجوائز الأدبية الهنغارية من دون استثناء.
- كتب القصة القصيرة والرواية والمسرحية.
- أولى مجموعاته القصصية هي النزهة.
- له مسرحية بعنوان: «أمي كليوباترا» تُعرض في المسرح القومي في بودابست.
- أهم رواياته: السكينة عام 2001، المترجمة إلى أكثر من ثلاثين لغة عالمية.
- آخر أعماله روايته الضخمة: النهاية.



السكينة - رواية من الأدب الهنغاري

لم يحظَ نـص أدبي مجري معاصر بمـا حظيت به رواية «السـكينة» من احتفـاء في هنغاريا وخارجها منذ صدورها سـنة 2001، فقد صدرت بطبعات عديدة في بودابسـت، وما تزال تلاقـي رواجها الأدبي في موطنها، وسرعان ما تلقفتها دور النشر في غالبية البلدان الأوروبية والأمريكية.

اعتبرت رواية السكينة أفضل رواية مترجمة في أمريكا لعام 2001.

يجدر القول إن رواية السكينة قد وضعت كاتبها أتيلا بارتيش حالا في المقدمة إلى جانب الروائيين المبدعين المعاصرين، وجعلته يتفوق على أبناء جيله في شـهرته العالمية بعد أن تُرجمت إلى أكثر من ثلاثين لغة أوروبية، إضافة إلى ما أحرزه الكاتب عليها من جوائز أدبية في هنغاريا.

نص ما بعد حداثوي من حيث البناء، وعلى النقيض من عنوان الرواية، فإن محتواها يفتقر تماما إلى السكينة.

تدور أحداث الرواية في فترة اسـتبداد الحزب الواحد حتى انسـحاب الجيش السـوفييتي من المجر عام 1991، وتَشكُّل النظام السياسي الجديد سـلميّا هناك. هـذه الفترة الاسـتبدادية هي الخلفيـة العميقة لأحداث الرواية.

مـا يقيد البطل ليـس فقط العلاقة المتناقضة بأمـه - الممثلة المعتزلة المريضة نفسـيا - التي يعيش معها في بيت واحد ويرعاها، بل يقيّده أيضا مـا أقامته حبيبته (ذات المصير التراجيدي كذلـك) من جدران وعوائق في وجهه ليبقى محاصرا حتى في السجن المجازي للحب.

روايـة جديدة بامتياز نأمل منها أن تضيف شـيئا إلى المكتبة العربية، وأن تحقق كثيرا من المتعة والفائدة للقارئ العربي.

ISBN: 978-99906-0-647-8

رابط بيع الإصدارات على الموقع الإلكتروني
https://www.nccal.gov.kw/publications